




سلسلة المعارف الإسلامية






الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org



دروس في العقيدة الإسلامية

جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام
هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ ـ ص.ب. ٢٤/٥٣ . ٢٥/٣٢٧




الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

الكتاب :دروس في العقيدة الإسلامية

إعداد :مركز نون للتأليف و الترجمة

نشر : جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة

الطبعة الاولى آب 2005م-1426هـ

سلسلة المعارف الإسلامية

# دروس
# في العقيدة الإسلامية




الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org


بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلق الله محمد المصطفى وآله الأخيار الطاهرين.

العقيدة هي الأساس الذي تبتني عليه نظرة الإنسان للكون مبدئه وحاله ومستقبله، وعلى هذا الأساس تبتني شخصية الإنسان بتوجهاتها وسلوكها وأهدافها. فالعقيدة في الحقيقة هي التي تبني الإنسان.

من هنا كان الاهتمام ببيان العقيدة وشرحها والاستدلال لها بشكل يضمن سلامة البناء المبتني على العقل السليم والمستفيد من الإرشادات الإلهية التي جاءت لتأخذ بيد الإنسان وتعينه على قطع الطريق في هذه الحياة الدنيا والفوز والنجاة في مواجهة الامتحانات والابتلاءات المعرفية والمسلكية.

هذا الكتاب بين يديك هو «دروس في العقيدة الإسلامية» يهتم ببيان أصول العقيدة الإسلامية والاستدلال لها، وهو دروس مستقاة من كتاب «دروس في العقيدة الإسلامية» لمؤلفه الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي، يضاف إلى سلسلة المعارف الإسلامية.

نسأل الله تعالى أن يفيد به كل طالب للعقائد السليمة والحمد لله رب العالمين.





# الفصل الأول

# معرفة الله

## الدرس الأول

# ما هو الدين؟

### مفهوم الدين

الدين في اللغة بمعنى الطاعة والجزاء.... وأما في الاصطلاح فتعني: الإيمان بخالق الكون والإنسان، وبالتعاليم والوظائف العمليّة الملائمة لهذا الإيمان، وذلك في مقابل أولئك الذين لا يؤمنون بالخالق إطلاقاً؛ بل يؤمنون بالصدفة والاتفاق في خلق الظواهر الكونية، أو أنها مسبّبة للأسباب المادية والطبيعية.

### أصول الدين وفروعه

يتألف الدين من قسمين رئيسين:

١ـ العقيدة التي تمثّل الأساس والقاعدة بالنسبة للدين.

٢ـ التعاليم والأحكام العملية المنبثقة من الأسس العقائدية والملائمة لها.

ومن هنا ناسب أن يسمّى قسم العقائد من الدين «بالأصول»، وقسم الأحكام العملية «بالفروع»، وقد إستخدم علماء المسلمين هذين المصطلحين في مجال العقائد والأحكام.

## الرؤية الكونية والأيديولوجية

إن ألفاظ الرؤية الكونية والأيديولوجية إستعملت في معان متقاربة، ومن معاني الرؤية الكونية أنها عبارة عن «مجموعة من المعتقدات والنظريات الكونية المتناسقة حول الكون والإنسان بل وحول الوجود بصورة عامة»، ومن معاني الأيديولوجية أنها عبارة عن «مجموعة من الآراء الكلية المتناسقة حول سلوك الإنسان وأفعاله».

وعلى ضوء هذين المعنيين يمكن أن يعتبر النظام العقائدي والأصولي لكل دين هو رؤيته الشاملة، ونظام أحكامه العملية الكلية أيديولوجية، ويتمثلان في أصول الدين وفروعه، ولكن يلزم التأكيد على أن مصطلح الأيديولوجية لا يشمل الأحكام الجزئية، كما أن مصطلح الرؤية الكونية لا يشمل المعتقدات الجزئية.

وقد تستعمل كلمة الأيديولوجية أحياناً في معنى عام بحيث يشمل الرؤية الكونية.

## الرؤية الكونية الإلهية والمادية

تنتشر بين الناس الكثير من أنواع الرؤى الكونية، ولكن يمكن تقسيمها جميعا على أساس الإيمان بالغيب وإنكاره إلى قسمين جامعين: الرؤية الكونية الإلهية، والرؤية الكونية المادية.

وقد أطلق على مَن يتبنى الرؤية الكونية المادية في العصور السابقة إسم «الطبيعي» و«الدهري» وأحيانا «الزنديق» و«الملحد»، وأما في عصرنا فيطلق عليه «المادي»، ومن أشهر المذاهب والتيارات المادية «المادية الديالكتيكية» التي تمثل البعد الفلسفي للماركسية.

## الأديان السماوية وأصولها

بحسب المستفاد من المصادر الإسلامية فإن الدين قد لازَمَ وجود الإنسان على

الأرض، فكان الإنسان الأول وهو آدم (ع) نبياً وداعياً للتوحيد، وأما سبب ظهور الشرك وتطرّق البدع إلى الأديان فهو الإنحراف والجهل والعمل بالأهواء والمطامع.

وتشترك الأديان التوحيدية في ثلاثة أصول كلية:

١ ـ الإيمان بالله الواحد.

٢ ـ الإيمان بالحياة الأبدية في عالم الآخرة، ونيل الجزاء على العمل إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر.

٣ ـ الإيمان ببعثة الأنبياء والرسل المبعوثين من الله تعالى لهداية البشرية إلى حيث سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وهذه الأصول الثلاثة تمثل إجابات حاسمة على الأسئلة الرئيسية التي يواجهها كل إنسان في صميم ذاته وفطرته: من هو خالق الوجود والإنسان؟ ما هي نهاية الحياة ومصير البشر؟ ما هو السبيل لمعرفة النظام الأفضل للحياة؟

وعليه، فإن العقائد الأساسية لكل الأديان السماوية تتمثّل في التوحيد والنبوة والمعاد، ويمكن أن نعتبر الإيمان بوجود الله الواحد «الأصل الأول» من أصول الدين الإسلامي، والإيمان بنبوة نبينا (ص) «الأصل الثاني»، والإيمان بالمعاد والحياة بعد الموت «الأصل الثالث».

## أصول الدين وأصول المذهب

تقدم أن أصول الإسلام الأساسية ثلاثة: التوحيد، النبوة، المعاد. وهذه الأصول الثلاثة تسمى أصول الدين، والمنكر لأي واحد منها ليس من المسلمين.

وهناك معتقدات أخرى نشأت من تحليل هذه المعتقدات وتجزئتها، أو أنها من لواحقها، يمكن أن نعتبرها من العقائد الأصلية أيضاً ولكن وفق إصطلاح خاص، فمثلاً يمكن أن نعتبر الإيمان بوجود الله والإيمان بتوحيده والإيمان بنبوة نبيها (ص) من أصول الدين الإسلامي، وبعض علماء الشيعة اعتبروا العدل ـ وهو من

المعتقدات المتفرعة من التوحيد ـ أصلاً مستقلاً، والإمامة ـ وهي من لواحق النبوة ـ أصلاً آخر.

وفي الواقع فإن استعمال كلمة «الأصل» في مثل هذه المعتقدات خاضع للإعتبار والمواضعة والاصطلاح، ولا مجال للنزاع والبحث حوله.

وعليه، فكلمة «أصول الدين» يمكن إستعمالها في معنيين: عام وخاص. والاصطلاح العام هو ما يقابل «فروع الدين» وقسم الأحكام، ويشمل كل العقائد المعتبرة. والإصطلاح الخاص هو الذي يختص بالمعتقدات الأساسية.

ويمكن أن نطلق «أصول الدين» على العقائد المشتركة بين جميع الأديان السماوية دون تخصيصه بدين معيَن، أمثال الأصول الثلاثة (التوحيد، النبوة، المعاد)، أما لو أضفنا إليها بعض الأصول الأخرى المختصة بدين ما فنطلق عليها «أصول الدين الخاص»، وكذلك إذا أضفنا إليها بعض المعتقدات المختصّة بمذهب معيَن أو فرقة معيّنة نطلق عليها «أصول الدين والمذهب»، أو «أصول العقائد لمذهب معيَن».



## الأسئلة



١ ـ بيّن المفهوم اللغويّ والاصطلاحي للدين.

٢ ـ ما هي أنواع الرؤية الكونية.

٣ ـ إشرح المصطلح العام، والمصطلح الخاص لأصول الدين.

٤ ـ ما هي الأصول المشتركة لكلّ الأديان السماوية ؟ وما هي أهميّتها؟

٥ ـ هناك رؤى كونية كثيرة ومتنوعة لدى الناس إلى ماذا يمكن إرجاعها كلها؟

## الدرس الثاني

# البحث عن الدين . 1 .

إنّ علم «معرفة الله» هو من أعظم العلوم شرفاً وأكثرها قيمة، بل إن التكامل الحقيقي للإنسان لا يتيسر من دون المعرفة الإلهية؛ لأن الكمال الحقيقي للإنسان يتحقق في ظل التقرب لله تعالى، ومن البديهي أنّه لا يمكن القرب إلى الله تعالى من دون معرفته، ومن هنا طرح التساؤل حول ضرورة البحث عن الدين، واستدل على وجوب معرفة الله تعالى بعدة أدلة نذكر فيما يلي أهمها.

### الدليل الأول: الدوافع الفطرية

قد يتساءل البعض عن الدافع الذي يدعو للبحث عن وجود الله تعالى، وإذا أدركنا مدى التأثير الإيجابي الذي يتركه الإيمان بالله على حياة الإنسان وسلوكه، والفرق الكبير بينه وبين سلوك الذين لا يؤمنون بالله. لم يعد لهذا التساؤل من مبرّر، ومع ذلك فإنّ الدوافع الفطرية في الإنسان تدعو بوضوح للبحث عن الدين، وتتجلّى هذه الدوافع بعدّة أشكال، وهي:

### الدافع الأوّل : غريزة حب الاستطلاع

من الخصائص النفسية للإنسان، وجود الدافع الفطري والغريزي لديه لمعرفة

الحقائق، والإطلاع على الواقعيات، وهو المعبّر عنه «بحبّ الاستطلاع» الذي يدفع الإنسان إلى التفكير والتأمل وطرح التساؤلات في محاولة البحث عن الحقائق بما فيها الدين الحقّ.

ومن هذه التساؤلات: هل هناك وجود لموجود غير محسوس وغير ماديّ (الغيب)؟ وإذا كان له وجود فهل هناك علاقة بين عالم الغيب والعالم المادي المحسوس؟ وإذا كانت هناك علاقة، فهل هناك موجود غير محسوس خالق للعالم المادي؟ هل ينحصر وجود الإنسان بهذا البدن المادي؟ وهل تتحدّد حياته بهذه الحياة الدنيوية؟ أم هناك حياة أخرى؟ وإذا كانت هناك حياة أخرى، فهل هناك علاقة وارتباط بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة؟ وإذا وجدت العلاقة، فما هي الظواهر الدنيوية التي لها تأثير في الأمور الأخروية؟ وما هو السبيل لمعرفة النظام الأكمل للحياة؛ النظام الذي يكفل سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة؟ وما هي طبيعة هذا النظام؟.

إذن فغريزة حبّ الاستطلاع تمثّل الدافع الأوّل الذي يدفع الإنسان للبحث عن إجابات لهذه الأسئلة وغيرها من المسائل الدينية، ومعرفة الدين الحق.

### الدافع الثاني: غريزة البحث عن المنفعة والأمن من الضرر

ممّا يشدّد من رغبة الإنسان في معرفة الحقائق، أن إرضاء الحاجات الطبيعية وإشباع الدوافع الفطرية لديه لا يتحقّق إلا من خلال الإلمام ببعض المعارف الخاصة التي تجلب له النفع وتدفع عنه الضرر. فإذا أمكن للمعارف الدينية خاصة أن تساعد الإنسان على إشباع حاجاته، وتوفير المنافع التي ينشدها، والأمن المضار والأخطار التي تتهدّده، فسيكون الدين من المجالات التي ينشدها الإنسان بفطرته، وبذلك تكون غريزة البحث عن المنفعة والأمن من الضرر والخطر دافعاً آخر للبحث عن الدين.

ومن هنا نحتاج إلى إثبات أهميّة البحث عن الدين ولو بنحو الإشارة، وبيان كيف أن المسائل الدينية تحظى بأهمية خاصة على مستوى حياة الإنسان ومصيره الأخروي، وأن البحث عن أي موضوع آخر لا يملك القيمة والأهمية التي يملكها البحث عن المواضيع الدينية.

وعلى ضوء ذلك نقول: حين يعلم شخص ما بوجود أفراد على امتداد التاريخ ادّعوا بأنهم مبعوثون من قِبل خالق الكون لهداية البشر لما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، وقد بذلوا أقصى جهودهم في سبيل إبلاغ رسالاتهم، وهداية البشرية، وتحمّلوا كل ألوان المتاعب والتحدّيات، بل ضحّوا بأرواحهم في سبيل هذا الهدف، فإن هذا الشخص وبتأثير من الدافع الفطري فيه الذي يدعوه لجلب المنفعة ودفع الضرر، يتحرّك للبحث عن الدين ليرى مدى صحة دعوى الأنبياء، وهل يمتلكون الأدلة المنطقية الكافية على صحّة دعاواهم، وخاصة حين يعلم بأنّ دعوتهم ورسالتهم تتضمّن البشرى بالسعادة والنعمة الخالدة، والإنذار بالشقاء والعذاب الأبدي، أي أن الإيمان بدعوتهم يتضمّن المنافع المحتملة اللانهائية، وأن عصيانهم تتعقّبه الأضرار والأخطار المحتملة اللانهائية، فلا يبقى أي مبرّر لمثل هذا الشخص في عدم الاهتمام بالدين، وفي إتّخاذ موقف اللامبالاة والتغافل عن محاولة البحث عن الدين.

ولهذا اعتبر القرآن الكريم أمثال هؤلاء الغافلين غير المبالين أضلّ من الأنعام **﴿أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾**[1]، وفي آية أخرى يقول **﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾**[2].

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٢.

## شبهة وجوابها

قد يدعي البعض بأن الدافع للبحث عن شيء ما إنما يكون محرّكاً وفاعلاً فيما إذا كان إحتمال الوصول إلى نتيجة قوياً وعالياً، أما وإن احتمال الوصول إلى نتيجة في البحث عن الدين ضعيف جداً فلا يكون مثل هذا الاحتمال محركاً ولا يعبأ به أو يلتفت إليه، وعليه فمن الأفضل بذل الجهد في البحث عن مسائل تكون درجة الاحتمال فيها قوية ومؤثرة كما هو الحال في المسائل العلمية المعتمدة على التجربة.

والجواب: يقع من جهتين:

**الجهة الأولى:** إن الأمل في معالجة المسائل الدينية وإحتمالها ليس ضعيفاً كما توهم، بل إن الأمل فيها ليس بأقل من المسائل التجريبية، خاصة وأن بعض المسائل العلمية التجريبية تحتاج إلى سنوات من الجهود المضنية والأمل فيها ضعيف جداً، ومع ذلك تبذل الجهود دون تردد ولا ملل، وهذا يفتح الباب للجهة الثانية من الجواب.

**الجهة الثانية:** إن الدافع والمحرك للبحث لا يعتمد فقط على درجة الإحتمال قوة وضعفاً فقط، بل لا بد من مراعاة درجة المحتمل أيضاً، وذلك لأن المحتمل يزود الإحتمال بقوة الدفع والتحريك باتجاه البحث، وهذا ما تجده في كثير من المسائل والقضايا، فلو احتملت قوياً ٨٠٪ مثلاً أنك أضعت مبلغاً بسيطاً من المال لا يعتدّ به أثناء سيرك ليلاً، فإنك لن تبحث عنه، وما ذلك إلا لضعف المحتمل مع أن الإحتمال كان قوياً وكبيراً، بخلاف ما لو احتملت ٢٠٪ أنك فقدت مبلغاً كبيراً من المال أثناءي سيرك ليلاً، ففي مثل هذه الحال ستجد في نفسك دافعاً قوياً للبحث عنه وستبدأ بالبحث مباشرة، وما ذلك إلا لأن المحتمل كان قوياً وكبيراً مهما كانت درجة الإحتمال ضعيفة وبسيطة.

**والمحصل:** إن لكلٍ من الإحتمال والمحتمل دوره في التحريك والدفع نحو البحث، وقصر النظر على قيمة الإحتمال مخالف للعقل والعقلاء.

ويما أن المنفعة المحتملة المترتبة على البحث عن الدين لا حدّ لها وهي كبيرة وقوية جداً بحيث تكفي لدفع الإنسان وتحريكه للبحث عنها فيجب على العامل في مثل هذه الحال أن يبحث عن مسائل الدين ويبذل الجهد في سبيل تحصيلها لأهميتها التي تفوق بدرجات قيمة المحتمل في أي مسألة علمية تجريبية.

هذا كله لو سلمنا أن درجة الاحتمال ضعيفة، فكيف لو كان هذا الاحتمال قوياً.

**الدافع الثالث: فطرية الشعور الديني نفسه**

إن بعض علماء النفس ـ واستناداً إلى شواهد التاريخ وعلم الآثار ـ يقرّون بأن لعبادة الله والتديّن دافعاً فطرياً مستقلاً في الإنسان مصدره الشعور الديني، ويعتبرون حسّ التديّن هذا بعداً رابعاً للروح الإنسانية بالإضافة إلى حب الاستطلاع، والشعور بالخير، والشعور بالجمال، ومن هنا يرون أن التديّن وعبادة الله ظاهرة ثابتة ـ بشكل من الأشكال ـ في كل الأجيال البشرية على إمتداد التاريخ، وهذا الثبات الدائم لهذه الظاهرة دليل على فطريتها.

ولكن لا يلزم من القول بشمولية الدافع الفطري أن يوجد دائماً بشكل حي ويقظ في الأفراد، بحيث يدفع الإنسان شعوريّاً لأهدافه المنشودة، بل من الممكن أن يختفي هذا الشعور الفطري في أعماق الفرد نتيجة لعوامل المحيط والتربية غير السليمة، كما قد تنحرف الميول والغرائز عن مسارها الطبيعي للسبب نفسه. وعلى ضوء ذلك فإن للبحث عن الدين دافعه الفطري المستقل ولا نحتاج لإثبات ضرورته إلى دليل.

**الدافع الرابع: لزوم شكر المنعم**

وهذا الدافع هو من الدوافع العقلية الفطرية، وهو أنّ النعم التي تواكب الحياة الإنسانية والتي لا يسع أحد إنكارها هي من الكثرة بحيث لا تبلغ حدّ الإحصاء،

ومن جانب آخر فإن العقل الفطري يحكم بلزوم شكر المنعم على نعمه (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان)، ولا يتحقق شكر المنعم الحقيقي (وهو الله تعالى) إلا بمعرفته، ولا تتحقق المعرفة إلا بالبحث عنه والإستدلال على وجوده تعالى.



## الأسئلة



١ . لماذا عد علم «معرفة الله» من أعظم العلوم شرفاً وأكثرها قيمة؟

٢ . ما هو الدافع الذي يدفع الإنسان لمعرفة الحقائق؟

٣ . ما هو الشعور الديني؟ وما هو الدليل على وجوده؟

٤ . بيّن ضرورة البحث عن أصول الدين.

٥ . هل يمكن أن نعتبر من ضعف إحتمال التوصّل إلى العلاج اليقيني في المسائل الدينية مبرّراً لتجنب البحث عنها؟ ولماذا؟.

## الدرس الثالث

# البحث عن الدين ـ ٢

### الدليل الثاني: الشرط المقوّم للحياة

وهذا الدليل على ضرورة البحث عن الدين، والسعي لمعرفة الدين الحق، ينبع من الفطرة الإنسانية أيضا وهو في الحقيقة عبارة عن صياغة فنيّة دقيقة للدليل الفطري.

ومفاده هو أن كل إنسان لو لم يبحث عن الدين، ولم يحصل له العلم والمعرفة بالله تعالى، فإنه لن يصل إلى كماله الإنساني المطلوب، بل لا يمكن أن يعدّ إنسانا على الحقيقة. وإثبات هذه الحقيقة يعتمد على ثلاث مقدمات:

١ ـ الإنسان موجود باحث عن الكمال بفطرته.

٢ ـ الكمال الإنساني إنما يتحقّق في ظل الأفعال الاختيارية المنبثقة من حكم العقل.

٣ ـ الأحكام العملية للعقل إنما تتكوّن على ضوء معرفة مبدأ الوجود (التوحيد)، ومصير الحياة (المعاد)، والسبيل الذي يكفل الحصول على النظام الذي يوفر السعادة (النبوة)، أي معرفة الوجود، ومعرفة الإنسان، ومعرفة السبيل.

### أولاً: الإنسان باحث عن الكمال

لو تأمل كل واحد منا في دوافعه الداخلية، وميوله النفسية، للاحظ أن الدافع الأساسي للكثير منها هو الرغبة في الكمال، ولن نجد إنساناً يرغب في النقص في وجوده، ولهذا يسعى جاهداً وبحسب وسعه لإزالة كل النقائص والعيوب عن نفسه، ليبلغ كماله المنشود، وقبل إزالتها يحاول إخفاءها عن الآخرين.

وإذا وقع هذا الدافع الفطري في مساره السليم فسيؤدي إلى رقيّه وتكامله المادي والمعنوي، ولكن لو وقع في مسار منحرف نتيجةً لبعض العوامل والظروف، فإنه سيؤدي إلى الكثير من العواقب السيئة كالاستعلاء والتكبّر والرياء والتهالك على السمعة والظهور.. إذن فالرغبة في الكمال عامل فطري قويّ كامن في عمق الروح الإنسانية.

### ثانياً: كمال الإنسان في إطاعة العقل

إنّ عملية النمو والتكامل في النباتات تحصل بصورة حتمية، وتخضع لتوفر العوامل والظروف الخارجية الملائمة، فلا تنمو الشجرة بإرادتها، ولا تثمر الثمرة التي تختارها، ذلك لأن النبات لا يملك الشعور والإرادة. أما الحيوانات فيمكن أن يكون لها نصيب من الإرادة والاختيار في تكاملها، ولكنها إرادة منبثقة من الغرائز الحيوانية التي يتحدّد عملها ونشاطها في حدود تلبية الحاجات الطبيعية المحدودة. أما الإنسان فبالإضافة إلى ما يملكه من الخصائص النباتية والحيوانية إلاّ أنه يختص بميزتين روحيتين: فهو من جهة لا تتحدّد رغباته الفطرية بحدود الحاجات الطبيعية، ومن جهة أخرى يملك قوة العقل، حيث يمكنه من خلالها أن يوسّع في معارفه إلى ما لا نهاية، وبسبب هاتين الميّزتين تتجاوز إرادته حدود الطبيعة الضيّقة، وتتجه بإتجاه اللانهاية.

وكما أن الكمالات المختصّة بالنبات إنما تنشأ بواسطة القوى النباتية المعيّنة، والكمالات الحيوانية إنما تحصل من إرادتها المنبثقة من الغرائز والإدراكات الحسيّة، فكذلك الكمالات المختصّة بالإنسان التي تتمثّل في الواقع بكمالاته الروحية، إنما يتوصّل إليها من خلال إرادته الشعورية وعلى ضوء توجيهات العقل وإرشاداته، العقل الذي يتعرّف على مختلف الإتجاهات والمستويات المطلوبة، وحينما تتصادم وتتزاحم فإنه يختار الأفضل منها.

وعليه، فإن إنسانية الفعل إنما تتحقّق بالإرادة المنبثقة من الميول والرغبات التي يختص بها الإنسان، وعلى ضوء هداية العقل وتوجيهه، وأما الفعل الذي يصدر من دافع حيواني محض، فهو عمل حيواني، كما أن الحركة التي تنشأ من القوى الميكانيكية البحتة للبدن، هي حركة فيزيائية.

**ثالثاً: الأحكام العملية للعقل تحتاج إلى الأسس النظرية**

إن الفعل الإختياري هو وسيلة الإنسان التي يتوصّل من خلالها إلى الهدف المنشود، وبالتالي يخضع في قيمته لدرجة الهدف الذي ينشده، ولمدى تأثيره في تكامل الروح، كما أن الفعل الإختياري لو أدّى إلى فقدان كمال روحي فستكون له قيمة سلبيّة معكوسة.

إذن فالعقل إنما يمكنه الحكم على الأفعال الاختياريّة وتقويمها، فيما لو كان مطّلعا على كمالات الإنسان ومستوياتها، وكان عالما بواقع الإنسان، وبأبعاد حياته، والكمال الذي يمكن له بلوغه.

ومن هنا فالتوصّل إلى النظام الخلقي والقيمي الحاكم على الأفعال الإختيارية لا يتمّ إلا برؤية صحيحة شاملة للكون والحياة، وعلاج مسائلها ومواضيعها، وإذا لم يعالج هذه المسائل، فلا يمكنه الحكم اليقيني بقيمة الأفعال، كما أنه لو لم يعرف الهدف، فلا يمكنه أن يحدّد المسار الذي يؤدي إلى هذا الهدف، إذن فهذه

المعارف النظرية التي تشكّل المسائل الرئيسية للرؤية الكونية، هي في واقعها الأساس للنظام الخلقي والأحكام العملية للعقل.

## النتيجة

على ضوء هذه المقدمات يمكن لنا أن نثبت ضرورة السعي والبحث عن الدين، ففي الإنسان يوجد نزوع فطري إلى كماله، ويستهدف من خلال ممارسته لبعض الأفعال التوصّل إلى كماله الحقيقي، ومن أجل التعرّف على الممارسات التي توصله إلى هدفه المنشود، لا بد له أن يعرف أوّلاً كماله النهائي، ومعرفته إنما تتمّ فيما لو تعرّف على حقيقة وجوده، وبدايته ونهايته، ثم عليه أن يحدّد العلاقة الإيجابية أو السّلبيّة بين أفعاله المختلفة والمراحل والمستويات المختلفة لكماله، حتى يتمكّن من الوصول إلى المسار الصحيح المؤدّي إلى كماله الإنساني، وإذا لم يتوصّل إلى هذه المعارف النظرية فلا يمكنه أن يتقبّل نظاماً عملياً صحيحاً.

إذن، فمن الضروري البحث والسعي لمعرفة الدين الحق، وإلا فإنه لا يمكنه التوصّل إلى الكمال الإنساني، والأفعال التي تنبثق من مثل هذه القيم والمعارف لن تكون أفعالاً إنسانية، وأولئك الذين عرفوه ولكن كفروا به وانحرفوا عنه عناداً وخضعوا تماماً لنزواتهم ورغباتهم الحيوانية، والملذّات المادية العابرة، لم يرتقوا إلى مستوى الإنسانية في واقعهم كما يقول القرآن الكريم: ﴿**يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ**﴾[1]، وبما أنهم أضاعوا الاستعدادات الإنسانية فسوف يكون جزاؤهم رهيبا وعسيرا، لما أضاعوه من طاقات ومواهب إنسانية زاخرة ﴿**ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾[2].

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٢.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٣.



## الأسـئلة



١ . ما هي المقوّمات التي يتألّف منها الدليل الثاني لضرورة البحث عن الدين؟

٢ . كيف يعتمد النظام الخلقي والقيمي والأحكام العملية للعقل على المدركات النظرية التي تشكّل المسائل الرئيسية للرؤية الكونية؟

٣ . كيف يكون كمال الإنسان من خلال إطاعة العقل؟

٤ . لماذا وصف الله تعالى بعض الناس بقوله: (يتمتّعون ويأكلون كما تأكل الأنعام)؟

٥ . ما المقصود بإضاعة الإستعدادات الإنسانية؟

## الدرس الرابع

# الإستدلال على وجود الله تعالى

## (دليل النظام)

### أنواع الأدلة

إنّ الأدلّة التي سنتعرض لها لإثبات وجود الله تعالى يمكن تقسيمها إلى فئتين:

**الفئة الأولى:** هي الأدلّة التي تتام عن طريق مشاهدة الآثار والآيات الإلهية في العالم، وتستند إلى مقدمات حسيّة تجريبية. مثل دليل النظام الذي يطرح عن طريق الإنسجام والترابط والتناسب المنظّم للعالم.

**الفئة الثانية:** هي الأدلة الفلسفية الخالصة التي تتكوّن من مقدّمات عقليّة محضة، مثل دليل الإمكان ودليل الصدّيقين.

### دليل النظام

إن دليل النظام هو من أوضح الأدلة وأيسرها فهماً بالنسبة للجميع. وهو يعتبر من أشهر أدلة الفئة الأولى، ويقوم دليل النظام على أساس مشاهدة الآثار والآيات الإلهية في العالم، وملاحظة الإنسجام والتناسب القائم بين مخلوقات هذا العالم، والإهتداء إلى وجود الله تعالى عن طريق مشاهدة هذا النظام الدقيق البديع السائد في عالم الكون. ويمكن توضيحه من خلال الخطوات التالية:

### أولاً: الصياغة المنطقية

الصياغة المنطقية لهذا الدليل هي:

- هذا العالم منظَّم.
- وكل منظَّم يحتاج إلى منظِّم.
- إذن: هذا العالم يحتاج إلى منظِّم.

### ثانياً: مفهوم النظام

مفهوم النظام من المفاهيم الواضحة في ذهن الإنسان، ومن خصائص النظام أنه يتحقق بين أمور مختلفة سواء كانت أجزاء لمركب [١]، أو أفراداً من ماهية واحدة [٢]، أو ماهيات مختلفة [٣]. فهناك ترابط وتناسق بين الأجزاء، أو توازن وانسجام بين الأفراد يؤدي إلى هدف وغاية مخصوصة، هي وجود الشيء على ما هو عليه من النظام الهادف.

### ثالثاً: كيفية الإستدلال بالنظام

يتألّف دليل النظام من مقدمتين: إحداهما حسيّة وهي (هذا العالم منظَّم)، والأخرى عقلية وهي (كل منظَّم يحتاج إلى منظِّم)، وإذا تمَت المقدمتان يثبت المطلوب، وهو: (هذا العالم يحتاج إلى منظِّم).

**١ - إثبات المقدمة الأولى (هذا العالم منظَّم):**

لا شك في أن هناك نظام سائد في الظواهر الطبيعية التي يعرفها الإنسان أمّا بالمشاهدة الحسيّة الظاهرية وأمّا بفضل الأدوات والطرق العلميّة التجريبية. ومن

---

(١) كالتلازم الموجود بين الأجزاء الأساسية التي تتركب منها الشجرة الواحدة.

(٢) كالتوازن الحاصل بين الأشجار المتعددة الداخلة تحت ماهية الشجرة الواحدة.

(٣) كالتأثر والتأثير المتبادل بين الشجر والإنسان مثلاً.

هنا فإن للعلوم الطبيعية دور واسع في هذا الدليل. وفيما يلي إشارات سريعة على بعض النماذج النظامية:

**المنظومة الشمسية:**

إنّ من أهم ما يلفت النظر في المنظومة الشمسيّة هو المسافات الدقيقة التي تفصل الشمس عن الكواكب التابعة لها. والحركات المنتظمة لهذه الشمس والكواكب وما يتولد عن ذلك، أو يترتب عليه من الأحوال اللازمة كالفصول والليل والنهار وما شابه ذلك.

**عالم النبات:**

إنّ النظر إلى النباتات يهدينا إلى أنّ هذا النوع من الكائنات عالم عجيب تحكمه المعادلات الدقيقة ونجد من عجيب التركيب في هذه الأمور والأسرار العجيبة في عالم النباتات ما يدعو إلى ظهور علوم مختلفة مثل علوم تركيب النبات وشكله، وعملية التخليق الضوئي و.. إلخ.

**خلقة الإنسان:**

لو قلنا بأنّ الإنسان من أعجب الكائنات وأكثرها إثارة للدهشة لم نكن في ذلك مبالغين، وذلك لأننا نجد في هذا الكائن كل ما تفرق في المخلوقات مضافاً إلى أجهزة معقّدة أخرى.

ومن الأجهزة المعقّدة التي تثير الدهشة لكثرة ما فيها من عجائب وأسرار وأنظمة وقوانين: عالم الخلايا، جهاز الهضم، جهاز الدورة الدموية، جهاز التنفس، جهاز المخّ، ولعلّ أكثر أقسام الجسم البشري تعقيداً ونظاماً هو «المخ» باعتباره مركز القيادة والأعصاب التي هي وسيلة اتصال المخ بالجسم وبالعكس[1].

وعليه، فإن المقدمة الأولى في دليل النظام ثابتة بالمشاهدة الحسيّة الظاهرية، أو من خلال الأدوات والطرق العلميّة التجريبية. ولهذا فإن من خصائص هذا

---

(1) انظر: الإلهيات، ص٢٢ ـ ٢٤.

النوع من الأدلة أنها تستند إلى مقدمات حسيّة تجريبية.

**٢ ـ إثبات المقدمة الثانية (كل منظَّم يحتاج إلى منظِّم):**

إنّ العقل بعدما لاحظ النظام وما يقوم عليه من دقة وروعة في التقدير والتوازن والإنسجام، يحكم بالبداهة بأن أمراً هكذا شأنه يمتنع صدوره إلا عن فاعل قادر عليم ذي إرادة وقصد، ويستحيل أن يتحقق ذلك صدفة [١] وتبعاً لحركات فوضوية للمادة العمياء الصمّاء، فإنّ تصوّر مفهوم النظام، وأنه ملازم للحساب الدقيق والعلم، يكفي في التصديق بأن النظام لا ينفك عن وجود منظِّم عالِم أوجده، وحُكم العقل بذلك من البديهيات.

وعليه، فإن وجود النظام في الكون والحياة لا بد أن يكشف عن وجود المنظّم، وذلك بمقتضى حساب الإحتمالات الذي يرفض إعتبار الصدفة سببا لوجود النظام في الكون، فالشخص الأمي إذا أراد أن يكتب مقالة بسيطة أو شعرا بمجرد الضغط عشوائيا على مفاتيح الآلة الكاتبة بصورة عفوية وتصادفية، فإن ذلك بحساب الإحتمالات يستغرق بلايين السنين بحيث لا يكفي حتى عمر الكرة الأرضية لإنجاز ذلك. هذا إذا تصورنا ما تحتاجه مجرد مقالة بسيطة لتظهر صدفة فكيف بهذا الكون الرحب والواسع والمعقد في تكوينه تعقيداً بالغاً؟!

وعليه، فإن المقدمة الثانية في دليل النظام عقلية بديهية لا تحتاج إلى الدليل والبيان، وهي ترتكز في صميمها إلى قانون العليّة الثابت بحكم العقل البديهي.

**٣ ـ النتيجة:**

بما أن العالم منظَّم بحسب المشاهدات الحسية والوقائع التجريبية، وبما أن كل منظَّم يحتاج إلى منظِّم بالبداهة العقلية، إذن فالعالم يحتاج إلى الخالق المنظِّم، وبذلك يثبت المطلوب.

---

(١) الصدفة هنا تعني وجود نظام من فاعل غير قاصد وغير مدرك لما يقوم به.

## رابعاً: خصائص الاستدلال بالنظام

يتميّز دليل النظام بالخصائص التالية:

١ - إن هذا الدليل لا يحتاج إلى مقدمات صعبة معقّدة، بل إن مقدماته واضحة وسهلة، ويمكن لجميع الناس على إختلاف مستوياتهم الثقافية فهمه وإستيعابه، وذلك لأن مقدماته إما حسيّة تجريبية واضحة، وإما عقلية بديهية.

٢ - إن مقدّمات هذا الدليل توجّه الإنسان مباشرة إلى معرفة الخالق العالم القادر من خلال مظاهر الخلق والعلم والقدرة في العالم المشهود، بخلاف الأدلة العقلية المحضة التي تثبت وجود واجب الوجود، ثم تثبت علمه وقدرته وخالقيته وسائر صفاته بأدلّة أخرى.

٣ - إن هذا الدليل ينهض بدور إيقاظ الفطرة وتحويل المعرفة الفطرية إلى مجال الوعي والشعور.

## خامساً: النظام في الكتاب والسنّة

يزخر القرآن بالآيات الكريمة التي تلفت الأنظار إلى ما في الكون من أنظمة بديعة:

منها قوله تعالى: **﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾** [1].

وقوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾** [2].

وقوله تعالى: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾** [3].

---

(١) سورة الملك، الآية: ٢٣.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ١٢ - ١٣.

(٣) سورة السجدة، الآية: ٢٧.

وفي كلمات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) إشارات واضحة إلى هذا الدليل كقوله (عليه السلام): «**ولو فكروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة، لرجعوا إلى الطريق، وخافوا عذاب الحريق، ولكن القلوب عليلة، والبصائر مدخولة**»[1].

وقد أملى الإمام الصادق (عليه السلام) على تلميذه المفضل، عدداً من الأنظمة وما فيها من أسرار وحكم وعجائب، من أجهزة الإنسان والحيوانات الأخرى، والطيور والحشرات، والفلك وما يحصل من تغيّرات، والنباتات وأسرار إختلافها، والأمراض وأدويتها، ثمّ الموت والفناء[2].



## الأسئلة



١ - ما هو النظام وكيف يدل النظام على وجود الله تعالى؟
٢ - صغ دليل النظام بصيغة منطقية (مقدمات ونتيجة).
٣ - أثبت المقدمة الثانية من دليل النظام (كل منظَّم يحتاج إلى منظِّم).
٤ - ما هي خصائص دليل النظام؟
٥ - إستعرض بعض الآيات والروايات التي تشير إلى دليل النظام.

---

(١) نهج البلاغة، تحقيق محمد عبده، ج٢، ص٢٢٥ - ٢٢٦.
(٢) كتاب توحيد المفضل، ص٢٧ - ٣٨.

## الدرس الخامس

# الاستدلال على وجود الله تعالى

## (دليل الإمكان)

تقدّم أنّ الفئة الثانية من الأدلّة على وجود الله تعالى هي الأدلة الفلسفية الخالصة التي تتكون من مقدمات عقلية محضة، مثل دليل الامكان، ودليل الصدّيقين، ونكتفي هنا بذكر دليل الإمكان.

### دليل الإمكان

من الأدلة المعروفة لإثبات واجب الوجود دليل «الإمكان»، أو دليل «الإمكان والوجوب»، وهذا الدليل يثبت وجود الله بعنوان أنّه «واجب الوجود»، أي أنّ وجوده ثابت بالضرورة العقلية التي يستحيل معها فرض عدمه، وإذا كان كذلك فلا يكون محتاجا إلى علّة توجده، وهذا بخلاف «الممكن الوجود»، وهو الذي يكون محتاجا في وجوده إلى العلّة التي توجده.

### أولاً: الصياغة المنطقية

الصياغة المنطقية لدليل الامكان هي كالتالي:

- الموجود إمّا موجود بذاته، أو بغيره (ممكن الوجود).

ـ وكل موجود بالغير لا بدّ أن ينتهي إلى موجود بالذات.

ـ إذن: واجب الوجود بالذات موجود.

## ثانياً: مفهوم الإمكان

يمكن أن يتّضح معنى الوجوب والإمكان من خلال المثال التالي، وهو أن العدد «إثنان» مثلاً يجب أن يكون زوجاً (وهو الوجوب)، ويستحيل أن يكون فرداً (وهو الامتناع). أما «مطلق العدد» فيمكن أن يكون زوجاً كما لو فرضناه أربعة، ويمكن أن يكون فرداً كما لو فرضناه ثلاثة، (وهو الإمكان).

والسرّ في ذلك هو أنه عندما تكون العلاقة بين شيئين هي علاقة الإمكان فيمكن أن نفترض أحد الشيئين بدون الآخر، كما في «مطلق العدد» و«الزوجية» فإن العدد ثلاثة مثلاً هو عدد ولكنه ليس بزوج. أما عندما تكون العلاقة بين الشيئين هي علاقة الوجوب فلا يمكن أن نفترض أحد الشيئين بدون الآخر، فلا يمكن أن نفترض العدد إثنين بدون أن يكون زوجا. وما ذكرناه هو من باب التقريب وإلاّ ففي الوجوب لا يوجد شيئان في الحقيقة بل شيء واحد، فعندما نقول «الطعام مالح» هنا يوجد شيئان: الطعام والملوحة، ولكن عندما نقول «الملح مالح» فهنا لا يوجد شيئان بل شيء واحد؛ إذ الملوحة هي عين الملح.

وإذا التفتنا إلى قضية أن المثال يضرب ولا يقاس، فيمكن تشبيه القضية «الله واجب الوجود» بالقضية «الملح مالح» إذ لا يوجد هنا شيئان أحدهما منسوب إلى الآخر، بل إن وجوب الوجود هو عين الذات المقدسة، بخلاف قولنا «الإنسان ممكن الوجود» الذي يشبه قولنا «الطعام مالح» فهنا يوجد شيئان وأحدهما منسوب إلى الآخر.

وحيث إن الطعام لا يكون مالحاً بذاته بل إن الملوحة طارئة عليه يحق لنا أن نتساءل عن السبب والعلّة التي أوجبت الملوحة للطعام، كما يحق لنا أن نتساءل عن

السبب والعلة التي أوجبت الوجود للإنسان.

وحيث إن الملح مالح بذاته وليست الملوحة طارئة عليه، فلا يحق لنا التساؤل عن السبب والعلة التي أوجبت الملوحة للملح، كما لا يحق لنا التساؤل عن السبب والعلة التي أوجبت الوجود للذات المقدسة الواجبة، بل يتضح أن مثل هذا السؤال لا معنى له حينئذ.

ومن هنا نعرف أن الممكن الوجود (كالإنسان) هو الذي تتساوى النسبة في ذاته إلى الوجود والعدم، وبالتالي لا يترجّح جانب وجوده على عدمه إلا بسبب تدخّل عامل خارجي، وما لم يتدخل عامل خارجي فلا يتحقّق وجود الإنسان. فالإنسان لا يملك «ضرورة الوجود» بدون تدخّل من الغير، وهذا هو معنى أنه موجود بالغير وليس بالذات.

## ثالثاً: كيفية الإستدلال بالإمكان

ويمكن توضيح كيفية الإستدلال بالإمكان من خلال الخطوات التالية:

- لا يشكّ الإنسان في وجوده ووجود كائنات أخرى من حوله.
- هذه الموجودات بما فيها وجود الإنسان نفسه يدور أمرها بين أن تكون واجبة الوجود جميعا، أو ممكنة الوجود جميعا، أو أن بعضها واجب وبعضها الآخر ممكن.
- على القول الأول (جميع الموجودات واجبة) والقول الثالث (بعض الموجودات واجبة) يثبت وجود الواجب . ولكن على القول الثاني (جميع الموجودات ممكنة) لا يثبت وجود الواجب، وهنا فقط نحتاج لإثبات وجود الواجب.
- إذا كانت جميع الموجودات ممكنة فتكون جميعها معلولة ومحتاجة إلى علة موجدة لها. وحيث إن الموجودات الممكنة معلولة فلا تكون واجبة بالذات؛ إذ الواجب بالذات يستحيل أن يكون له علة، فيكون وجوبها بالغير.

❖ وهذا الغير إما واجب بالغير أيضا وإما واجب بالذات، فإن كان واجبا بالغير فإما أن تكون علة وجوده هي نفسه فيلزم الدور المحال، وإما أن تكون علته الغير فلا تقف السلسلة إلى حد فيلزم التسلسل المحال.

❖ وحيث إن الدور والتسلسل محال فلا بد أن تنتهي سلسلة الوجوبات بالغير إلى الوجوب بالذات، وهو المطلوب.

- **أما بطلان الدور:** فلأنه لا يمكن لموجود أن يوجد نفسه والحال أنه معدوم، وكيف نتعقل أن شيئاً كان معدوماً ثم أوجد نفسه؟! وهل يمكن لفاقد الشيء أن يعطيه؟!

- **أما بطلان التسلسل:** فلأنه لو كانت جميع الموجودات معلولة للغير، ولم يكن هناك موجود ليس معلولاً للغير، فيلزم حينئذ عدم وجود شيء في الخارج رأساً.

**توضيح ذلك:** لو أن هناك عشرة أشخاص يستعدون للانطلاق في مسابقة جرياً على الأقدام، واشترطنا على كل واحد منهم أن لا يبدأ بالجري حتى يبدأ غيره بالجري، فهل سيبدأ أحدهم بالركض؟ قطعاً لن يركض أي واحد منهم على الاطلاق.

وكذلك الأمر فيما لو أن كل موجود من موجودات هذا العالم لن يوجد إلا إذا أوجده غيره، ولا يوجد موجود بحيث يكون وجوده من نفسه، فهل سيتحقق الوجود لأي موجود حينئذ؟ قطعاً لن يتحقق الوجود لأي موجود على الاطلاق.

نعم إنما يتحقق الوجود لسلسلة الموجودات في حالة واحدة فقط، وهي فيما إذا افترضنا أن سلسلة الموجودات تستند إلى موجود يكون وجوده من ذاته وليس من غيره، وهو واجب الوجود.

وعليه، فكل ممكن متّصف بالوجود لا بدّ أن يستمدّ الوجود من قِبَل الواجب الوجود بالذات؛ لأن الممكن الوجود إما أن يستمد وجوده من العدم وهو باطل بالبداهة، وإما أن يستمد وجوده من ممكن آخر، وهو باطل أيضا لاستحالة التسلسل والدور، فينحصر الأمر في أن يكون الموجِد هو الواجب الوجود.

## رابعاً: خصائص الإستدلال بالإمكان

١ ـ يتكوّن دليل الإمكان من مقدمات عقلية محضة، بخلاف الأدلة السابقة التي تتألف في بعض مقدماتها من قضايا حسيّة تجريبية.

٢ ـ يبتني دليل الإمكان على إبطال الدور والتسلسل.

٣ ـ يبدأ دليل الإمكان من الممكن الوجود وليس من حقيقة الوجود الواجبة.

## خامساً: دليل الإمكان في القرآن

وقد أُشير في الذكر الحكيم إلى شقوق دليل الإمكان، فإلى أنّ حقيقة الممكن حقيقة مفتقرة لا تملك لنفسها وجوداً ولا أي شيء آخر أشار بقوله:

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿**وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى**﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء**﴾[3].

وإلى أن الممكن ومنه الإنسان لا يتحقق بلا علّة، ولا تكون علّته نفسه، أشار سبحانه بقوله: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ**﴾[4].

وإلى أن الممكن لا يصح أن يكون خالقاً لممكن آخر بالأصالة والإستقلال ومن دون الإستناد إلى خالق واجب أشار بقوله: ﴿**أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ**﴾[5].

وهكذا إذا تمعّنا في كتاب الله عزّ وجل لرأينا عدداً لا يحصى من الآيات والأدلة حول دليل الإمكان.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٥.

(٢) سورة النجم، الآية: ٤٨.

(٣) سورة محمد، الآية: ٣٨.

(٤) سورة الطور، الآية: ٣٥.

(٥) سورة الطور، الآية: ٣٦.

**سادساً: إشكال ورد**

استشكل على القول بانتهاء الممكنات إلى علّة أزليّة موجودة بنفسها بأنّ ذلك مناف للقاعدة العقلية الحاكمة بأن الشيء لا يتحقق بلا علّة.

**والجواب:** إنّ القاعدة العقلية تختص بالموجودات الإمكانية التي لا تقتضي في ذاتها وجوداً ولا عدماً؛ إذ الحاجة إلى العلّة، ليس من خصائص الموجود بما هو موجود، بل هي من خصائص الموجود الممكن، فإنه حيث لا يقتضي في حدِّ ذاته الوجود ولا العدم، لا بدّ من علّة توجده، ويجب إنتهاء أمر الإيجاد إلى ما يكون الوجود عين ذاته ولا يحتاج إلى غيره، لما تقدم من إقامة الدليل على إمتناع التسلسل، فالإشتباه نشأ من الغفلة عن وجه الحاجة إلى العلّة وهو الإمكان لا الوجود.



## الأسئلة



١ ـ إشرح مفهوم الإمكان وبيّن كيفية الإستدلال بالإمكان على وجود الله تعالى؟

٢ ـ ما هي خصائص دليل الإمكان؟

٣ ـ كيف تفهم دليل الإمكان من قوله تعالى: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ**﴾؟

٤ ـ كيف تفهم دليل الإمكان من قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾؟

٥ ـ استشكل على القول بانتهاء الممكنات إلى علّة أزليّة موجودة بنفسها بأنّ ذلك منافٍ للقاعدة العقلية الحاكمة بأن الشيء لا يتحقق بلا علّة. كيف ترد على هذه الشبهة؟

## الدرس السادس

# صفات الله

## (دليل الإمكان)

تقدّم في بحث الأدلّة على وجود الله تعالى الدّليل على إثبات الواجب الوجود، وتقدّم أيضا أنّ مجرّد إثبات أنّه واجب الوجود لا يكفي لإثبات صفاته، ومن هنا كان من الضّروري أن نتطرّق لإثبات الصّفات السّلبيّة والثبوتية للواجب الوجود تعالى شأنه.

ومن خلال معرفة الصّفات السّلبيّة يُعلم أن واجب الوجود منزّه عن الإتّصاف بصفات المخلوقين، كما يُعلم أنه لا يمكن أن يصدق واجب الوجود بالذات على أحد من المخلوقات.

ومن خلال معرفة الصّفات الثبوتية تتّضح لنا صلاحيّة الواجب للعبادة، كما تتمهّد بذلك الأرضية لإثبات سائر المعتقدات أمثال النبوة والمعاد وما يتفرّع عنهما.

وقد اتّضح بما تقدّم أن واجب الوجود غير محتاج إلى علّة، وأنه هو العلّة لوجود الممكنات، وبذلك تثبت لواجب الوجود صفتان، هما:

**الأولى: عدم احتياجه لأيٍّ موجود آخر**، وإلا لو إحتاج إلى موجود آخر لكان ذلك الموجود الآخر علّة له، وهذا خلاف كونه واجباً للوجود.

**الثانية: أن الموجودات الممكنة الوجود معلولة ومحتاجة إليه**، وهو العلة

الأولى لوجودها وحدوثها. ويقع البحث في لوازم كل واحدة من هاتين الصفتين، وإثبات الصّفات السّلبيّة والثبوتية لواجب الوجود من خلالهما.

## أزليّة الله وأبديته

إذا كان الموجود معلولاً ومحتاجاً إلى موجود آخر، فإن وجوده يكون تابعاً لوجود الموجود الآخر، وإذا فقدت علّته فسوف لا يكون له وجود، أي إذا عدم الموجود في فترة زمنية فهذا دليل على فقره وإحتياجه وإمكان وجوده، وبما أن واجب الوجود موجود بذاته وغير محتاج إلى أي موجود آخر، لذلك فهو أزلي وأبدي الوجود.

ومن هنا تثبت لواجب الوجود صفتان من صفاته:

الأولى: أزليته، أي أنه لم يتطرّق العدم إليه في الماضي أبداً.

الثانية: أبديّته، أي أنه لن يتطرّق العدم إليه في المستقبل أبداً.

وقد يعبّر عن كلتا الصفتين بالسرمدي.

وعلى هذا الأساس يعلم أن كل موجود كان مسبوقا بالعدم، أو أنه يمكن زواله، لا يكون واجب الوجود، وذلك من قبيل الظواهر المادية.

## الصّفات السّلبيّة

وهناك صفة أخرى من لوازم واجب الوجود، وهي: **البساطة وعدم التركيب من أجزاء**؛ ذلك لأن كل مركب محتاج إلى أجزائه، وواجب الوجود منزّه عن كل إحتياج، فلا يكون مركباً من أجزاء.

بل لا يمكن أن يفرض لواجب الوجود أجزاء وأقسام ولو بحسب التوهّم العقلي؛ إذ معنى إمكان الإنقسام هو إمكان زوال الكل (المركّب) وإنعدامه، فإن الخط الذي يبلغ طوله مترا لو إنقسم إلى قسمين لا يبقى له - بوصفه بالغاً متراً - وجود، وحيث إنه لا يمكن أن يعرض الزوال على واجب الوجود، فيستحيل أن يكون الواجب

الوجود مركبا من أجزاء وأقسام ولو عقلا.

وبما أن كل جسم مركّب ، فيثبت بذلك أن كل موجود جسماني لا يمكن أن يكون واجب الوجود. وبالتالي يثبت **تجرّد الله تعالى وعدم جسمانيته.**

وإذا استحال أن يكون الله تعالى جسماً، فيستحيل حينئذ أن يكون قابلا للرؤية بالعين، أو قابلا للإدراك بالحواس الأخرى، وذلك لأن المحسوسية من خواص الأجسام والجسمانيات. وبنفي جسميته تعالى تسلب عنه سائر خواص الأجسام، كأن يكون في مكان أو زمان؛ إذ المكان إنما يتصوّر للشيء الذي له حجم وإمتداد، كما أن كل شيء زماني[١] هو قابل للإنقسام من حيث الإمتداد والعمر الزماني، ويعتبر هذا نوعاً من الإمتداد والتركيب من الأجزاء المحال في حقه تعالى ولو بحسب التوهم العقلي.

وبذلك يثبت أنه لا يمكن أن نتصور الله تعالى في مكان أو زمان، وكما يثبت أن كل موجود مكاني[٢] أو زماني ليس بواجب الوجود.

وأخيرا بسلب الزمان من واجب الوجود تسلب منه **الحركة والتحوّل والتكامل،** ذلك لأن أية حركة أو تحوّل لا يمكن أن تتم بدون زمان.

وبذلك يتضح أن الذين يثبتون لله تعالى مكانا كالعرش، أو ينسبون له الحركة والهبوط من السماء، أو يعتقدون بأنه قابل للرؤية بالعين، أو أنه قابل للتحوّل والتكامل، لم يعرفوا الله حق معرفته[٣].

وبصورة عامة، فكل مفهوم يدلّ على نوع من النقص والمحدودية والإحتياج فهو منفيٌّ ومسلوب عن الله تعالى، وهذا هو معنى الصّفات السّلبيّة.

---

(١) الزماني أي المنسوب إلى الزمان، كالجسم المادي.

(٢) المكاني أي المنسوب إلى المكان.

(٣) نقل القول بكونه تعالى في مكان، أو هبوطه من السماء أو رؤيته بالعين، عن جماعات من أهل السنة، كما أن القول بتحول الله تعالى وتكامله وتغيره، نقل عن عدة من فلاسفة الغرب أمثال هيجل وبرجسون ووليام جيمز ووايتهد. ولكن يجب أن نعلم بأن سلب الحركة والتغير من الله لا يعني إثبات السكون له، بل بمعنى ثبات ذاته، والثبات نقيض التغير، وأما السكون فإنه عدم الملكة بالنسبة للحركة، ولا يتصف به إلا الشيء القابل للحركة.

ونتيجة الدليل السابق هي أن واجب الوجود علّة لوجود الممكنات، وقبل البحث عن لوازم هذه النتيجة نذكر أقسام العلة أولاً ومميّزاتها ثانياً.

## العلة موجدة وإعدادية

العلة ـ بمعناها العام ـ تطلق على كل موجود يرتبط به موجود آخر، ولا يختص هذا المعنى بالعلة الموجِدة بل يشمل حتى الشروط والمعدّات. ومن الواضح أنه لا يعقل أن يكون للّه تعالى علة موجِدة، فلا يتوقف في وجوده تعالى على أي موجود آخر، كما لا يمكن تصوّر الشرط والمعدّ لوجوده تعالى شأنه.

وكونه تعالى علّة للموجودات ليس بمعنى أنه شرط ومعدّ لوجودها بل بمعنى أنه الموجِد لها، والعلة الموجدة هي قسم من أقسام العلة الفاعلية، وكما أن الإنسان يوجِد في ذهنه صورا وأفكارا ذهنية، وتكون هذه الأفكار معلولة له، غير مستقلة عنه، فكذلك فاعلية الله تعالى للمخلوقات، إلا أن فاعلية النفس للصور الذهنية تكون مشروطة بشروط معيّنة تنشأ من طبيعة النقص والمحدودية في النفس، بينما فاعلية واجب الوجود بالنسبة للعالم أكثر كمالا وسموا بكثير من فاعلية النفس بالنسبة للصور الذهنية، بل لا يمكن أن نجد لفاعلية الله تعالى نظيرا في سائر العلل الفاعلية، ذلك أن الله تعالى هو الفاعل الوحيد الذي يوجِد معلوله بدون أن تكون فاعليته تعالى مشروطة بأي شرط.

## مميّزات العلّة الموجدة

بملاحظة ما ذكر يمكن لنا أن نذكر بعض المميزات التي تتميز بها العلة الموجدة:

١ ـ يلزم أن تشتمل العلة الموجدة على جميع كمالات المعلول بصورة أتم وأكمل، حتى تفيض على كل موجود بمقدار قابليته وإستعداده، خلافا للعلل المعدّة والماديّة،

التي تقوم بمهمة الإعداد وتوفير الأرضية المناسبة لتحوّل المعلول وتغيّره، فلا يلزم أن تتوفر على كل كمالات العلة[1].

٢ ـ إن العلة الموجدة توجد معلولها من العدم، وبكلمة واحدة «تخلقه» ولكن من دون أن ينقص من وجودها شيء، وإلا لو فرض إنفصال شيء من ذات واجب الوجود، لإستلزم قبول الذات الإلهية الإنقسام والتغيّر، وقد ثبت بطلان ذلك. وهذا بخلاف الفاعل الطبيعي الذي مهمته تغيير المعلول الموجود، مع بذل القوة والطاقة في القيام بهذه المهمة.

٣ ـ إن العلة الموجدة علة حقيقية، ومن هنا كان وجودها ضرورياً لأجل وجود المعلول وإستمراره، خلافا للعلة المعدّة، التي لا يحتاج إليها المعلول في مرحلة الإستمرار.

وعلى ضوء ذلك فما حكي عن بعض المتكلمين من أهل السنّة من أن العالم في بقائه غير محتاج لله، وكذلك ما حكي عن بعض الفلاسفة الغربيين من أن عالم الطبيعة كالساعة التي توقّت، وبعد ذلك تواصل الساعة عملها لوحدها، فلا تحتاج المخلوقات في استمرار بقائها إلى الله وإلى الأبد، مثل هذه الآراء بعيدة عن الحقيقة. بل إن عالم الوجود محتاج ومفتقر دائما وفي كل شؤونه وحالاته إلى الله تعالى، وإذا امتنع الخالق لحظة عن إفاضة الوجود فلا يبقى شيء في الوجود.

(١) يجب أن نعلم بأن واجدية الله تعالى لكمالات مخلوقاته لا تعني أن تقبل مفاهيم المخلوقات أمثال (مفهوم الجسم والإنسان) الصدق على الله تعالى، وذلك لأن هذه المفاهيم تعبر عن موجودات محدودة ناقصة، ولذلك لا تقبل الصدق على الله تعالى، الذي يمتلك الكمالات اللامتناهية.



# الأسئلة



١ ـ لماذا يلزم معرفة صفات الله؟

٢ ـ ما هو الدليل على سرمدية الله؟

٣ ـ كيف يمكن لنا أن نثبت بأن الذات الإلهية بسيطة، وأنها منزهة عن الأجزاء بالفعل وبالقوة؟

٤ ـ بيِّن أقسام العلة.

٥ ـ إشرح مميزات العلة الموجدة.

## الدرس السابع

# الصفات الذاتية

**المقدمة**

علمنا مما سبق، أن الله تعالى، وهو العلة الموجدة للكون، توجد فيه كل كمالات الوجود، وكل أنواع الكمالات المتوفرة في أي موجود إنما هي مستمدة منه دون أن ينقص من كمالاته شيء عند إفاضتها على مخلوقاته. ولتقريب هذه الفكرة للذهن، يمكن أن نضرب المثال التالي:

إن المعلم يزود التلميذ من علمه، دون أن ينقص من علم المعلم شيء. وبطبيعة الحال، فإن إفاضة الوجود والكمالات الوجودية من الله تعالى، أسمى بكثير من هذا المثال. ولعل أقرب تعبير في هذا المجال أن نقول: أن عالم الوجود نور وتجلي من الذات الإلهية المقدسة، كما يمكن استفادة هذا التعبير من الآية الشريفة **﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾**[1].

وبملاحظة الكمالات الإلهية اللامتناهية، فإن كل مفهوم يعبر عن كمال من الكمالات، دون أن يستلزم أي نقص أو تحديد، يقبل الصدق والإنطباق على الله تعالى، كما نسبت لله تعالى في الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة، والأدعية والمناجاة المأثورة عن المعصومين عليهم السلام مفاهيم أمثال النور،

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.

والكمال، والجمال، والمحبة، والبهجة وغيرها، وأما ما ذكر من الصفات الإلهية في كتب العقائد والفلسفة والكلام الإسلامية فهو عدد محدود من الصفات التي تقسم إلى مجموعتين: (الصفات الذاتية، والصفات الفعلية) وهما مندرجان تحت الصفات الثبوتية، ونذكر أولاً توضيحاً لهذين القسمين، وبعد ذلك، نتعرض لذكر أهم هذه الصفات وإثباتها والإستدلال عليها.

## الصفات الذاتية والفعلية

إن الصفات التي تنسب إلى الله تعالى، إما أنها مفاهيم منتزعة من الذات الإلهية بالنظر إلى أنها واجدة لنوع من أنواع الكمالات، أمثال الحياة والعلم والقدرة، وإما أنها مفاهيم تنتزع من نوع علاقة وإرتباط بين الله تعالى ومخلوقاته، أمثال الخالقية والرازقية. ويطلق على القسم الأول «الصفات الذاتية» وعلى القسم الثاني «الصفات الفعلية».

والفرق الرئيس بين هذين القسمين من الصفات هو: أنه في القسم الاول تكون الذات الإلهية المقدسة مصداقا عينيا خارجيا لها، أما في القسم الثاني فتعبر عن نوع نسبة وإضافة بين الله تعالى ومخلوقاته، وتمثل الذات الالهية وذوات المخلوقات طرفي الإضافة والنسبة، أمثال صفة الخالقية، التي تنتزع من الارتباط الوجودي للمخلوقات بالذات الإلهية ويمثل الله والمخلوقات طرفي هذه الإضافة، ولكن لا يوجد في الخارج غير الذات الإلهية المقدسة وذوات المخلوقات، حقيقة عينية خارجية أخرى تسمى بـ«الخالقية»، وبطبيعة الحال فإن الله تعالى يملك بذاته القدرة على الخلق، ولكن القدرة من صفات الذات، وأما «الخلق» فهو مفهوم إضافي ينتزع من مقام الفعل، ومن هنا يعتبر «الخالق» من الصفات الفعلية، الا إذا فسرناه بـ«القادر على الخلق» فتؤول وتنتهي إلى صفة القدرة.

وأهم الصفات الذاتية الإلهية هي، الحياة والعلم والقدرة. وأما السميع

والبصير، فإن فسرناهما بالعالم بالمسموعات والمبصرات أو القادر على السمع والإبصار، فتؤول إلى العليم والقدير، وإن كان المراد منهما السمع والرؤية بالفعل، التي تنتزع من العلاقة بين ذات السميع والبصير والأشياء القابلة للسمع والرؤية، فلابد أن نعدهما من الصفات الفعلية.

كما أن «العلم» أحياناً يستعمل بهذا المعنى، ويسمى بهذا الإعتبار بـ«العلم الفعلي» وقد إعتبر بعض المتكلمين الكلام والارادة من الصفات الذاتية، وسنبحث عنها لاحقا.

## إثبات الصفات الذاتية

لإثبات الصفات الذاتية دليل عام يجري فيها جميعاً، ولكل صفة أدلة خاصة بها يأتي بيانها، والدليل العام: فاقد الشيء لا يعطيه، وبيانه:

إن أيسر الطرق لإثبات الحياة والقدرة والعلم الإلهية هو الطريق التالي: إن هذه المفاهيم حينما تستخدم في المخلوقات، تعبر عن كمالاتها، فيلزمها إذن أن توجد بدرجتها المتكاملة في العلة الموجدة، إذ كل كمال يوجد في أي مخلوق، فهو مستمد من الله، فلا بد أن يكون الله تعالى الخالق واجدا له، حتى يمكنه إفاضته وإعطاءه للمخلوق، ولا يمكن لمن يخلق الحياة أن يكون فاقدا لها، أو لمن يفيض العلم والقدرة للمخلوقات أن يكون جاهلا عاجزا، وفاقد الشيء لا يعطيه. إذن فوجود هذه الصفات الكمالية في بعض المخلوقات دليل على وجودها في الخالق تعالى دون أن يكون فيه نقص أو تحديد، أي أن الله تعالى يتوفر على الحياة والعلم والقدرة اللامتناهية. والآن لنبدأ بتوضيح أوسع لكل واحدة من هذه الصفات.

### الحياة

مفهوم الحياة يستعمل في مجموعتين من المخلوقات:

**الأولى:** النباتات، حيث تتميز بالنمو.

**الثانية:** الحيوانات والإنسان حيث تمتلك الشعور والإرادة.

ولكن المعنى الأول لمفهوم الحياة مستلزم للنقص والإحتياج، ذلك لأن طبيعة النمو تفرض أن يكون الشيء النامي في بداياته فاقدا للكمال، ولكن نتيجة لبعض العوامل والمؤثرات الخارجية تحصل فيه تغيرات تصل به إلى كمال جديد بالتدريج، ولا يمكن نسبة مثل هذه الأمور إلى الله تعالى، كما مر توضيحه في موضوع الصفات السلبية.

أما المعنى الثاني: فإنه مفهوم كمالي وإن اقترن في بعض مصاديقه الإمكانية ببعض النقائص والتحديدات، ولكن يمكن أن نتصور له مرتبة لامتناهية ليس فيها أي نقص أو تحديد أو احتياج كما هو الأمر في مفهوم الوجود ومفهوم الكمال.

والحياة بمعناها الملازم للعلم والفاعلية الارادية من مستلزمات الوجود غير المادي، وذلك، فإنه وإن نسبت الحياة إلى الكائنات المادية الحية، ولكن الحياة في واقعها صفة لروحها، لا لبدنها، وإنما يتصف بها البدن لتعلق وإرتباط الروح به، وبعبارة أخرى: كما أن الإمتداد من لوازم الوجود الجسماني، فكذلك الحياة من لوازم الوجود المجرد (غير جسماني). ومن هنا ينشأ دليل آخر على الحياة الإلهية وهو: أن الذات الإلهية المقدسة مجردة غير جسمانية، كما أثبتنا ذلك في الدرس السابق وكل موجود مجرد واجد بذاته للحياة، إذن فالله تعالى واجد للحياة بذاته.

**العلم**

ومفهوم العلم أكثر المفاهيم وضوحا وبداهة، ولكن مصاديق هذا المفهوم التي نعرفها في المخلوقات، مصاديق ناقصة محدودة، ومفهوم العلم بهذه الخصائص التي تتصف بها المخلوقات لا يمكن أن يصدق على الله تعالى، ولكن العقل ـ كما أشرنا إليه ـ يمكنه أن يتصور لهذا المفهوم الكمالي مصداقا ليس فيه أي نقص أو

تحديد، وهو عين ذات العالم، وهو هذا العلم الذاتي لله تعالى.

ويمكن لنا إثبات علم الله تعالى - فضلاً عن الدليل العام المتقدم - من طرق عديدة نكتفي بواحد منها وهو الإستعانة على إثبات ذلك بدليل النظام - وقد أشرنا إليه سابقاً وقلنا أن الأثر يدل على المؤثر وعلى خصوصياته - فإن أي ظاهرة أو مخلوق كلما إزداد دقة وإحكاماً في النظام أو الإتقان، إزداد دلالة على علم خالقه كما هو الملاحظ في الكتاب العلمي، أو القصيدة الرائعة، أو الصورة الفنية، حيث تدل على مدى ما يملكه مبدعها من ثقافة وذوق وخبرة، ولا يمكن لعاقل أن يتصور أن الكتاب العلمي أو الفلسفي قد كتبه شخص جاهل غير مثقف. إذن فكيف يحتمل أن يخلق هذا الكون العظيم بكل ما فيه من أسرار ونظام مدهش موجود غير عالم؟

وإن للإعتقاد والإيمان بالعلم الإلهي وسعته دور كبير في بناء شخصية الإنسان، ولذلك كان تأكيد القرآن الكريم كثيرا على هذه الحقيقة، ومن الآيات الشريفة في ذلك ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور**﴾[1].

## القدرة

يقال في حق الفاعل الذي يؤدي عمله بإرادته وإختياره، أنه يملك «القدرة» على عمله. إذن فالقدرة عبارة: عن القوة ومبدئية الفاعل المختار للعمل الذي يمكن صدوره منه، وكلما كان الفاعل أكثر تكاملا من حيث المرتبة الوجودية كان أكثر قدرة، وبطبيعة الحال فالموجود الذي يتوفر على الكمال اللامتناهي له قدرة غير محدودة ﴿**إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير**﴾[2].

ويجب علينا هنا أن نؤكد على بعض الملاحظات:

١ - إن العمل الذي تتعلق به القدرة لا بد أن يكون ممكن التحقق، إذن فالشيء

---

(١) سورة غافر، الآية: ١٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠.

المحال في ذاته، أو المستلزم للمحال، لا تتعلق به القدرة، وهذا ليس من جهة قصور القدرة بل من جهة عدم قابلية المستحيل للتحقق وإلا لما كان مستحيلاً، كوجود إله آخر، أو أن يكون رقم ٢ أكبر من ٣، أو أن يخلق الابن على تقدير كونه ابناً قبل أبيه.

٢ ـ إن القدرة على كل عمل لا توجب ولا تفرض على مثل هذا القادر أن يحتق كل الأعمال التي يقدر عليها، بل إنما يحقق تلك الأعمال التي يريد تحقيقها، والله الحكيم لا يريد إلا الأفعال الصالحة والحكيمة، ولا يحقق إلا مثل هذه الأعمال، وإن كان قادرا على الأعمال القبيحة والمنكرة أيضاً. وسنتحدث في البحوث القادمة حول الحكمة الإلهية.

٣ ـ إن القدرة بالمعنى الذي ذكرناه، متضمنة للإختيار أيضا، فكما أن الله تعالى يملك أكمل مراتب القدرة وأرقاها، كذلك يملك أكمل مراتب الاختيار، ولا يمكن لأي عامل أن يقهره ويجبره على القيام بعمل، أو أن يسلب منه الاختيار، وذلك لأن وجود كل موجود وقدرته مستمدة منه تعالى، ولا يمكن أن يكون مقهورا للقوى والقدرات التي أفاضها ذاته للآخرين.



## الأسئلة

١ ـ عرّف الصفات الذاتية والفعلية، وبين الفرق بينهما.

٢ ـ بيّن الدليل الخاص على الحياة الإلهية.

٣ ـ بيّن مفهوم القدرة، واذكر الدليل على القدرة الإلهية اللامتناهية.

٤ ـ ما هي الأشياء التي لا يمكن أن تتعلق القدرة بها؟

٥ ـ لماذا لا يعمل الله تعالى الأعمال القبيحة والمنكرة؟

## الدرس الثامن

# الصفات الفعلية

### المقدمة

ذكرنا في الدرس السابق أن الصفات الفعلية عبارة عن المفاهيم التي تنتزع من مقارنة الذات الإلهية بمخلوقاتها من خلال ملاحظة نسبة وإضافة ورابطة معينة بينهما، وأن الخالق والمخلوق يمثلان طرفي الإضافة، أمثال مفهوم «الخالقية»، الذي ينتزع من ملاحظة إرتباط وجود المخلوقات بالله تعالى، وإذا لم يلاحظ هذا الإرتباط بينهما لم يمكن انتزاع هذا المفهوم.

وليس هناك حصر وتحديد للروابط والإضافات التي يمكن تصورها بين الله والخلق، ولكن يمكن تقسيمها بصورة جامعة وكلية إلى مجموعتين:

المجموعة الأولى: ملاحظة الإضافات المباشرة بين الله والمخلوق، كالإيجاد والخلق والإبداع وأمثالها.

المجموعة الثانية: الإضافات التي تتصور بعد تصور إضافات وروابط أخرى، كالرزق، وذلك لأنه في البداية لا بد أن نتصور علاقة الموجود المرتزق بالشيء الذي يرتزق منه، وبعد ذلك نتصور توفير الله تعالى لذلك الشيء، لنتوصل من خلال ذلك إلى مفهوم الرازق والرزاق، بل يمكن أحياناً أن نتصور إضافات وروابط

متعددة بين المخلوقات نفسها، قبل أن تنتزع الصفة الفعلية للّه تعالى، وبعد ذلك نلاحظ إرتباطها بالله تعالى، أو أن هناك إضافة مترتبة على عدة إضافات سابقة بين الله والخلق، أمثال المغفرة حيث تترتب على الربوبية التشريعية الإلهية وتعيين الله تعالى للأحكام التكليفية، وعصيان العبد لها. إذن فلأجل التوصل إلى الصفات الفعلية لا بد أن نعقد نوع مقارنة ونسبة بين الله تعالى والمخلوقات، ونتصور نوع ارتباط وإضافة بين الخالق والمخلوق، لنتوصل من خلالها إلى المفهوم الإضافي، وعليه فلا تكون الذات الإلهية المقدسة بذاتها مصداقا للصفات الفعلية دون ملاحظة هذه الإضافات والنسب، وهذا هو الفرق الرئيسي بين الصفات الذاتية والفعلية. وقد ذكرنا سابقا، أننا يمكن أن نلاحظ الصفات الفعلية بلحاظ مبادئها التي تنشأ منها وفي هذه الحالة، تؤول وتنتهي إلى الصفات الذاتية، كما في الخالق والخلاق، لو فسرناه بالقادر على الخلق، فيؤول إلى صفة «القدير»، أو صفة «السميع» و «البصير» لو فسرناهما بالعالم بالمسموعات والمبصرات فتؤول إلى «العليم».

وهناك بعض المفاهيم عدت من الصفات الذاتية. ولكن قد يتصور لها معنى إضافي وفعلي، ولذلك تعتبر من الصفات الفعلية، مثل مفهوم «العلم» حيث استعمل في القرآن الكريم في آيات كثيرة، بمعنى الصفة الفعلية[1].

والملاحظة التي لها أهميتها، والتي يجب علينا التأكيد عليها هنا هي: أننا حين نتصور الرابطة بين الله تعالى والموجودات المادية، وعلى ضوئه تنتزع الصفة الفعلية المعينة للّه تعالى، فإن هذه الصفة سوف تتحدد ببعض القيود الزمانية والمكانية، بلحاظ تعلقها بالموجودات المادية التي تمثل أحد طرفي الإضافة، وأن

(1) كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ البقرة: ١٨٧ وقوله تعالى: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ الأنفال: ٦٦ وغيرهما.

كانت هذه الصفة بلحاظ تعلقها بالله تعالى الذي يمثل الطرف الآخر للإضافة منزهة عن مثل هذه القيود والحدود.

فإن إفاضة الرزق إلى الشخص مثلا، إنما تتم في ظرف زماني ومكاني معينين، ولكن هذه القيود والحدود في واقعها متعلقة بذلك الشخص المرتزق، لا بالرازق. والذات الإلهية منزهة عن أية نسبة زمانية ومكانية. وهذه الملاحظة الدقيقة تعتبر المفتاح لمعالجة الكثير من الشبهات التي أثيرت في موضوع معرفة الصفات والأفعال الإلهية، وأدت إلى الكثير من النزاعات بين العلماء والمفكرين.

**الخالقية**

بعد إثبات واجب الوجود، وأنه العلة الأولى لوجود الموجودات الممكنة، وبملاحظة أنها جميعاً محتاجة في وجودها إلى الله، تنتزع من ذلك صفة الخالقية لواجب الوجود، والمخلوقية للممكنات. ومفهوم «الخالق» الذي يتوصل إليه من خلال هذه العلاقة الوجودية مساو للعلة الموجدة وكل الموجودات الممكنة المحتاجة التي تمثل طرف الإضافة متصفة بصفة المخلوقية.

ولكن أحيانا يتصور للفظة «الخلق» معنى أكثر محدودية، حيث تعتبر الموجودات التي وجدت من مادة سابقة فحسب طرفاً للإضافة، وفي مقابل ذلك مفهوم «الإبداع» حيث يستخدم في الموجودات التي لم تسبق بمادة سابقة (كالمجردات والمادة الأولى). وعلى هذا الأساس يقسم الإيجاد إلى قسمين: الخلق، والإبداع.

إذن فعملية الخلق التي يقوم بها الله تعالى، لا تشابه تصرفات الإنسان في الأشياء وصنعه للصناعات، حيث يحتاج في عمله هذا إلى الحركة، وإلى إستخدام أعضاء بدنه لتمثل حركته «الفعل» بينما تمثل الظاهرة التي تحصل منه «نتيجة الفعل». وأما في خلق الله فلا يكون «الخلق» شئيا، و «المخلوقات» شيئا آخر، وذلك بالإضافة إلى تنزه الله تعالى عن الحركة، وخصائص الموجودات الجسمانية، فإنه

لو كان لـ«خلق» الله مصداق عيني خارجي زائد على ذات المخلوق، لكان موجودا ممكن الوجود، ومخلوقا من مخلوقات الله بدوره، ليعود الحديث مرة أخرى حول خلقه نفسه أيضا، ولكن وكما ذكرنا في تعريف الصفات الفعلية أن هذه الصفات مفاهيم منتزعة من الإضافات والنسب بين الله والخلق، وقوام الإضافة والنسبة بلحاظ العقل.

## الربوبية

ومن الروابط التي تلاحظ بين الله والخلق، أن المخلوقات ليست في أصل وجودها محتاجة لله تعالى فحسب، بل إن كل شؤونها الوجودية مرتبطة بالله تعالى، وليست لها أية إستقلالية، ويمكن له تعالى التصرف فيها بما شاء، وأن يدبر امورها بما يريد. وحين نلاحظ هذه الرابطة بصورة عامة، ننتزع منها مفهوم «الربوبية» الذي من لوازمه تدبير الأمور، وله مصاديق عديدة، كالحافظ، والمحيي والمميت والرازق والهادي والآمر والناهي وأمثالها.

ويمكن تقسيم الأمور المرتبطة بالربوبية إلى مجموعتين: الربوبية التكوينية، التي تشمل تدبير الأمور لكل الموجودات، وإرضاء إحتياجاتها، وبكلمة واحدة «تدبير العالم». والربوبية التشريعية، وهي مختصة بالموجودات التي تمتلك الشعور والاختيار، وتشمل عدة مسائل أمثال بعث الأنبياء، وإرسال الكتب السماوية، وتعيين الوظائف والتكاليف، ووضع الأحكام والقوانين. إذن فالربوبية الإلهية المطلقة تعني: أن المخلوقات في كل شؤونها الوجودية مرتبطة بالله تعالى، وأن العلاقات والروابط بينها تنتهي بالتالي إلى ارتباطها بالخالق، وهو تعالى الذي يدبر بعض المخلوقات بواسطة البعض الآخر، وهو الذي يفيض الرزق من خلال مصادر الرزق التي يوفرها ويخلقها، وهو الذي يهدي الموجودات التي تملك الشعور من طريق الوسائل الداخلية (كالعقل وسائر القوى الإدراكية) والوسائل الخارجية (كالأنبياء

والكتب السماوية) وهو الذي يضع للمكلفين الأحكام والقوانين، ويضع الوظائف والتكاليف.

والربوبية كالخالقية مفهوم إضافي مع الفرق بأنه تلاحظ في مجالاتها المختلفة الإضافات الخاصة بين المخلوقات نفسها، كما ذكرناه في مفهوم الرازقية. ولو تأملنا بدقة في مفهوم الخالقية والربوبية، وكونهما من الصفات الإضافية، سيتضح لنا أن هناك تلازماً بين هاتين الصفتين، ويستحيل أن يكون رب الكون غير الخالق، بل إن الذي خلق المخلوقات بتلك الخصائص المعينة والعلاقات فيما بينها، هو الذي يحافظ عليها ويدبرها، وفي الواقع ان مفهوم الربوبية والتدبير منتزع من كيفية خلق المخلوقات ومراعاة انسجامها وتكاملها مع بعضها.

## الألوهية

هناك بحوث كثيرة لدى العلماء حول مفهوم «الإله» و «الألوهية» ذكرت في كتب التفسير، والمعنى الذي نرجحه لهذا المفهوم هو: أن «الإله» بمعنى «المعبود» أو «الذي يستحق العبادة والطاعة» مثل لفظ «الكتاب» فهو بمعنى «المكتوب». وعلى ضوء هذا المعنى، فإن الألوهية صفة إذا أردنا إنتزاعها فلابد أن نتصور إضافة عبادة العباد وطاعتهم، فإن الضالين وإن إتخذوا آلهة باطلة لهم، ولكن الذي يستحق العبادة والطاعة هو الخالق والرب فحسب، وهذه الدرجة من الإعتقاد هي الحد الذي يلزم توفره في كل إنسان بالنسبة للإعتقاد بالله تعالى، أي بالإضافة إلى إيمانه بأن الله واجب الوجود، وأنه الخالق والمدبر، ومن يخضع العالم لإرادته، يلزم عليه أيضا أن يؤمن بأنه الذي يستحق العبادة والطاعة. ومن هنا أخذ هذا المفهوم في شعار الإسلام (لا إله إلا الله).



# الأسئلة



١ ـ ما هي العلاقة بين الصفات الذاتية والفعلية، وكيف تؤول إحداهما إلى الأخرى؟

ولماذا كانت الصفات الفعلية مقيدة ومحددة بقيود وتحديدات زمانية ومكانية؟

٢ ـ وضّح مفهوم الخالقية، وبين الفرق بينه وبين الإيجاد والإبداع.

٣ ـ لماذا لا يمكن أن نتصور لـ(الخلق) مصداقا عينيا زائدا على ذات المخلوقات؟

٤ ـ بيّن الملازمة بين الخالقية والربوبية.

٥ ـ بيّن مفهوم الألوهية، وتلازمها للخالقية والربوبية.

## الدرس التاسع

# سائر الصفات الفعلية

### المقدمة

من المواضيع المثيرة للجدل في علم الكلام موضوع الإرادة الإلهية، حيث طرحت على بساط البحث من جوانب عديدة، ونشبت حولها نزاعات وخلافات، أمثال: هل أن الإرادة من الصفات الذاتية أم من الصفات الفعلية؟ وهل أن الإرادة قديمة أم حادثة؟ وهل هي واحدة أم متعددة؟ هذا بالإضافة إلى البحوث التي تعرضت لها الفلسفة حول مطلق الإرادة وخاصة الإرادة الإلهية.

ومن الواضح أن دراسة هذا الموضوع دراسة موسعة لا تتلاءم وهذا الكتاب، لذلك نوضح في البداية مفهوم الإرادة، وبعد ذلك نتعرض لدراسة موجزة حول الإرادة الإلهية.

### الإرادة

إن لفظة «الإرادة» في الاستعمالات العرفية تستعمل في معنيين على الأقل: أحدهما المحبة، والثاني: التصميم على القيام بعمل.

والمعنى الأول، واسع جدا من حيث مجالاته، إذ يشمل محبة الأشياء

الخارجية[1]، وأفعال الشخص نفسه، وأفعال الآخرين، خلافا للمعنى الثاني، فإنه يستعمل في خصوص أفعال الشخص نفسه.

والإرادة بالمعنى الأول (المحبة) وإن كانت في الإنسان من قبيل الأعراض والكيفيات النفسانية، ولكن يمكن أن يتصور لها مفهوما عاما بتجريده عن النقائص، بحيث يقبل الصدق والإطلاق حتى على الله تعالى، ومن هنا يمكن أن يعد «الحب» الذي يطلق على محبة الله لذاته، أيضا من الصفات الذاتية. إذن فإذا كان المراد من الإرادة الإلهية، حب الكمال، الذي يتعلق أولاً بالكمال الإلهي اللامتناهي، ويتعلق في مراتب لاحقة بكمالات سائر الموجودات من حيث هي آثار لكماله أمكن لنا أن نعدها من الصفات الذاتية، وتكون كسائر الصفات الذاتية صفة قديمة واحدة، وعين الذات الإلهية المقدسة.

وأما الإرادة بمعنى التصميم على القيام بعمل، فهي بلا شك من الصفات الفعلية، حيث تتحدد وتتقيد بقيود وتحديدات زمانية، بلحاظ تعلقها بالأمور الحادثة، كما يلاحظ ذلك في الإستعمالات القرآنية أمثال **﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾**[2]. ولكن يلزم التأكيد على أن إتصاف الله تعالى بالصفات الفعلية لا يعني حصول تغير في الذات الإلهية أو حدوث عرض فيه، بل يعني أن تلاحظ إضافة ونسبة بين الذات الإلهية ومخلوقاتها، من زاوية خاصة، وفي ظل شروط معينة، وينزع من خلال ذلك مفهوم إضافي معين هو أحد الصفات الفعلية. وفي مجال الإرادة تلاحظ هذه الرابطة، وهي أن كل مخلوق إنما خلق من جهة توفره على الكمال والخير والمصلحة، فيكون وجوده في زمان ومكان معينين وبكيفية خاصة، متعلقا للعلم والمحبة الإلهية وقد خلقه الله تعالى باختياره، دون أن يقهره أحد على هذا الخلق، وبملاحظة هذه العلاقة، ينتزع مفهوم إضافي يسمى

---

(١) كما في هذه الآية الشريفة **﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾** الأنفال: ٦٧.

(٢) سورة يس، الآية: ٨٢.

بـ«الإرادة». وهـي تتحدد بحدود وقيود بملاحظة تعلقها بشيء محدود ومقيد، ويتصف هذا المفهوم الإضافي بالحدوث، والكثرة، ذلك لأن الإضافة تابعة للطرفين، والحدوث والكثرة في أحد الطرفين يكفي في سراية هذه الأوصاف للإضافة نفسها.

## الحكمة

لدى التأمل فيما ذكرناه حول الإرادة الإلهية يتضح لنا أن الإرادة لا تتعلق بإيجاد الشيء عبثا وجزافا وبدون حكمة، بل ما تتعلق به الإرادة الالهية أصالة هو جهة الكمال والخير في الأشياء، وبما أن تزاحم الماديات فيما بينها، يؤدي إلى عروض النقص والضرر على بعضها بفعل البعض الآخر منها، ولذلك فإن المحبة الإلهية للكمال تقتضي أن يوجد المجموع بشكل يترتب عليه الخير والكمال الأكثر والأغلب، ومن ملاحظة هذه العلاقات والروابط يتوصل إلى مفهوم «المصلحة»، وإلا فإن المصلحة ليس لها وجود مستقل عن وجود المخلوقات، له تأثيره في وجودها، حتى يكون له تأثيره في الإرادة الإلهية، أي ليس هناك وجود خارجي مستقل يسمى بالمصلحة يؤثر في وجود المخلوقات فضلا عن القول بتأثيره في الإرادة الإلهية.

والحاصل، أن الأفعال الإلهية إنما تنشأ من صفاته الذاتية كالعلم والقدرة وحبه للكمال والخير، لذلك فإن هذه الأفعال لا يمكن ان تكون فاقدة للمصلحة بل إنما تتحقق دائما متوفرة على المصلحة، أي يترتب عليها الخير والكمال الغالب، ويعبر عن مثل هذه الإرادة بـ«الإرادة الحكيمة»، ومن هنا تنتزع صفة أخرى للّه تعالى من الصفات الفعلية تسمى بصفة «الحكيم»، وهي كسائر الصفات الفعلية تؤول وتنتهي إلى الصفات الذاتية.

ويجب علينا أن نؤكد بأن القيام بفعل لأجل المصلحة، لا يعني أن المصلحة هي العلة الغائية للّه تعالى، بل إن المصلحة تعتبر هدفا ثانويا وتبعيا، وأما الغاية

الأصلية لأفعال الله فهي حبه للكمال اللآمتناهي الذاتي، الذي يتعلق بالتبع بآثاره، أي بكمال الموجودات، ومن هنا قالوا بأنّ العلة الغائية للأفعال الإلهية هي العلة الفاعلية نفسها، وليس للّه غاية مستقلة وزائدة على ذاته، ولكن هذه الفكرة لا تتنافى واعتبار الكمال والخير والمصلحة في الموجودات غاية فرعية وتبعية، ولذلك عللّت الأفعال الإلهية في القرآن الكريم ببعض الأمور والغايات التي تنتهي إلى كمال المخلوقات وخيرها وتعود فائدتها للمخلوق نفسه. فقد ذكرت الآيات القرآنية أن الإمتحان والإبتلاء وإختيار أفضل الأعمال، وعبادة الله، والوصول إلى الرحمة الخاصة الأبدية الإلهية[1]، هي الأهداف والغايات لخلق الإنسان. وكل واحدة من هذه الغايات ممهدة للغاية الأخرى، على الترتيب المذكور.

## الكلام الإلهي

ومن المفاهيم التي نسبت إلى الله تعالى مفهوم التكلم، وقد بحث منذ زمان بعيد حول الكلام الإلهي بين المتكلمين، بل قيل إن السبب في هذه التسمية (علم الكلام) هو خوض أصحاب هذا العلم في البحث حول الكلام الإلهي، حيث إعتبرته الأشاعرة من الصفات الذاتية، بينما إعتبرته المعتزلة من الصفات الفعلية. وقد وقع نزاع شديد بين هذين المذهبين حول: هل أن القرآن وهو كلام الله مخلوق أم غير مخلوق؟ وقد وصل الأمر إلى حدّ التكفير بينهما، بسبب إختلاف الآراء في هذا الموضوع. ومع ملاحظة التعريف الذي ذكرناه للصفات الذاتية والصفات الفعلية يظهر لنا بوضوح: أن التكلم من صفات الفعل، حيث يتوقف انتزاعه على تصور مخاطب يتلقى مقصود المتكلم ومراده بواسطة سماع صوت، أو رؤية كتابة، أو

---

(١) لاحظ الآيات التالية: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ هود: ٧، ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ الملك: ٢، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الكهف: ٧.

خطور مفهوم في ذهنه، أو بأية صورة وطريقة أخرى، وفي الواقع ان مفهوم المتكلم ينتزع من الرابطة بين الله تعالى الذي يريد أن يكشف عن حقيقة معينة لآخر، ومخاطب يدرك تلك الحقيقة ويتلقاها، إلا أن يراد من التكلم معنى آخر، كالقدرة على التكلم أو العلم بمضمون الكلام، وبهذا التفسير تؤول وتنتهي هذه الصفة إلى الصفات الذاتية، كما ذكر نظيره لبعض الصفات الفعلية الأخرى . وأما القرآن الكريم، بمعنى هذه الكلمات المكتوبة أو الألفاظ أو المفاهيم الموجودة في الأذهان أو الحقيقة النورانية والمجردة فهو من المخلوقات. وما ذكر من التأويلات حول الكلام الإلهي والقرآن الكريم بعيدة عن الفهم العرفي للمحاورات، ويلزم تجنبها.

### الصدق

والكلام الإلهي إذا تضمن الأمر والنهي والإنشاء، فإنه يحدد بتلك الاحكام والوضائف العملية للعباد، ولا يمكن اتصافه بالصدق والكذب لأن الإنشاء لا يتصف بالصدق والكذب، ولكن لو تضمن الإخبار عن الحقائق الموجودة، أو الأحداث الماضية والمستقبلة فيتصف بالصدق كما يقول القرآن الكريم **﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثًا﴾**[1]. وتمثل هذه الصفة الأساس لإعتبار نوع آخر من الإستدلال، هو «الإستدلال النقلي والتعبدي» لإثبات المسائل الفرعية للنظرة الكونية، وإثبات الكثير من مسائل الإيديولوجية. ومن الأدلة العقلية التي يمكن إقامتها لإثبات هذه الصفة: أن كلام الله إنما هو من شؤون الربوبية الإلهية وتدبير الكون والإنسان، ويعتمد على أساس العلم والحكمة، ولتوجيه المخلوقات وهدايتها، وتوفير الوسيلة لنقل المعلومات والمعارف الصحيحة للمخاطبين. فإذا إحتمل فيه الكذب والمخالفة للواقع فسيؤدي إلى عدم الوثوق بكل هذه المسائل وبالتالي عدم الإعتماد عليها، ولازمه نقض الغرض، وهو مخالف للحكمة الإلهية.

(١) سورة النساء، الآية: ٨٧.



## الأسئلة



١ . ما هو المعنى الذي تعتبر فيه الإرادة من الصفات الذاتية؟ وما هو المعنى الذي تعتبر فيه من الصفات الفعلية؟

٢ . كيف تتصف الإرادة الإلهية بالحدوث والكثرة؟

٣ . بأي معنى يمكن إعتبار المصلحة وخير المخلوقات وكمالها غاية للخلق؟

٤ . وضّح الكلام الإلهي.

٥ . بيّن الدليل العقلي على صدق الله تعالى.

## الدرس العاشر

# توحيد الله

### المقدمة

يقع البحث في هذا الدرس في موضوع التوحيد، وتفنيد آراء المشركين ومعتقداتهم.

وهناك آراء مختلفة لعلماء الإجتماع حول نشأة المعتقدات المشركة في البشرية، وما طرأ عليها من تبدل وتغير، ولكن ليس هناك دليل واضح وصالح للإعتماد على كل تلك الآراء والتفسيرات.

وربما يمكن لنا القول بأن العامل الأول في الإتجاه للشرك وتعدد الآلهة، هو مشاهدة تنوع الظواهر السماوية والأرضية، فاعتقدوا أن كل نوع منها خاضع لتدبير إله معين، فقد اعتقد بعضهم بأن الخيرات مستندة لإله الخير، والشرور مستندة لإله الشر، ومن هنا قالوا بوجود مبدأين وإلهين للعالم، وكذلك يلاحظ مدى تأثير نور الشمس والقمر والكواكب في الظواهر الأرضية لذلك إعتقد بأن لها نوعا من الربوبية للموجودات الأرضية هذا من جهة، ومن جهة أخرى: رغبة البشر في معبود محسوس وملموس، دفعتهم إلى أن يصنعوا لتلك الآلهة المتوهمة تماثيل وتواتم (علامات ورسوم رمزية) وهي الأصنام والأوثان وأخذوا في عبادتها،

وبالتدريج اكتسبت هذه الأوثان طابع الأصالة عند قاصري الذهن والبدائيين، ووضعت كل أمة بل كل قبيلة لنفسها بعض الطقوس والتقاليد بما تمليه عليها أوهامها، تعبد بها أوثانها، ليشبعوا بهذه الممارسات والطقوس البديلة ذلك الدافع الفطري الكامن في أعماقهم لعبادة الله، وليضفوا على نزواتهم الحيوانية وأهوائهم العابثة لون القداسة الدينية، ولا زالت بعض هذه الممارسات والطقوس والحفلات قائمة حتى اليوم، حيث تصحبها ألوان الرقص والصخب وشرب الخمور، والعبث الجنسي، بين الوثنيين، متلونة كلها بطابع الطقوس الدينية. بالإضافة لذلك كله، أنه كان من وراء ذلك كله الجبابرة والطواغيت اللاهثون وراء السلطة وإشباع رغباتهم ومطامعهم الشريرة، حيث إستغلوا هذه المعتقدات والأفكار الساذجة لعامة الناس، وإستثمروها في سبيل تحقيق مآربهم الجهنمية، ومن أجل أن يحكموا قبضتهم حول رقاب الشعوب، ويوسعوا أكثر من سلطاتهم، فإنهم شرعوا في بذر المعتقدات المشركة ونشرها، وأضفوا على أنفسهم لونا من الربوبية، واعتبروا عبادة الطواغيت من جملة الطقوس الدينية، وهناك شواهد بارزة على هذه الظاهرة يمكن ملاحظتها في ملوك وسلاطين الصين والهند وإيران ومصر وسائر الأقطار الأخرى.

إذن فالمعتقدات والمبادئ المشركة، وجدت بين الناس نتيجة لعوامل مختلفة، وإنتشرت لتكون عقبة كأداء في مسيرة التكامل الحقيقي للبشرية، الذي يوفره العمل بالدين الإلهي والتوحيدي، ومن هنا خص الأنبياء الجانب الأكبر من جهودهم ونشاطاتهم لمحاربة الشرك والمشركين، كما تذكر حكايات هذا الصراع مرارا في القرآن الكريم.

إذن فالمعتقدات والمبادئ المشركة تعتمد على أساس الإيمان بربوبية موجود آخر غير الله تعالى، من الموجودات والظواهر الكونية، وهناك الكثير من المشركين إعتقدوا بوحدة الخالق للكون، وفي الواقع أنهم آمنوا بالتوحيد في الخالقية، ولكنهم

قالوا بوجود آلهة بمستوى أدنى، حيث إعتقدوا بأن هذه الآلهة تقوم بمهمة تدبير الكون والتصرف فيه بصورة مستقلة، وأطلقوا على الإله الخالق «رب الأرباب».

واعتقد البعض بأن هذه الآلهة المدبرة هي الملائكة. والمشركون من العرب اعتقدوا أنَّها بنات الله بينما توهم البعض الآخر أنها من الجن، واعتقد آخرون أنها أرواح الكواكب أو أرواح بعض البشر السابقين، أو أنها نوع معين من الموجودات غير المرئية.

وفي الواقع فإن التلازم بين الخالقية والربوبية الحقيقية هو تلازم وثيق، فلا ينفصل الإيمان بإحداهما عن الأخرى أبداً، وأن الايمان بخالقية الله، لا يتلاءم والايمان بربوبية غيره، وأولئك الذين يؤمنون بمثل هذه المعتقدات المتناقضة لم يتنبهوا إلى تناقضها، ويكفي في تفنيد معتقداتهم، أن نتبين حقيقة هذا التناقض وسره. وقد اقيمت أدلة وبراهين عديدة على توحيد الله تعالى، ذكرت في الكتب الكلامية والفلسفية المختلفة، ونذكر هنا دليلا واحدا، يدل بالمباشرة على التوحيد في الربوبية، وتفنيد معتقدات المشركين.

## الدليل على توحيد الله

إن إفتراض وجود إلهين، أو آلهة متعددة للكون، لا يخرج عن الإحتمالات التالية، فإما أن نفترض أن كل واحدة من هذه الظواهر والكائنات الكونية، مخلوقة ومعلولة لجميع هذه الآلهة، وإما أن كل مجموعة منها معلولة لواحد من الآلهة المفترضة، وإما أن نعتبرها جميعا مخلوقة لإله واحد، بينما نفترض سائر الآلهة مدبرة للكون.

أما افتراض أن كل ظاهرة وكائن له آلهة متعددة خالقة له، فهو افتراض محال، ذلك لأن القول بأن هناك اثنين أو أكثر من الآلهة الخالقة، (بمعنى العلة الموجدة) تخلق الموجود، يعني أن كل واحد منها يفيض وجودا، ونتيجة لذلك أن توجد عدة

وجودات بعدد الآلهة المفترضة للشيء الواحد، مع أن كل موجود ليس له إلا وجود واحد، وإلا لم يكن موجودا واحدا.

وأما افتراض أنّ كل واحد منها خالق لمخلوق واحد، أو لمجموعة معينة من المخلوقات، فيلزم من هذا الافتراض أن يكون كل مخلوق قائما بخالقه، ولا يحتاج لموجود آخر إلا الإحتياج الذي يؤول وينتهي بالتالي إلى خالقه، وهو إحتياج إلى خصوص مخلوقات خالقه، وبعبارة أخرى: ان إفتراض الآلهة المتعددة للكون يلزم منه وجود أنظمة متعددة في الكون، وكل واحد منها مستقل ومنفصل عن الآخر، مع أن للكون نظاما واحدا، وكما يوجد إرتباط وتفاعل بين الظواهر الموجودة في زمان واحد، وتحتاج كل منها إلى الأخرى فان هناك ارتباطا وعلاقة بين الظواهر السابقة مع الظواهر الحاضرة الراهنة، وكذلك بين الظواهر الراهنة والظواهر المستقبلية واللاحقة، وكل ظاهرة سابقة ممهدة لوجود اللاحقة إذن فهذا الكون الذي يتألف من أجزاء مترابطة متلاحمة، ويحكمه نظام واحد، لا يمكن أن يكون معلولا لعدة علل موجودة، وأما الإفتراض الثالث، وهو أن الخالق لكل المخلوقات إله واحد، وأما سائر الآلهة فتتكفل بمهمة تدبير الكون وإدارته، فهذا الإفتراض غير صحيح أيضا، وذلك لأن كل معلول قائم بكل شؤون وجوده بعلته الموجدة له، وليس لأي موجود مستقل آخر سبيل للتصرف فيه، إلا أن يكون من قبيل التفاعلات الحاصلة بين معلولات العلة أنفسها، ولكنها كلها خاضعة للفاعل الموجد لها، ولا تخرج عن حكومة قدرته وسلطانه، ولايتم شيء إلا بإذنه التكويني، وفي هذه الحالة لا تكون كل تلك الآلهة - غير الإله الخالق الموجد - «ربا» بمعناه الحقيقي، إذ إن المعنى الحقيقي للرب، أن يقوم بالتصرف المستقل في مربوبه والمفروض في هذه التصرفات والتأثيرات أنها غير مستقلة، بل إنها كلها مقتبسة من ربوبية الخالق، وبالقوة التي يزودها بها ذلك الخالق، ولولاها لما أمكن أن توجد هذه التصرفات، وإفتراض وجود مثل هذه الأرباب

المدبرة للكون لا ينافي التوحيد في الربوبية، كما أن الخالقية التي تتم بالإذن الإلهي لا تنافي التوحيد في الخالقية. وفي القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ما يدل على ثبوت مثل هذا الخلق أو التدبير التبعي وغير المستقل لبعض عباد الله، إذ يقول الله تعالى في كتابه الكريم عن عيسى (ع) ﴿**وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي**﴾[1] ويقول تعالى أيضا: ﴿**فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا**﴾[2]. والحاصل أن التوهم بإمكان آلهة متعددة للكون، ناشئ من قياس الله وتشبيهه بالعلل المادية والمعدة، حيث يمكن القول بتعددها للمعلول الواحد، ولكن لا يمكن أن نشبه العلة الموجدة بمثال هذه العلل، ولا يمكن أن نفترض لأي معلول، عدة علل موجدة أو عدة أرباب مدبرة بالإستقلال إذن فلأجل تفنيد هذا التوهم، لا بد أن نتأمل بدقة أكثر في مفهوم العلة الموجدة وخصائص هذا النوع من العلة، حتى ندرك إستحالة تعدد مثل هذه العلة للمعلول الواحد، وكذلك لا بد من التأمل في ترابط الكون ليتضح لنا أن هذا النظام المترابط الذي يحكم الكون لا يمكن أن يكون مخلوقا لآلهة متعددة، أو خاضعا لتدبير أرباب مستقلين.

وإتّضح من خلال ما ذكرناه أيضا، أن القول بالولاية التكوينية لبعض عباد الله الصالحين، لا ينافي الإيمان بالتوحيد، ولكن يجب أن لا تفسر هذه الولاية بمعنى الخالقية أو الربوبية المستقلة، كما أن القول بالولاية التشريعية للنبي الأكرم (ص) والأئمة الطاهرين (عليهم السلام) لا ينافي الربوبية التشريعية الإلهية، لأن هذه الولاية إنما وجدت من الله تعالى وبالإذن الإلهي ومستمدة ومكتسبة من الله.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٠.

(٢) سورة النازعات، الآية: ٥.



## الأسئلة



١ ـ إشرح العوامل التي أدت إلى وجود المعتقدات المشركة.

٢ ـ ما هو الأساس الذي ترتكز عليه المعتقدات المشركة؟

٣ ـ لماذا لا يمكن أن نفترض آلهة متعددة خالقة لحادث واحد؟

٤ ـ ما هو الاعتراض على القول بأن الكون كله مخلوق لإله واحد، ولكن في نفس الوقت يفترض له أرباب ومدبرون عديدون؟

٥ ـ لماذا كان الإعتقاد بالولاية التكوينية لأولياء الله غير مناف للتوحيد في الخالقية والربوبية؟

## الدرس الحادي عشر

# معاني التوحيد

### المقدمة

إنّ لفظة التوحيد التي تعني لغويا «عد الشيء وجعله واحدا» قد استعملت في مصطلح أهل الفلسفة والكلام والأخلاق والعرفان، في معان عديدة مختلفة، وقد لوحظت في كل هذه المعاني وحدة الله تعالى من جهة معينة، وربما عبر عنها أحياناً بـ«أقسام التوحيد» أو «مراتب التوحيد» ودراسة هذه المعاني كلها لا تتناسب ومنهجية هذا الكتاب. لذلك نكتفي هنا بذكر أشهر المصطلحات والمعاني، وأكثرها تناسبا لموضوعنا:

١ ـ الوحدانية أو نفي التعدد: وهو الإعتقاد بوحدانية الله، ونفي التعدد والكثرة الخارجية الذاتية، وهذا المعنى يقابل الشرك الصريح والإعتقاد بإلهين أو آلهة متعددة، بصورة يكون لكل واحد منها وجود مستقل ومتميز عن الآخر.

٢ ـ الأحدية أونفي التركيب: ويعني الإيمان بالأحدية والبساطة الداخلية الذاتية، وعدم تركب الذات الإلهية من أجزاء بالفعل أو بالقوة.

ويذكر غالبا هذا المعنى بصورة صفة سلبية (نفي التركيب) وذلك لأن أذهاننا أكثر إلفة وأنساً بمفهوم التركيب وما يقابله وهو نفي التركيب، من

مفهوم البساطة.

٣ ـ التوحيد الصفاتي أو نفي الصفات الزائدة على الذات: ويعني الإيمان بإتحاد الصفات الذاتية مع عين الذات الإلهية، ونفي الصفات الزائدة على الذات، ويذكر في الروايات بتعبير «نفي الصفات» في مقابل البعض كالأشاعرة ـ الذين إعتقدوا بأن الصفات الإلهية أمور زائدة على الذات، وقالوا بـ«القدماء الثمانية».

والدليل على التوحيد الصفاتي: هو أنه لو كان لكل واحدة من الصفات الإلهية مصداق ووجود مستقل، فلا يخرج عن إحدى الحالات التالية: فإما أن نفترض مصاديقها في داخل الذات الإلهية. ويلزم من هذا الإفتراض، أن تكون الذات الإلهية مركبة من أجزاء، وقد أثبتنا سابقا إستحالة التركيب.

وإما أن نفترض بأن مصاديقها خارج الذات الإلهية، وفي هذه الحالة إما أن نتصورها واجبة الوجود غير محتاجة إلى خالق، وإما أن نتصورها ممكنة الوجود ومخلوقة لله. أما إفتراض أنها واجبة الوجود، فهذا يعني تعدد الذات، وهو الشرك الصريح، ولا أظن أن هناك مسلما يلتزم به وأما إفتراض أن هذه الصفات ممكنة الوجود، فيلزم من ذلك، ألقول بأن الذات الإلهية مع إفتراض فقدانها لهذه الصفات، هي التي تخلق هذه الصفات وتوجدها، ثم بعد ذلك تتصف بها، فمثلا، مع أن الذات فاقدة للحياة ذاتا، فإنها تخلق موجودا يسمى «الحياة» وبعد ذلك تتصف بصفة الحياة، وكذلك الحال في العلم والقدرة وغيرها، مع أنه من المحال أن تكون العلة الموجدة فاقدة ذاتا لكمالات مخلوقاتها، وأبشع من ذلك أن نعتقد بأن الخالق يكتسب في ظل مخلوقاته الحياة والعلم والقدرة ويتصف بفضلها بسائر الصفات الكمالية!

وببطلان هذه الفروض والإحتمالات، يتضح لنا أن الصفات الإلهية ليست لها مصاديق ووجودات مستقلة كل واحدة عن الأخرى، وعن الذات الإلهية، بل إن هذه الصفات كلها مفاهيم ينتزعها العقل من مصداق واحد بسيط هو الذات

الإلهية المقدسة.

٤ ـ التوحيد الأفعالي: ويعني:

أ ـ إن الله تعالى في أفعاله غير محتاج لأي أحد ولأي شيء، ولايمكن لأي موجود أن يعينه وأن يقدم له المساعدة في فعله.

ويمكن أن نثبت هذه الحقيقة على ضوء الخاصة التي تتميز بها العلة الموجدة، وهي القيومية بالنسبة لكل معلولاتها، وذلك لأن معلول مثل هذه العلة، قائم بكل وجوده بالعلة.

وبالمصطلح الفلسفي: إن المعلول «عين الربط والتعلق» بالعلة، وليست له أية إستقلالية في نفسه.

وبعبارة أخرى: إن ما يملكه ويتمتع به أي موجود. إنما حصل له من تلك العلة الموجودة، وهو خاضع لقدرة الله وسلطانه وملكيته الحقيقية والتكوينية، وأما ملكية الآخرين وقدرتهم، فهي مستمدة منها، ومن متفرعاتها؛ وفي طول القدرة الإلهية، لا أنها تزاحمها، كما هو الحال في الملكية الاعتبارية للعبد المملوك على الأموال التي يكتسبها، فإنها في طول الملكية الإعتبارية للمولى. (العبد وما في يده لمولاه)، إذن فكيف يكون الله محتاجا لمعونة أشياء تكون كل وجودها وشؤون وجودها مستمدة منه، وقائمة به؟

ب ـ التأثير الإستقلالي: أي أن المخلوقات لا يمكنها الإستغناء في أفعالها عن الله تعالى، وإنما يتم تأثير كل مخلوق من المخلوقات في الآخر، بإذن الله، وفي ظل القدرة التي يمنحها الله تعالى له، وفي الواقع إن الموجود الوحيد الذي يفيض تأثيره في كل مكان، وفي كل شيء، بصورة مستقلة وبدون حاجة لغيره، هو الذات الإلهية المقدسة؛ وأما فاعلية الآخرين وتأثيرهم فهي في طول فاعليته وتأثيره، وفي ظله ومدده ومستمدة ومكتسبة منه تعالى.

ومن خلال هذا التحليل نفهم لماذا نسب القرآن الكريم الأسباب والعلل

الطبيعية وغير الطبيعية ﴿كالملك والجن والإنسان﴾ إلى الله تعالى، فنراه يسند إلى الله تعالى هطول المطر، وخروج النبات، وإثمار الأشجار ﴿**اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا**﴾[1]، ﴿**أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ**﴾[2]، ويؤكد كثيرا على أن يدرك الإنسان ويتأمل في هذا الإسناد والنسبة إلى الله تعالى، الذي هو في طول الإسناد للأسباب والعوامل القريبة، وإن يؤمن به، ويتوجه إليه دائما فهو علة العلل وإليه تنتهي العلل والأسباب.

والفاعلية التكوينية لها سلسلة من المراتب أيضا، وبما أن وجود كل فاعل قائم بالإرادة الإلهية، ولذلك كانت الآثار الوجودية التي تصدر من كل فاعل ومؤثر منوطة ومتعلقة في مرتبتها العليا بالإذن والإرادة التكوينية الإلهية، ومستندة إلى الله تعالى (**ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**).

## نتيجتان مهمتان

ونتيجة التوحيد الأفعالي أن لا يرى الإنسان، أي أحد، وأي شيء غير الله تعالى، مستحقا للعبادة، وكما أشرنا إليه سابقا، وإن الذي يستحق العبادة هو خالق العبد وربه، أي أن الألوهية لازمة للخالقية والربوبية. والنتيجة الثانية للتوحيد بمعناه الأخير، هي أن يعتمد الإنسان في كل أحواله على الله تعالى، وأن يتوكل عليه، ويستعين به في كل أعماله، وأن لا يستمد المدد إلا منه، وأن لا يخاف ولا يرجو إلا ربه، وحتى لو لم تتوفر الأسباب العادية المتعارفة ليحصل على مطلوبه ويلبي حاجاته، فعليه أن لا يصيبه اليأس والقنوط، لأن الله تعالى سوف يوصل إليه المدد،

---

(١) سورة الروم، الآية: ٤٨.

(٢) سورة النمل، الآية: ٦٠.

وينعم عليه بالرحمة، من الطرق والأسباب غير العادية. ليستجيب لإحتياجاته ومتطلباته.

ومثل هذا الإنسان الذي يعيش هذه المشاعر التوحيدية، سوف يسكن في ظل الولاية الإلهية الخاصة، ليعيش إطمئنانا روحيا لا نظير له **﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**[1].

وقد أودعت هاتان النتيجتان في هذه الآية الشريفة التي يكررها يوميا كل مسلم عشر مرات على الأقل **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾**[2].

### الجواب عن شبهة

ويمكن أن تخطر في ذهن البعض هذه الشبهة: وهي أن التوحيد الكامل إذا كان يستلزم عدم إستعانة الإنسان بغير الله، إذن فيلزم علينا أن لا نتوسل بأولياء الله، فالتوسل بهم غير صحيح.

والجواب: أن التوسل بأولياء الله إذا كان بمعنى: أن يستجيب الأولياء أنفسهم لهذا المتوسل، وأن يحققوا ويوفروا له ما يطلبه بصورة مستقلة، وبدون أن يحتاج الأولياء في ذلك إلى إذن الله ومدده، فإن هذا التوسل لا يتلاءم مع التوحيد بل ينافيه، وأما لو كان التوسل بمعنى: أن الله تعالى جعل الولي وسيلة للتوصل إلى رحمته تعالى وقد أمر تعالى الناس أن يتوسلوا بهذا الولي، فهذا التوسل كما أنه لا ينافي التوحيد، فإنه يعتبر أيضا من شؤون التوحيد في العبادة والطاعة، إذ إنه يتم بأمره تعالى.

وأما أنه لماذا جعل الله تعالى أمثال هذه الوسائل إليه؟ ولماذا أمر الناس بالتوسل بأوليائه؟ فالجواب: أن لهذا الأمر الإلهي حكما ومصالح، يمكن أن نعتبر

---

(١) سورة يونس، الآية: ٦٢.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

منها الأمور التالية:

التعريف بالمستويات والدرجات الرفيعة لعباده الصالحين، ودفع الآخرين وحثهم على العبادة والطاعة التي تؤدي بالآخرين إلى الوصول لمثل هذه المستويات الرفيعة، وأن يمنع من حصول الغرور والإعتداد للبعض بعبادته، حيث يعتقد في نفسه الوصول إلى أرفع الدرجات وأنه يتمتع بأسمى الكمالات الإنسانية، وقد ظهرت هذه الحالة ـ ومع الأسف ـ لأولئك الذين حرموا من نعمة ولاية أهل البيت (عليهم الصلاة والسلام) والتوسل بهم.



## الأسئلة



١ ـ بيّن المعنى اللغوي والمعنى المصطلح للتوحيد.

٢ ـ ما هو الدليل على التوحيد الصفاتي؟

٣ ـ كيف يمكن إثبات التوحيد الافعالي؟

٤ ـ وضّح التوحيد بمعنى التوحيد في التأثير الإستقلالي.

٥ ـ هل إن التوسل بأولياء الله ينافي التوحيد؟ ولماذا؟

## الدرس الثاني عشر

# الجبر والاختيار

### المقدمة

إن التوحيد في التأثير الإستقلالي من المعارف القيمة والتي لها تأثير كبير في تربية الناس وبناء شخصيتهم، وقد أكد القرآن الكريم عليه كثيرا ووفر بتعابير وأساليب مختلفة، الأرضية المناسبة لفهمه الصحيح والسليم، ومن جملة هذه التعابير إناطة كل الظواهر بإذن الله ومشيئته وإرادته وقضائه وقدره.

وأولئك الذين حرموا الرشد العقلي اللازم، أو لم يحاولوا الإستفادة والإقتباس من تعاليم الأئمة المعصومين، والمفسرين الحقيقيين للقرآن الكريم، عرضت لهم الكثير من الإنحرافات والشبهات، ففسروا ذلك بحصر كل تأثير وعلية بالله تعالى، وأنهم - خلافا لصراحة الكثير من الآيات القرآنية المحكمة - نفوا أي تأثير وعلية للأسباب والوسائط، وإعتقدوا بأن «عادة» الله جرت بأن يوجد الحرارة عقيب وجود النار، أو أنه يوجد الشبع والإرتواء بعد أكل الطعام وشرب الماء، وإلا فليس للنار أو الطعام أو الماء أي تأثير في وجود الحرارة أو الشبع أو الارتواء والنتائج الخطيرة والسيئة لمثل هذا الإنحراف الفكري إنما تتضح فيما لو درسنا آثارها في مجال الأفعال الإختيارية للإنسان ومسؤوليته، فإن نتيجة هذا اللون من

التفكير، تتمثل في إسناد افعال الإنسان لله تعالى بصورة مباشرة، ونفي فاعلية الإنسان وتأثيره في افعاله، نفيا مطلقا، وفي هذه الحالة لا يكون أي أحد مسؤولا عن أفعاله.

وبعبارة أخرى: إن من النتائج الخطيرة والمضلة لهذا الإنحراف الفكري، هو القول بجبرية الإنسان، ونفي المسؤولية عنه، وهو يعني نفي أهم خاصة وميزة للإنسان، وعبثية وعدم فائدة كل الأنظمة التربوية والأخلاقية والقانونية والحقوقية، ومنها النظام التشريعي الإسلامي.

ذلك لاننا لو سلبنا الإختيار عن الإنسان على أي فعل من أفعاله، لما بقي موضوع للمسؤولية والوظيفة والأمر والنهي والتكليف والجزاء والثواب والعقاب، بل لإستلزم عبثية النظام التكويني وعدم غائيته، ذلك أن الهدف من خلق عالم الطبيعة - كما تدل عليه الآيات الكريمة[1] والأحاديث الشريفة والبراهين والأدلة العقلية - هو الإعداد وتوفير الأرضية الملائمة لخلق الإنسان، ليتوصل من خلال فعالياته وممارساته وافعاله الاختيارية وعبادته، وعبوديته لله تعالى، إلى أرفع الكمالات الإمكانية، ومقام القرب الإلهي ليكون مؤهلا لإفاضة الألطاف والإمدادات الإلهية الخاصة عليه، أما لو رفضنا إختيار الإنسان وأنكرنا مسؤوليته، فلا يكون مستحقا للحصول على الثواب والنعم الخالدة والرضوان الإلهي، وبذلك سينتقض الهدف من الخلق وينهار، ليتحول نظام الخلق إلى مسرح كبير يلعب فيه الناس دور الدمى التي تتحرك وتلعب أدوارها بدون إرادة وإختيار، وتحدث فيها بعض الحركات والافعال بدون إرادة منها، ولكن بعد ذلك سوف ينال البعض

---

(1) لاحظ الآيات التالية: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ هود: ٧. ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ الملك: ٢. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الكهف: ٧.

العقاب والمذمة، وينال البعض الآخر الثواب والثناء!

إن أهم العوامل التي أدت إلى إتساع هذا الاتجاه الخطير والمنحرف، هو المطامع السياسية للحكومات الجائرة المجرمة، لتوجه وتبرر بمثل هذه المعتقدات تصرفاتها ومواقفها المنكرة، ولتفرض على الشعوب غير الواعية الإذعان لسلطانها وتقبل حكوماتها، دون أن تتحرك الجماهير المسحوقة للثورة والإنتفاضة بوجه هذه السلطات المجرمة وحقا يلزم علينا أن نعتبر الجبرية أهم عامل في تخدير الشعوب.

وهناك من تنبه لنقاط الضعف في هذا الإتجاه، ولكن بما أنهم لا يملكون الرشد العقلي والقدرة الفكرية على التوفيق بين التوحيد الكامل ونفي الجبرية، ولم يحاولوا الإقتباس من تعاليم أهل بيت العصمة والطهارة (سلام الله عليهم أجمعين)، فقد إتجهوا إلى الإعتقاد بالتفويض، وقالوا بخروج الأفعال الإختيارية للإنسان عن نطاق الفاعلية الإلهية، وإبتلوا هم أنفسهم بنوع آخر من الأمراض والإنحرافات الفكرية، وحرموا من المبادى والتعاليم الإسلامية، ومعطياتها السامية.

ولكن أولئك الذين كانوا يملكون الإستعداد والرشد الفكري الكافي الذي يؤهلهم لإدراك هذه المعارف، وفهمها، وتعرفوا على المعلمين والمفسرين الحقيقيين للقرآن الكريم، وانتهلوا منهم، فإنهم حفظوا من الإصابة بمثل هذه الأمراض والإنحرافات فمن جهة: اعتقدوا بأن فاعليتهم الاختيارية مستمدة من القدرة التي منحها الله تعالى لهم، وبترتب المسؤولية عليها، ومن جهة أخرى: أدركوا التأثير الإستقلالي الإلهي في مرتبة أعلى وأسمى فتوصلوا من خلال ذلك إلى معطيات هذه المعرفة المثمرة.

ونجد في الأحاديث التي وصلتنا من أهل بيت النبي (ص) أحاديث قيمة ومثمرة في هذا المجال، وقد ذكرت في كتب الحديث في الأبواب المعنونة بعنوان الإستطاعة

ونفي الجبر والتفويض، وكذلك في أبواب الإذن والمشيئة والإرادة والقضاء والقدر الإلهي وهناك بعض الأحاديث نهي فيها بعض الأفراد غير المؤهلين عن الخوض في مثل هذه المسائل الدقيقة، والبحوث الصعبة، حتى لا يصيبهم الإنحراف والإشتباه.

## توضيح الإختيار

إن القدرة على اتخاذ القرار والإختيار والإنتخاب من الأمور التي يدركها الإنسان ويجزم بها، ولعلها أكثر الأمور والمعارف يقينا للإنسان، فإن كل واحد منا يدركها في ذاته وداخله بعلمه الحضوري الذي لا يخطئ ولا يشتبه كما يدرك بمثل هذا العلم سائر حالاته النفسية، وحتى لو شك في شيء فإنه لا يشك في شكه هذا، فإنه يدرك «شكه» هذا بالعلم الحضوري، ولا يمكن أن يتردد في هذا الإدراك.

وكذلك كل أحد يدرك بأدنى تأمل في داخله وأعماق ذاته بأنه قادر على التكلم بكلام، وعدم التكلم، أو أنه قادر على تحريك يده وعدم تحريكها، أو قادر على تناول الطعام وعدم تناوله.

إن التصميم على القيام بعمل، تارة يتم لأجل إشباع الدوافع الغريزية والحيوانية، أمثال الجوع الذي يدفع الإنسان إلى إرادة أكل الطعام أو الظامئ الذي يدفعه العطش إلى العزم على شرب الماء، وتارة أخرى يتم لأجل إرضاء الدوافع والاحتياجات العقلية، وتحقيق الطموحات الإنسانية الرفيعة كالمريض الذي يستعمل الدواء المر، لأجل الحصول على السلامة والشفاء، ويمتنع لأجل ذلك عن تناول الأغذية الشهية، أو طالب العلم الذي يعرض، في سبيل تحصيل العلم وإكتساب الحقائق، عن الملذات المادية، ويتحمل ألوان المتاعب والمصاعب، والجندي الباسل الذي يضحي حتى بروحه في سبيل الوصول إلى تطلعاته السامية.

وفي الواقع إنما تظهر قيمة الإنسان حينما تتعارض وتتزاحم الرغبات المختلفة،

والإنسان من أجل الوصول إلى الفضائل الأخلاقية والكمالات الروحية والأبدية والقرب والرضوان الإلهي، يعرض عن الرغبات الحيوانية المنحطة الوضيعة، وكل عمل يمارسه الإنسان وفق إختيار ووعي أكثر، هو أكثر تأثيرا في تكامله الروحي والمعنوي، أو هبوطه وإنحطاطه وأكثر إستحقاقا للثواب والعقاب ومن الواضح أن القدرة على مواجهة الرغبات النفسية، ليست بدرجة واحدة في جميع الأفراد وبالنسبة لكل شيء ولكن كل إنسان يملك هذه الموهبة الإلهية (الإرادة الحرة)، قليلا أم كثيرا، ويمكن له - بالتدريب والتمرين - تقويتها وتنميتها أكثر فأكثر.

إذن فلا نتردد أبدا في وجود الإرادة والإختيار، ويلزم أن لا تؤدي الشبهات المختلفة إلى تردد الأذهان في مثل هذا الأمر الوجداني والبديهي، فإن وجود الإختيار كأصل بديهي تتقبله وتؤمن به كل الأنظمة التربوية والأخلاقية والأديان والشرائع السماوية أما لو لم نعتقد بوجوده، فلا يبقى مجال ومبرر للوظيفة والتكليف والذم والمدح والعقاب والثواب. والذي أدى إلى الشك والترديد في هذه الحقيقة البيّنة والبديهية، والاتجاه إلى الجبرية، هو وجود بعض الشبهات التي يتحتم الجواب عنها حتى لا يخطر مثل هذا الترديد في الأذهان، ومن هنا نتعرض وبإيجاز لمناقشة أهم هذه الشبهات.

## مناقشة شبهات الجبريين

إن أهم شبهات الجبريين ما يلي:

١ - إن إرادة الإنسان إنما تتكون وتتشكل بفعل إثارة الميول لا أن وجود هذه الميول خاضع لإختيار الإنسان، ولأن إثارتها بفعل العوامل الخارجية، إذن فلا يبقى مكان ومجال للإرادة والإختيار.

والجواب: إن الميول معدة للإرادة لا أن التصميم والإرادة على القيام بعمل، نتيجة جبرية وحتمية لإثارة الميول، بحيث تسلب منه القدرة على المخالفة

والمقاومة، والشاهد عليه، أنه تحدث في الكثير من المجالات حالة الترديد والشك في الإنسان، بحيث يحتاج في إتخاذ القرار إلى التأمل وموازنة النفع والضرر في العمل، وأحيانا لا يتم إتخاذ القرار إلا بصعوبة.

٢ . لقد ثبت في مختلف العلوم أن هناك عوامل عديدة لها تأثيرها في تشكل إرادة الإنسان أمثال الوراثة، وإفرازات الغدد (ألتي تحدث نتيجة لتأثير المواد الغذائية أو الأدوية الخاصة) ، وكذلك العوامل المحيطية والإجتماعية وان إختلاف الناس في مواقفهم وسلوكهم، خاضع لإختلاف هذه العوامل . والملاحظ أيضا أن النصوص الدينية تدعم من قريب أو بعيد أمثال هذه الآراء إذن فلا يمكن القول بأن أفعال الإنسان منبثقة من الإرادة الحرة والجواب: أن الإعتقاد بالإختيار والإرادة الحرة، لا يعني رفض هذه العوامل وتأثير، بل إنما يعني أنه بالرغم من وجود كل هذه العوامل، فإن للإنسان الخيار والقدرة على المقاومة والمخالفة وحين تتعارض وتتزاحم الدوافع المختلفة، نجد أن له القدرة على إختيار بعضها.

وبطبيعة الحال، هناك بعض العوامل القوية التي يصعب مقاومتها، حيث يكون إختيار عمل يخالف متطلباتها، صعبا جدا ولكن مثل هذه المقاومة والإختيار الصعب أكثر تأثيرا في تكامل الإنسان، وفي إستحقاقة للثواب ومضاعفته، كما أنه أحيانا تكون بعض حالات الهيجان والإنفعالات الحادة، أو بعض الظروف الصعبة سببا في تخفيف العقاب، أو تضاؤل درجة الجريمة.

٣ . ومن شبهات الجبريين، أن الله تعالى عالم بكل ظواهر العالم والكون، ومنها أفعال الإنسان قبل وقوعها، والعلم الإلهي لا يقبل الخطأ والتخلف، إذن فلابد أن تتحقق كل الظواهر وفق العلم الإلهي الأزلي، ولا يمكن تخلفها عنه، إذن فلا يبقى مجال لإختيار الإنسان.

والجواب: أن العلم الإلهي متعلق بكل ظاهرة بما هي عليه في الواقع، والأفعال الإختيارية معلومة للّه تعالى بما هي عليه في الواقع، وبوصف إختياريتها وإراديتها

فإذا حدثت هذه الأفعال على صفة الجبرية، تكون قد تحققت على خلاف العلم الإلهي وتخلفت عنه.

فمثلاً: ان الله تعالى يعلم بأن الشخص الفلاني وفي ظروف معينة سيصمم على القيام بعمل ما. وانه سيحقق ذلك العمل. والعلم الإلهي لم يتعلق هنا بمجرد وقوع العمل وبغض النظر عن صدوره بإرادة الفاعل وإختياره، بل تعلق بالفعل بما أنه يصدر عن إختيار الانسان إذن فالعلم الالهي الأزلي لا ينافي إختيار الإنسان وإرادته الحرة.

ومن شبهات الجبريين، الشبهة التي تتعلق بموضوع القضاء والقدر، حيث يعتقد هؤلاء بأنه لا يتلاءم وإختيار الإنسان، وسنبحث هذا الموضوع في الدرس القادم.



## الأسئلة



١ - إشرح العوامل التي أدت إلى الإتجاه إلى الجبرية وإنتشارها.

٢ - ما هي النتائج السيئة لهذا الإتجاه؟

٣ - وضّح وجود الإختيار والإرادة الحرة في الإنسان.

٤ - هل إن تأثير الوراثة والعوامل المحيطية والإجتماعية مستلزم للجبر؟ ولماذا؟

٥ - هل إن العلم الإلهي الأزلي ينفي إختيار الإنسان؟ ولماذا؟

الدرس الثالث عشر

# القضاء والقدر

## مفهوم القضاء والقدر

إن لفظة «القدر» بمعنى المقدار، و «التقدير» يعني قياس الشيء وجعله على مقدار، وصنع كل شيء بحد معين ولفظة «القضاء» بمعنى الإتمام والفراغ من الشيء، أو الأداء، والحكم، (وهو نوع من الاتمام الاعتباري). وأحياناً تستعمل كلتا الكلمتين بمعنى مترادف حيث يستعملان في معنى «المصير».

والمراد من التقدير الإلهي، أن الله تعالى جعل لكل حادث مقدارا وحدودا كمية وكيفية وزمانية ومكانية معينة، في تحققه بفعل العلل والعوامل التدريجية، والمراد من القضاء الإلهي، إيصال الحادث إلى مرحلته النهائية والحتمية بعد توفر المقدمات والأسباب والشروط لذلك الحادث. وعلى ضوء هذا التفسير، تكون مرحلة التقدير متقدمة على مرحلة القضاء، حيث تكون للتقدير مراحل تدريجية مشتملة على مقدمات بعيدة ومتوسطة وقريبة، ويتعرض التقدير للتغير بتغير بعض الأسباب والشروط.

فمثلا مسيرة الجنين المتدرجة من النطفة إلى العلقة فالمضغة، إلى أن تكون جنينا متكاملا، تعتبر هي المراحل المختلفة لتقديره، حيث يشمل المشخصات

الزمانية والمكانية أيضا، وسقوط هذا الجنين في مرحلة من هذا المراحل يعد تغيرا في التقدير. وأما مرحلة القضاء فهي دفعية وليست تدريجية، ومرتبطة بتوفر كل الأسباب والشروط، وهي أيضا حتمية لا تقبل التغير ﴿**إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾[1]. ولكن ـ وكما اشرنا اليه ـ يستعمل (القضاء والقدر) كلفظين مترادفين أحيانا ومن هنا يقسم للحتمي وغير الحتمي، وبهذا اللحاظ تعرضت بعض الروايات والادعية لتغيير القضاء وأن الصدقة والبر بالوالدين وصلة الرحم والدعاء من عوامل تغيير القضاء.

## القضاء والقدر العلمي والعيني

يستعمل التقدير والقضاء الإلهي أحيانا، بمعنى علم الله بتوفر المقدمات والأسباب والشروط المؤثرة في تحقق الظواهر وكذلك علمه بالوقوع الحتمي لها، ويطلق على ذلك «القضاء والقدر العلمي»، وأحيانا يستعمل بمعنى إنتساب المسيرة التدريجية للظواهر، وكذلك إنتساب تحققها العيني الخارجي، إلى الله تعالى، ويطلق عليه «القضاء والقدر العيني».

ووفقا لما يستفاد من الايات والروايات، فإن العلم الإلهي بكل الظواهر بالصورة التي تتحقق بها في العالم الخارجي تماما، مودع في مخلوق شريف رفيع، يسمى «اللوح المحفوظ». وكل من يمكنه الإتصال بهذا اللوح، بإذن الله، سيكون عالما بالظواهر الماضية والمستقبلية. وهناك ألواح اخر، أقل رتبة ومقاما من اللوح المحفوظ، أودعت فيها الظواهر بصورة مشروطة وغير تامة، ومن يشرف ويتعرف عليها ستكون له معلومات محدودة وناقصة ومشروطة قابلة للتغير. وربما تكون هذه الآية الشريفة ناظرة إلى هذين النوعين من المصير ﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاء**

---

(١) سورة آل عمران: الآية: ٤٧.

**﴿وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾**[1] وتغير التقديرات المشروطة وغير الحتمية يعبر عنه في الروايات بـ«البداء». إذن فالإيمان بالقضاء والقدر العلمي، لا يثير إشكالا أكثر مما ذكر في موضوع العلم الإلهي الأزلي، وقد بحثنا في الدرس السابق شبهة الجبرية في موضوع العلم الإلهي، وإتضح لنا ضعفها وخواؤها.

ولكن الإشكال الأكثر صعوبة يأتي في مجال الإعتقاد بالقضاء والقدر العيني، وخاصة في مجال الإيمان بالمصير الحتمي، علينا معالجته والإجابة عنه وإن علم الجواب الإجمالي عنه في موضوع التوحيد بمعنى التأثير المستقل.

## العلاقة بين القضاء والقدر، وإختيار الإنسان

علمنا فيما سبق، أن الإعتقاد بالقضاء والقدر العيني الإلهي، يقتضي الإعتقاد بأن وجود الظواهر من بداية وجودها حتى مراحل نموها وإزدهارها، إلى نهاية عمرها، بل من حين توفر المقدمات البعيدة لها، كلها خاضعة للتدبير الإلهي الحكيم، وعلينا أن نؤمن أيضا بأن توفر الشروط لوجودها ووصولها إلى المرحلة النهائية، مستند إلى الإرادة الإلهية[2].

**وبعبارة أخرى:** فكما أن وجود كل ظاهرة، منتسب للاذن والمشية التكوينية لله وبدون إذنه لا يمكن لاي موجود أن يفتح عينيه على عالم الوجود، كذلك فإن وجود وتكوّن كل شيء مستند إلى التقدير والقضاء الالهيين وبدونها لا يمكن لاي موجود الوصول إلى شكله وحدوده المعينة، ولا يصل إلى نهاية عمره، وتوضيح هذه الارتباطات والعلاقات وتفسيرها يمثل في واقعه التعليم التدريجي للتوحيد بمعنى الإستقلال في التأثير، الذي هو من أرفع مراتب التوحيد فإن للتأكيد على مثل هذه

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

(٢) إن إنطباق كل من الإرادة والقضاء الإلهين على الآخر (بحسب المورد) يتضح من تطبيق الآية ٤٧ من آل عمران على الآية ٨٢ من سورة يس **﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾**، ٥٢. التكوير: ٢٩.

العلاقات والتنبيه عليها دوره الكبير في بناء شخصية الإنسان.

وأما إسناد الظواهر إلى الإذن، بل حتى للمشية الإلهية، فهو أيسر فهما وأقرب إلى الأذهان، خلافا لإسناد مرحلتها النهائية وتعينها الحتمي للقضاء الإلهي. فإنه لأجل صعوبة إستيعابه وفهمه لذلك بحث فيه أكثر، وذلك لأنه يصعب التوفيق بين هذا الإيمان، والإيمان بإختيار الإنسان في رسم مصيره وتحديده، لذلك رأينا بعض المتكلمين (الأشاعرة) الذين تقبلوا شمول القضاء الالهي لأفعال الانسان، قد أتجهوا إلى القول بالجبر، بينما نرى جماعة أخرى (المعتزلة) الذين لم يمكنهم القول بالجبر وآثاره الخطيرة والسيئة، قد أنكروا شمول القضاء الإلهي لأفعال الإنسان الإختيارية، وكل جماعة أوّلت الآيات القرآنية والروايات المخالفة لرأيها بما يتلاءم وإتجاهها ورأيها، كما ذكر ذلك كله في الكتب الكلامية الموسعة وفي الرسائل المخصصة للبحث حول الجبر والتفويض.

والمحور الرئيسي للإعتراض: أن فعل الإنسان إذا كان إختياريا حقا، ومستندا لإرادته، فكيف يمكن القول بإستناده لإرادة الله وقضائه؟ وإذا كان مستندا للقضاء الإلهي فيكف يمكن القول بأنه خاضع لإرادة الإنسان وإختياره؟

ولأجل الجواب عن هذا الإعتراض والتوفيق بين إستناد الفعل لإرادة الإنسان وإختياره، وإستناده لإرادة الله وقضائه، يلزم علينا أن نبحث حول انواع إستناد المعلول الواحد لعلل متعددة، حتى يتضح لنا نوع إستناد الفعل الإختياري للإنسان ولله تعالى.

## أنواع تأثير العلل المتعددة

يمكن أن يتصور تأثير العلل المتعددة في وجود ظاهرة ما، بعدة صور:

١ ـ أن تؤثر العلل المتعددة معا، وكل منها منضمة للأخرى، وتساهم جميعا في وجود الظاهرة، كإجتماع البذر والماء والحرارة وغيرها، حيث تؤثر في إنفلاق البذر

وخروج النبات.

٢ ـ أن تتناوب العلل في التأثير، بحيث يمكن تقسيم تلك الظاهرة، على عدد تلك العلل، وكل قسم منها معلول لواحدة من العلل والعوامل، التي تؤثر أثرها خلال وقتها ونوبتها، كما لو كانت هناك عدة محركات للطائرة، تؤدي بالتناوب عملية إستمرارية حركة الطائرة.

٣ ـ أن يكون تأثير كل واحد منها مترتبا على الآخر، كما في تصادم كرات رياضية متعددة، كل منها بالاخر فكل واحدة هي السبب في حركة الأخرى، وكما في الاصطدامات الحلقية المسلسلة حيث تسقط الحلقة اللاحقة من حلقات السلسلة بتأثير السابقة على التعاقب، ومثال آخر له، ما نلاحظه من تأثير إرادة الإنسان في حركة اليد، وتأثير اليد في حركة القلم. وتأثير القلم في وجود الكتابة.

٤ ـ التأثير المترتب على علل وعوامل متعددة طولية، بحيث يكون وجود كل منها مرتبطا بوجود الآخر. خلافا للقسم الثالث حيث لم يكن وجود القلم مرتبطا بوجود اليد، أو وجود اليد مرتبطا بإرادة الإنسان، وفي هذه الصور جميعا يمكن أن تجتمع علل متعددة على معلول واحد، بل يجب اجتماعها. وتأثير الإرادة الإلهية وإرادة الإنسان في الفعل الاختياري من القسم الأخير، إذ إن وجود الإنسان وإرادته مرتبطان بالإرادة الإلهية وأما الصورة التي لا يمكن فيها أن تجتمع علتان على معلول واحد، فهي الصورة التي تجتمع فيها علتان موجدتان، أو علتان يمتنع الجمع بينهما في التأثير في عرض ومستوى واحد وعلى البدل كما لو فرضنا صدور إرادة واحدة من فاعلين مريدين، أو إستناد ظاهرة واحدة إلى مجموعتين من العلل (علتين تامتين).

### مناقشة شبهة

تبين مما ذكرناه من توضيحات، أن إستناد وجود الأفعال الإختيارية الإنسانية

إلى الله تعالى، لا ينافي إستنادها للإنسان نفسه. لأن أحدهما في طول الآخر، ولا تزاحم بينهما.

وبعبارة أخرى: إستناد الفعل للفاعل الإنساني في مستوى، بينما إستناد وجوده لله تعالى فهو في مستوى آخر أسمى من ذلك المستوى فانه في ذلك المستوى يكون وجود الإنسان نفسه، ووجود المادة التي يحقق فعله فيها، ووجود الآلات التي يستخدمها في القيام بفعله، كلها مستندة إلى الله تعالى . إذن فتأثير إرادة الإنسان التي هي من قبيل الجزء الأخير للعلة التامة في فعله، لا ينافي إستناد جميع أجزاء العلة التامة إلى الله تعالى، فإنه تعالى هو الذي يملك بيد قدرته وجود العالم والإنسان وكل شؤونه وأحواله الوجودية، وهو الذي يفيض الوجود عليها بإستمرار، ولا تستغني عنه تعالى في أي زمان وحال. وليست لها أية إستقلالية عنه وبناء على ذلك فالأفعال الإختيارية للانسان غير مستغنية عنه تعالى أيضا، ولا يمكن لها أن تخرج عن حدود إرادته وكل صفاتها ومميزاتها وحدودها ومشخصاتها أيضا مرتبطة بالتقدير والقضاء الإلهي، وليس كما ذكر، بأن هذه الأفعال إما أن تكون مستندة لإرادة الإنسان. أو مستندة لإرادة الله، وذلك لان هاتين الإرادتين ليستا في عرض ومستوى واحد، ولا يمتنع الجمع بينهما، ولا يؤثران في تحقق الأفعال على البدلية، بل إن إرادة الإنسان كأصل وجوده نفسه، مرتبطة بالإرادة الإلهية، ووجود الإرادة الإلهية ضروري لتحققها. ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

## معطيات الإعتقاد بالقضاء والقدر

إن الإعتقاد بالقضاء والقدر الإلهي، كما أنه يعتبر مرحلة رفيعة من معرفة الله، ويؤدي إلى تكامل الإنسان عقليا، فكذلك له آثار ومعطيات عملية كثيرة، نذكر هنا

(١) سورة التكوير، الآية: ٢٩.

بعضا منها:

إن من يؤمن بأن حدوث الحوادث خاضع لإرادة الله الحكيمة، ومستند إلى التقدير والقضاء الإلهي، لا يخشى الأحداث المؤلمة، ولا ينهار أمامها، ولا يتملكه الجزع واليأس، فإنه حين يعتقد بأن هذه الأحداث تمثل جانبا من نظام العالم الحكيم، وتتحقق وفق مصالح وحكم، يستقبلها بأحضان مفتوحة، ليتوصل من خلال هذا الموقف المؤمن إلى ملكات فاظلة، أمثال الصبر والتوكل والرضا والتسليم وغيرها.

وكذلك لا تشده ولا تخدعه ملذات الحياة وأفراحها، ولا يصيبه الغرور والخيلاء، بها، ولا يتخذ النعم الإلهية سلما للتفاخر والإستعلاء.

إن هذه المعطيات القيمة هي التي تشير إليها الآية الشريفة: **﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ، لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾**[1]. وعلينا أن نؤكد على تجنب اثار ومضاعفات التفسير المنحرف لمسألة القضاء والقدر والتوحيد في التأثير المستقل، فإن التفسير الخاطئ يؤدي إلى الكسل والبطالة والمذلة وقبول الظلم والجور، والتهرب من المسؤولية، ويلزم علينا أن نعلم أن السعادة أو الشقاء الأبدي للانسان إنما هو نتيجة أفعاله الاختيارية نفسه **﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾**[2] **﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾**[3].

(١) سورة الحديد، الأيتان: ٢٢ و٢٣.

(٢) سورة البقرة: الآية الأخيرة

(٣) سورة النجم، الآية: ٣٩.



## الأسـئلة



١ ـ بيّن المفهوم اللغوي للقضاء والقدر.

٢ ـ على أي أساس يقسم القضاء والقدر إلى حتمي وغير حتمي؟

٣ ـ ما هو البداء؟

٤ ـ بيّن القضاء والقدر العلمي والعيني.

٥ ـ بيّن أنواع تأثير العلل المتعددة في المعلول الواحد، ووضّح النوع الذي يستحيل فيه إجتماع العلل المتعددة على المعلول الواحد.

## الدرس الرابع عشر

# العدل الإلهي

### المقدمة

يوجد خلاف بين الأشاعرة والمعتزلة في مجالات ومواضيع مختلفة ومتعددة. ومن هذه المواضيع، موضوع الكلام والإرادة الإلهية، والتوحيد الصفاتي والجبر والإختيار والقضاء والقدر. وقد كانت آراءهما على الغالب، تقع في طرفي الإفراط والتفريط.

ومن محاور الخلاف الأساسية بين هاتين الفرقتين، موضوع العدل الإلهي، وقد لوحظ توافق الشيعة مع المعتزلة في رأيهم حول هذا الموضوع، وأطلق عليهما مصطلح «العدلية» مقابل الأشاعرة. ولأجل أهمية هذا الموضوع، إعتبر من المواضيع الرئيسة في علم الكلام، بل إنه إعتبر من أصول العقائد، ومن مميزات المذهب الكلامي للشيعة والمعتزلة.

ويلزم التأكيد على أن الأشاعرة أيضا، لا يرفضون العدل الإلهي، فإنهم لا يعتبرون الله ظالما (نستغفر الله) مع أن الآيات القرآنية الصريحة التي لا تقبل التأويل تثبت العدل الإلهي، وتنفي كل لون من ألوان الظلم عن الله سبحانه وتعالى عن ذلك، ولكن البحث في هذا الموضوع يدور حول ما إذا كان يمكن للعقل بنفسه

وبدون الاعتماد على المصادر الشرعية (الكتاب والسنة) أن يدرك ويتوصل إلى ضوابط للأفعال، وخاصة الأفعال الإلهية، يحكم على أساسها بلزوم القيام بهذا الفعل، وترك الفعل الآخر، فمثلا يحكم العقل «أنه يلزم على الله تعالى أن يدخل المؤمنين الجنة، والكفار النار» أو ان أمثال هذه الأحكام لا يمكن أن تتم إلا إعتمادا على الوحي، وأما لو غض النظر عن الوحي، فلا يتمكن العقل من الحكم والقضاء.

إذن فالمحور الأساسي للخلاف، هو الموضوع الذي يعبر عنه بـ«الحسن والقبح العقليين» وقد أنكره الأشاعرة، وإعتقدوا بأن الحسن في الأمور التكوينية هو ما يفعله الله، وأما في الأمور التشريعية فالحسن ما يأمر به الله. وليس الفعل في ذاته حسنا، ولأجل ذلك يفعله الله، أو يأمر به.

وأما العدلية، فيعتقدون بأن الأفعال تتصف في ذاتها بالحسن والقبح بغض النظر عن انتسابها التكويني والتشريعي لله تعالى ، ويمكن للعقل إلى حد ما أن يدرك جهات الحسن والقبح في الأفعال، وتنزيه الذات الإلهية عن الأفعال القبيحة، ولكن هذا الإدراك العقلي لا يعني أن العقل (ونستغفر الله) يأمر الله أو ينهاه، بل يعني، أن العقل يكتشف تناسب فعل ما مع الصفات الكمالية الالهية، وعدم تناسب فعل آخر معها. وعلى هذا الأساس يرى إستحالة صدور الأفعال القبيحة من الله.

ومن الواضح أن الدراسة التفصيلية لهذا الموضوع، والجواب عن الشبهات التي دفعت الأشاعرة لإنكار الحسن والقبح العقليين، وليمثلوا الإتجاه المعارض للعدلية، والبحث في كل ذلك طويل، يعسر التعرض له في هذا الكتاب. وكذلك من الممكن أن تكون في أحاديث المعتزلة بعض النقاط الضعيفة التي يلزم التعرض لها ومناقشتها في محله، ولكن أصل الإعتقاد بالحسن والقبح العقليين يتقبله الشيعة، ويؤمنون به، ويدعمه الكتاب والسنة وتأكيدات الأئمة المعصومين (عليهم السلام).

ولذلك فنحن هنا نوضّح في البداية مفهوم العدل، وبعد ذلك نشير إلى الدليل

العقلي على هذه الصفة التي هي من الصفات الالهية الفعلية، وأخيرا سوف نناقش أهم الشبهات في هذه المسألة ونجيب عنها.

## مفهوم العدل

العدل في اللغة بمعنى السوية، والتسوية وفي العرف العام إستعمل بمعنى رعاية حقوق الآخرين، في مقابل الظلم (الإعتداء على حقوق الآخرين)، وعلى ضوء ذلك عرف العدل بأنه «إعطاء كل ذي حق حقه» إذن فلا بد أن نتصور أولاً موجودا له حق، لتكون رعاية حقه «عدلا» والإعتداء عليه «ظلما»، ولكن أحيانا يوسع مفهوم العدل، ويستعمل بمعنى «وضع الشيء في موضعه أو القيام بكل فعل على وجه حسن» وعلى وفق هذا التعريف، يكون العدل مرادفا للحكمة، والفعل العادل مساويا للفعل الحكيم.

وما يجب علينا التأكيد عليه هنا: هو أن كل عاقل يدرك بأن أي أحد لو إختطف قطعة خبز من طفل يتيم، وبدون مبرر، أو أنه أراق دم إنسان بريء فقد إرتكب ظلما وإقترف عملا قبيحا، وعلى العكس من ذلك، لو أخذ أحد قطعة الخبز المختطفة من يد الغاصب وأعادها إلى الطفل اليتيم، أو أنه عاقب القاتل الجاني، العقوبة التي يستحقها، فإنه قد عمل عملا حسنا وصائبا، ولا يعتمد هذا الحكم بالحسن والقبح بالعدل والظلم، على الأمر والنهي الإلهي، فإن هذا الحكم يحكم به حتى من لايؤمن بوجود الله.

إذن يمكن أن يتصور للعدل مفهومان، خاص وعام **أحدهما:** رعاية حقوق الآخرين، **والثاني:** إصدار الفعل على وجه الحكمة، بحيث تعتبر رعاية حقوق الآخرين من مصاديقه وعلى ضوء ذلك، فلا يلازم العدل، القول بالتسوية بين البشر جميعا، أو بين الأشياء كلها، فليس المعلم العادل من يتخذ موقفا واحدا من جميع طلابه، فيساوي بين الجميع في التأنيب أو التشجيع سواء المجد من طلابه

والكسول، وليس القاضي* العادل هو الذي يقسم المال المتنازع عليه بين المتخاصمين بل إن المعلم العادل هو الذي يشجع كل طالب أو يؤنبه بمقدار ما يستحقه، والقاضي، العادل هو الذي يوصل المال المتنازع فيه إلى صاحبه، وكذلك، فإن مقتضى الحكمة والعدل الإلهي، لا يعني خلق المخلوقات بصورة متساوية، فيخلق ـ مثلا ـ للإنسان القرون، أو الأجنحة أو غيرها، بل إن مقتضى حكمة الخالق أن يخلق العالم بصورة تترتب عليها أكثر ما يمكن تحققه من الخير والكمال، وأن يخلق المخلوقات التي تشكل أجزاءه المترابطة بصورة تتناسب وذلك الهدف النهائي وكذلك مقتضى الحكمة والعدل الإلهي، أن يكلف كل إنسان بمقدار إستعداده وقابليته[1]، وأن يقضي ويحكم فيه على حسب قدرته، وجهده الإختياري(٢)، وأن يجازيه ثوابا أو عقابا يتلاءم وأفعاله[3].

## الدليل على العدل الإلهي

ذكرنا أن العدل الإلهي يعتبر مصداقا من مصاديق الحكمة الإلهية، وفقا لأحد التفاسير، ووفقا لتفسير آخر فإن العدل هو الحكمة الإلهية نفسها. وبطبيعة الحال يكون الدليل لإثبات العدل هو الدليل نفسه الذي يثبت الحكمة الإلهية، وتوضيح ذلك:

علمنا مما سبق أن الله تعالى يمتلك أسمى مراتب القدرة والإختيار، وأنه قادر على أن يفعل أي عمل ممكن الوجود أو لا يفعله، دون أن يخضع لتأثير أية قوة تجبره وتقهره، ولكن الله تعالى لا يفعل كل ما يقدر عليه من أفعال، بل إنما يفعل الذي يريده.

(١) ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ البقرة: ٢٨٦.
(٢) ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ يونس: ٥٤.
(٣) ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يس: ٥٤.

وعلمنا أيضا أن إرادته تعالى ليست عابثة جزافية، بل إنه تعالى لا يريد إلا ما يتناسب وما تقتضيه صفاته الكمالية، وإذا لم تقتض صفاته الكمالية فعلا ما، فلا يصدر منه ذلك الفعل إطلاقا، وبما أن الله تعالى هو الكمال المحض، فإرادته بالأصالة إنما تتعلق بجهة كمال المخلوقات وخيرها، وإذا لزم من وجود مخلوق حدوث بعض الشرور والنقائص في العالم، فإن جهة الشر هذه مقصودة بالتبع، بمعنى أن هذا الشر بما أنه لا ينفك عن الخير الغالب، لذلك تتعلق الإرادة بهذا الشر تبعا لتعلق الإرادة بالخير الغالب أصالة.

إذن فمقتضى الصفات الإلهية الكمالية أن يخلق العالم بصورة يتوفر في مجموعه الكمال الغالب، والخير الممكن الحصول، ومن هنا تثبت صفة الحكمة للّه تعالى.

وعلى هذا الأساس فإن الإرادة الإلهية إنما تعلقت بخلق الإنسان، لأن الإنسان ممكن الوجود في ذاته، وأن وجوده للخير الغالب، ولأكثر الخيرات، ومن المميزات الرئيسة للإنسان، اختياره، وإرادته الحرة، ولا شك بأن التوفر على قوة الإرادة والإختيار يعد من الكمالات الوجودية، حيث يعد الواجد لها أكمل من الفاقد لها، ولكن ما يلازم اختيارية الإنسان، أن يكون قادرا على ممارسة الأفعال الحسنة الخيرة التي توصله إلى كماله النهائي والأبدي، وكذلك يكون قادرا على إرتكاب الأفعال القبيحة والمنكرة، لتتجه به إلى السقوط في حضيض الخسران والشقاء الأبدي وبطبيعة الحال فما تتعلق به الإرادة الإلهية أصالة هو تكامله، ولكن بما أنه يلزم من التكامل الإختياري للإنسان، إمكان السقوط والإنحطاط أيضا، والذي يحصل نتيجة الإنصياع للأهواء النفسية، والنزوات الشيطانية، لذلك تتعلق الإرادة الإلهية بالتبع بهذا السقوط الإختياري.

وبما أن الإختيار الواعي الشعوري محتاج إلى المعرفة الصحيحة السليمة لطرق الخير والشر، لذلك أمر الله تعالى الإنسان بكل ما فيه خيره ومصلحته ونهاه عن

كل ما يؤدي إلى الفساد والإنحراف والإنحطاط، وبذلك وفر تعالى مستلزمات الحركة التكاملية. وبما أن التكاليف الإلهية إنما وضعت وشرعت لهدف توصل الإنسان إلى نتائج العمل بهذه التكاليف الإلهية دون أن يصل منها أي نفع وفائدة للّه تعالى ذاته، ومن هنا إقتضت الحكمة الإلهية أن تكون هذه التكاليف متلائمة ومتناسبة مع قدرات المكلفين، وذلك لأن التكليف الذي لا يقدر على إمتثاله، لغو لا فائدة فيه.

إذن فالمرحلة الأولى للعدل (بالمعنى الخاص) أي العدالة في مجال التكليف، تثبت بهذا الدليل وهو: أن الله لو كلف العبد بما لا يطيقه ولا يقدر عليه فإن هذا التكليف لا يمكن إمتثاله، ويكون عملا لا فائدة فيه. وأما العدالة في مجال الحكم والقضاء بين العباد، فإنها تثبت مع الإلتفات لهذه الملاحظة: بأن الحكم والقضاء إنما يتم لأجل تعيين إستحقاق الأفراد لأنواع الثواب والعقاب، وإذا تم على خلاف القسط والعدل، فسوف يلزم منه نقض الغرض.

وأخيرا العدالة في مجال تنفيذ المجازاة ثوابا وعقابا، فإنها تثبت بملاحظة الهدف النهائي للخلق، لأن من خلق الإنسان بهدف التوصل لنتائج أفعاله الحسنة أو القبيحة لو أثابه أو عاقبه على خلاف ما تقتضيه هذه الأفعال، فإنه لن يصل إلى هدفه.

إذن فالدليل على العدل بمعانيه الصحيحة، وفي جميع مظاهره هو: أن صفات الله الذاتية، تقتضي أن تكون أفعاله تعالى حكيمة وعادلة، ولا توجد في الله تعالى أية صفة تقتضي الظلم والجور، أو اللغو والعبث.

## شبهات وحلول

**١ ـ كيف تتلاءم الفروق والإختلافات الموجودة في المخلوقات وخاصة البشر، مع العدل والحكمة الإلهية؟ ولماذا لم يخلق الله الحكيم العادل**

**المخلوقات جميعا بصورة متساوية؟**

**والرد لهذه الشبهة:** أن اختلاف المخلوقات في المعطيات الوجودية، أمر لازم لنظام الخلق، وخاضع لقوانين العلية والمعلولية الحاكمة على ذلك النظام، وإفتراض تساويها هو إفتراض ساذج، ولو تأملنا جيدا في ذلك لأدركنا أن هذا الإفتراض يعني ترك الخلق! ذلك لأنه لو كان أفراد البشر رجالا، أو نساء لما تحقق التوالد والتناسل أبدا، ولا نقرض النوع الإنساني، ولو كانت المخلوقات جميعا من نوع الإنسان لما وجدت شيئا للغذاء، أو ما يوفر لها سائر متطلباتها وحاجاتها، وكذلك لو كانت جميع الحيوانات والنباتات نوعا واحدا، وبلون واحد، ولها صفات وخصائص واحدة، لما وجدت كل هذه الفوائد والمعطيات التي لا تحصى، والمناظر الخلابة الجميلة، وظهور هذا النوع أو ذاك، من الظواهر، بهذا الشكل أو ذاك، وهذه الصفات أو تلك، خاضع للعوامل والظروف والشروط المتوفرة في مسيرة حركة المادة وتبدلها، وليس لأحد حق قبل خلقه على الخالق، يفرض عليه تعالى طريقة خلقه بأن يخلقه بهذه الصورة أو تلك، وفي هذا المكان أو ذاك، أو في هذا الزمان أو ذاك، ليكون هناك مجال للعدل والظلم.

**٢ - إذا كانت الحكمة الإلهية مقتضية لحياة الإنسان في هذا العالم، إذن لماذا بعد ذلك يميته وينهي حياته؟**

**والرد لهذه الشبهة: أولا:** إن حياة الموجودات أو موتها في هذا العالم خاضع أيضا للقوانين التكوينية، والعلاقات العلية والمعلولية، وهي لازمة لنظام الخلق.

**ثانياً:** إذا لم تمت الموجودات الحية، فسوف لن تتوفر الأرضية لوجود الموجودات اللاحقة وبذلك يحرم القادمون والأجيال اللاحقة من نعمة الوجود والحياة.

**ثالثاً:** إذا إفترضنا إستمرارية الحياة للبشر جميعا فسوف لن يمضي زمان طويل إلا ونرى الأرض كلها قد امتلأت بالناس، وتضيق عليهم الأرض برحبها، ليتمنى كل واحد منهم الموت لما يشعر به من متاعب وألم وجوع.

**رابعاً:** إن الهدف الأصلي من خلق الإنسان، هو الوصول إلى السعادة الأبدية، وإذا لم ينتقل الناس من هذا العالم بالموت إلى الحياة الأخرى، فسوف لن يمكنهم الوصول لذلك الهدف النهائي.

**٣ ـ إن وجود كل هذه المصائب والأمراض والكوارث الطبيعية (كالسيل والزلزلة) والمتاعب الإجتماعية (كالحروب وألوان الظلم المختلفة) كيف يتلاءم هذا كله مع العدل الإلهي؟**

**والجواب: أولاً:** إن الحوادث الطبيعية المؤلمة ملازمة لأفعال العوامل المادية وإنفعالاتها وتصادمها والتزاحم بينها، وبما أن خيرات هذه العوامل أكثر من شرورها، لذلك لا تكون مخالفة للحكمة. وكذلك ظهور المتاعب والمفاسد الإجتماعية مما تقتضيها إختيارية الإنسان، هذه الإختيارية التي تقتضيها الحكمة الإلهية. ولكن الملاحظ أن فوائد الحياة الإجتماعية وإيجابياتها أكثر من مفاسدها، ولو كانت المفاسد هي الأكثر لما بقي إنسان على وجه الأرض.

**ثانيا:** ان وجود هذه المتاعب والكوارث والمصائب، تدفع الإنسان ـ من جهة ـ إلى البحث عن معرفة أسرار الطبيعة والكشف عنها، وبذلك تظهر الثقافات والكشوفات والصناعات المختلفة ومن جهة أخرى، فإن خوض هذه المتاعب ومواجهتها وعلاجها، له دور كبير في تنمية الطاقات والإستعدادات ورشدها وتفجيرها، وفي تكامل الإنسان ورقية وتقدمه.

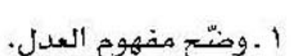
**وأخيرا:** فإن تحمل أية مصيبة أو ألم، والصبر عليه، إذا كان لتحمله ما يبرره من مبررات صحيحة ومشروعة، سوف يكون له الثواب الجزيل في العالم الأبدي، وسوف لا يذهب هدرا، بل يتم جبرانه بصورة أفضل.

**٤ ـ كيف يتلاءم العذاب الابدي للذنوب المحدودة والمؤقتة، التي يرتكبها المذنبون في هذا العالم، مع العدل الإلهي؟**

الجواب: هناك علاقة علية بين الأعمال الحسنة والقبيحة وبين الثواب والعقاب

الاخرويين، قد كشف عنها الوحي الإلهي، ونبه الناس عليها، وكما أننا نلاحظ في عالم الدنيا، أن هناك بعض الجرائم، تعقبها آثار سيئة تمتد إلى مدة طويلة، رغم قصر مدة الجريمة، فمثلا لو فقأ الإنسان عينه هو، أو عيون الآخرين فأعماها، فإن هذا الفعل يتم في مدة قصيرة جدا، ولكن نتيجته ـ وهي العمى ـ تمتد إلى نهاية العمر، وكذلك الذنوب الكبيرة لها آثارها الأخروية الأبدية، وإذا لم يوفر الإنسان في هذه الدنيا مستلزمات جبرانها، (كالتوبة مثلا) فإنه سوف يعيش آثارها السيئة وإلى الأبد فكما أن بقاء عمى الإنسان إلى نهاية العمر بجريمة لم تستغرق إلا لحظة واحدة لا ينافي العدل الإلهي، فكذلك الابتلاء بالعذاب الأبدي نتيجة لإرتكاب الذنوب الكبيرة لا ينافي العدل الإلهي، وذلك لأنه نتيجة الذنب الذي ارتكبه المذنب عن سابق وعي وإصرار.





## الأسئلة

١ ـ وضّح مفهوم العدل.

٢ ـ هل أن مقتضي العدل تساوي الموجودات جميعا واتحادها؟

٣ ـ ما هو الدليل على العدل الإلهي؟

٤ ـ لماذا يميت الله الحكيم مخلوقاته؟

٥ ـ كيف تستوجب الذنوب المؤقتة المحدودة عذابا غير مؤقت ولا محدود؟



## ٢ الفصل الثاني

# النبوة والإمامة

## الدرس الخامس عشر

# حاجة البشر إلى الوحي والنبوة

### ضرورة بعثة الأنبياء

المسائل الأساس في مبحث النبوة هي: ضرورة بعثة الأنبياء وضرورة صيانة الوحي من أي تلاعب وتشويه وتحريف، عمداً أو سهواً، حتى وصول محتوياته للناس، وبتعبير آخر: وجوب عصمة الأنبياء في تلقي الرسالة الإلهية وإبلاغها، وكذلك وجود طريق تثبت به للآخرين نبوة الأنبياء.

وضرورة بعثة الأنبياء هي من أهم المسائل الأساس لفصل النبوة، ويمكن إثباتها ببرهان مؤلف من ثلاث مقدمات:

١ ـ إن الهدف من خلق الإنسان هو: السير في طريق تكامله من خلال ممارسة الافعال الاختيارية من أجل التوصل إلى كماله النهائي، هذا الكمال الذي لا يتوصل اليه إلا باختياره وإنتخابه.

وبتعبير آخر، إنما خلق الإنسان ليكون ـ بعبادته وإطاعته لله تعالى ـ مستحقا وأهلا للحصول على الرحمة التي يختص بها الأفراد المتكاملون، والإرادة الإلهية الحكيمة انما تعلقت ـ أصالة ـ بكمال الإنسان وسعادته، ولكن بما أن هذا الكمال والسعادة السامية لا يمكن الوصول اليها إلا عن طريق ممارسة الأفعال الإختيارية،

لذلك جعل مسار الحياة البشرية على مفترق طريقين وإتجاهين، لتتوفر بذلك أجواء الإختيار والإنتخاب.

وبالطبع، فان أحد الطريقين يؤدي نحو الشقاء والعذاب، لتتعلق به الإرادة الالهية بالتبع لا بالأصالة.

وقد اتضحت هذه المقدمة عند البحث في الحكمة والعدل الإلهي.

٢ ـ إن الإختيار الواعي والشعوري ـ اضافة إلى إحتياجه للقدرة على ممارسة العمل، وتوفر الظروف والأجواء الخارجية لممارسة الأعمال المختلفة، ووجود الميل والدافع الداخلي لها ـ يحتاج أيضا إلى المعرفة الصحيحة حول الأعمال الحسنة والأعمال القبيحة، والطرق الصالحة وغير الصالحة، وإنما يتمكن الإنسان من إختيار طريق تكامله ـ بكل حرية ووعي ـ فيما لو كان يعرف الهدف، وطريق الوصول اليه، وكان عارفا بكل العقبات والعراقيل والإنحرافات والمزالق.

اذن، فمقتضى الحكمة الإلهية أن توفر للبشر الوسائل والمستلزمات الضرورية للحصول على مثل هذه المعارف والمدركات، والإ فسيكون حاله كذلك الشخص الذي يدعو ضيفا إلى داره، ثم لا يدله على موضعه، ولا على الطريق المودي اليه! ومن البديهي أن مثل هذا العمل مخالف للحكمة، وموجب لنقض الغرض.

وهذه المقدمة واضحة، لا تحتاج إلى توضيح وتوسع أكثر.

٣ ـ إن معارف ومدركات البشر العادية والمتعارفة، التي يحصل عليها نتيجة التعاون بين الحس والعقل، وإن كان لها دورها الفاعل في توفير ما يحتاج اليه في حياته، ولكنها لا تكفي في التعرف على طريق الكمال والسعادة الحقيقية، في جميع المجالات الفردية والإجتماعية والمادية والمعنوية والدنيوية والأخروية، وإذا لم يوجد طريق آخر لسد النقائص والفجوات فلن يتحقق الهدف الإلهي من خلق الإنسان.

وبملاحظة هذه المقدمات الثلاث نتوصل إلى نتيجة مفادها: أن الحكمة الالهية تقتضي وضع طريق آخر للبشر - غير الحس والعقل - من أجل التعرف على طريق الكمال في كل المجالات، حتى يستطيع البشر الإستفادة منه (مباشرة أو بواسطة فرد أو أفراد آخرين).

وهذا الطريق هو الوحي[1] الذي وضعه الله للأنبياء، ليستفيدوا هم منه بصورة مباشرة، وليستفيد منه الآخرون عن طريق الأنبياء، وليتعلموا منه كل ما يحتاجون اليه، من أجل الوصول إلى السعادة والكمال النهائي. ومن بين هذه المقدمات، ربما يحصل التردد والتشكيك في المقدمة الاخيرة، ومن هنا يلزم علينا توضيحها والتوسع فيها أكثر، ليتوضح لنا - تماماً - قصور المعرفة البشرية عن تحديد مسير التكامل الشامل للإنسان، واحتياجه لطريق الوحي.

## قصور المعرفة البشرية

من أجل معرفة الطريق الصحيح للحياة في كل أبعادها وجوانبها، لا بد من التعرف على مبدأ وجود الإنسان ومصيره، وعلاقاته بسائر الموجودات، والروابط التي يمكن له إقامتها وعقدها مع بني نوعه وسائر المخلوقات، وتأثير هذه الروابط والعلاقات المختلفة في سعادته وشقائه، وكذلك عليه أن يحدد نسب المنافع والمضار، ودرجات المصالح والمفاسد المختلفة ومقاديرها، والموازنة بينها، لتتحدد بذلك وظائف هذا العدد الكبير من البشر، والذي يتميز بخصائص بدنية ونفسية متفاوته ومتغايرة، وكل منهم يعيش ظروفا طبيعية وإجتماعية مختلفة، ولكن الإحاطة بكل هذه الأمور لا تتيسر، ليس لفرد أو لجماعة معينة فحسب، بل للآلاف

---

(١) وهذا البرهان من مواضع إستنتاج القضية العملية (ينبغي من القضية النظرية (يوجد)، وكذلك من مصاديق إثبات الضرورة بالقياس للمعلول عن طريق ضرورة العلة، وكذلك من مواضع إجراء البراهين اللمية في الالهيات.

من الجماعات المتخصصة، في مختلف العلوم المرتبطة بالإنسان. لا يمكنهم إكتشاف مثل هذه المعايير والقواعد المعقدة وبيانها على شكل قوانين وأحكام دقيقة ومضبوطة ومحددة، لتكفل بذلك توفير كل المصالح الفردية والإجتماعية، المادية والمعنوية، الدنيوية والأخروية، لكل البشر وحينما يقع التزاحم والتضاد والتعارض بين أنواع المصالح والمفاسد - وكثيراً ما يحصل ذلك - يعين المصلحة الاهم بدقة، ويقدمها في المجال العملي.

إن ما يلاحظ من مسيرة التغييرات الحقوقية والقانونية عبر تاريخ البشر مؤشر على أنه لم يوجد حتى اليوم - بالرغم من كل البحوث والجهود التي بذلها الكثير من العلماء المتخصصين عبر آلاف السنين - نظام حقوقي وقانوني صحيح وكامل وشامل والملاحظ - أيضاً - أن المقننين والمؤسسات الحقوقية والقانونية في العالم، تتوصل - دائماً - إلى نقاط الضعف في القوانين الوضعية، ولذلك يحاولون إصلاحها أو تكميلها، بإلقاء مادة أو نسخها، أو إضافة مادة لها أو إلحاق ملاحظة بها.

ويجب علينا أن لا نغفل عن انهم إستفادوا كثيرا - في تقنين هذه القوانين وتدوينها - من الإنظمة الحقوقية والقانونية الإلهية، والشرائع السماوية، وكذلك ينبغي أن نعلم بأن جهود المقننين والحقوقيين متوجهة لتوفير المصالح الدنيوية والإجتماعية، دون الاهتمام بتوفير المصالح الأخروية وملاحظة مدى علاقتها بالمصالح الدنيوية والمادية، وإذا ما أرادوا الإهتمام بهذا الجانب - الذي يعتبر أكثر الجوانب أهمية في هذا المجال - فانهم لن يتمكنوا من الوصول إلى نتائج يقينية قاطعة، وذلك لأن المصالح المادية والدنيوية يمكن التعرف عليها - إلى حد ما - وتحديدها، من خلال التجارب العملية. أما المصالح المعنوية والأخروية فإنها لا تقبل التجربة الحسية، ولا يمكن تقويمها بدقة، وحين تتزاحم وتتعارض مع المصالح المادية والدنيوية فلا يمكن التعرف على معيار لقياس أهمية إحداهما.

ومن خلال ملاحظة الحالة الراهنة التي تعيشها القوانين البشرية، يمكن لنا تقويم العلم البشري عبر آلاف أو مئات الآلاف من السنين لنتوصل لهذه النتيجة اليقينية: إن الإنسان البدائي أكثر عجزا من إنسان عصرنا في تحديد الطريق الصحيح للحياة، وعلى تقدير وصول إنسان عصرنا إلى نظام حقوقي قانوني صحيح، وكامل، وشامل، من خلال تجارب آلاف السنين وعلى تقدير القول بأن هذا النظام يتكفل توفير السعادة الأبدية والأخروية، فان هذا السؤال يبقى ملحا: كيف يتلائم اهمال الأجيال الكثيرة التي عاشت عبر التاريخ الطويل في ظلم جهلها مع الحكمة الإلهية والهدف من خلقهم؟

**والحاصل:**

إن الهدف من خلق الإنسان، من البداية حتى النهاية، إنما يقبل التحقق في أرض الواقع، فيما لو وجد طريق آخر ـ غير الحس والعقل ـ لمعرفة حقائق الحياة، والوظائف الفردية والإجتماعية، وليس هذا الطريق إلا الوحي. وقد اتضح مما ذكرنا ـ أيضا ـ أن مقتضى هذا البرهان، أن يكون الإنسان الأول نبياً، ليتعرف على الطريق الصحيح للحياة عن طريق الوحي، وليتحقق فيه الهدف من الخلق، وليهتدي به الآخرون.

## فوائد بعثة الأنبياء

للأنبياء الإلهيين ـ إضافة إلى تعريف البشر وهدايتهم إلى طريق الصحيح للتكامل الحقيقي للإنسان، وتلقي الوحي وإبلاغه للناس ـ فوائد وتأثيرات مهمة أخرى في مجال تكامل البشر، وأهمها ما يلي:

١ ـ إن هناك الكثير من المعلومات، التي يمكن للعقل الإنساني إدراكها، ولكن ربما يغفل عنها، إما لإحتياجها لزمان طويل، وتجارب كثيرة، وإما نتيجة إهتمام

الأفراد وإنهماكهم في الأمور المادية، وسيطرة الميول الحيوانية عليهم. أو ربما تغيب عن الناس نتيجة للتربية المنحرفة، أو الإعلام السيئ أن مثل هذه المعلومات يبينها الأنبياء للناس، ليمنعوا من نسيانها تماما، من خلال تذكيرهم وتأكيدهم الدائم عليها، وليواجهوا المغالطات والتعليمات السيئة بتعليماتهم الصحيحة والمنطقية.

ومن هنا يعرف السبب في إطلاق صفتي (المذكر والنذير) على الأنبياء، وإطلاق أسماء (الذكر، والذكرى، والتذكرة) على القرآن الكريم. يقول الإمام أمير المؤمنين (ع) حين يستعرض الفوائد والحكم من بعثة الأنبياء:

(ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ).

٢ . من أهم العوامل التي لها تأثيرها الفاعل في التربية، وفي رشد الإنسان وتكامله، وجود القدوة في العمل. وقد أثبتت أهمية ذلك في بحوث علم النفس، والأنبياء الإلهيون الذين يمثلون الإنسان الكامل، والذين نشأوا في ظلال التربية الإلهية، يقومون بذلك خير قيام أنهم . بالإضافة إلى التعليمات والمعلومات التي يزودون بها البشرية . يقومون بمهمة تربية الناس وتزكيتهم، ونحن نعلم أن القرآن الكريم قد قرن بين التعليم والتزكية في الذكر، وحتى أنه في بعض الآيات قدم (التزكية) على (التعليم).

٣ . ومن معطيات وفوائد وجود الأنبياء بين الناس، تولي القيادة في المجالات الإجتماعية والسياسية والقضائية، حينما تتوفر الظروف اللازمة لذلك، وبديهي أن القائد المعصوم من أعظم النعم الإلهية للمجتمع، حيث تعالج بواسطته الكثير من المعضلات والإضطرابات الإجتماعية. ويتم انقاذ الامة من الإختلاف والتنازع والفوضى والإنحراف، ليقودها بإتجاه كمالها المنشود.



## الأسئلة



١ ـ ما هو الهدف من خلق الإنسان؟

٢ ـ لماذا لا يكفي العقل البشري في توفير كل المعارف اللازمة؟

٣ ـ بيّن الدليل على ضرورة بعثة الأنبياء.

٤ ـ إذا كان يمكن للإنسان التعرف على طريق سعادته الدنيوية والاخروية من خلال الإستفادة من تجاربه الطويلة، أفلا يحتاج للوحي بعد ذلك؟ لماذا؟

٥ ـ هل يمكن إقامة الدليل العقلي على نبوة الإنسان الأول؟ وكيف؟

الدرس السادس عشر

# عصمة الأنبياء

## ضرورة صيانة الوحي

بعد أن أثبتنا ضرورة الوحي كطريق أساسي يتوصل من خلاله إلى مدركات ومعلومات لازمة تسد بها نقائص الحس والعقل الإنساني، تبرز مسألة أخرى.

فمع ملاحظة أن الأفراد العاديين لا يمكنهم الإستفادة من وسيلة المعرفة هذه، بصورة مباشرة، ولا يملكون الإستعداد لتلقي الوحي الإلهي[1]، لذلك كان من الضروري إبلاغهم الرسالة الإلهية بواسطة أفراد معينين (الأنبياء)، ولكن ما هو الضامن لصحة هذه الرسالة؟ وكيف نطمئن إلى أن النبي قد تلقى الوحي الإلهي بصورة صحيحة، وأنه أبلغه للناس بصورة صحيحة؟ وإذا كان هناك واسطة بين الله والنبي فكيف نطمئن إلى أنها أبلغت الرسالة للنبي بصورة صحيحة؟ ذلك لأن الوحي إنما يكون مؤثرا في سد نقائص المعرفة البشرية فيما لو كان مصونا - من مرحلة الصدور إلى مرحلة الوصول للناس - من أي تحريف أو تلاعب أو تشويه، عمدا أو سهوا، وإلا فإنه مع احتمال السهو والنسيان في الواسطة أو الوسائط، أو تلاعبهم العمدي في محتواه، ستثار في أذهان الناس إحتمالات الخطأ والتشويه في

(١) يقول القرآن الكريم في ذلك: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاء ﴾ آل عمران: ١٧٩.

الرسالة الواصلة إليهم، وتؤدي هذه الحالة إلى تزعزع الثقة بها، والإعتماد عليها. إذن فمن أي طريق يمكن الإطمئنان بوصول الوحي الإلهي للناس بصورة صحيحة وسليمة ومن البديهي أنه عندما تكون حقيقة الوحي مجهولة للناس، ولا يتوفر فيهم الإستعداد لتلقيه ومعرفته. فلا يكون هناك اي طريق للمراقبة والإشراف على الوسائط ليتعرف على مدى صدقهم. أجل. في صورة واحدة يمكن التعرف على وجود إختلال أو خطأ في الوحي، وذلك فيما إذا كان محتوى الرسالة مخالفا لأحكام العقل اليقينية، كما لو ادعى أحد بأنه اوحي له من الله بأن اجتماع النقيضين جائز، أو واجب، أو (والعياذ بالله) أن ذات الله معرضة للتركيب أو التعدد، أو الزوال، فيمكن في هذه الحالة أن نثبت كذب هذا الادعاء بالإستعانة بحكم العقل اليقيني ببطلانه. ولكن الحاجة الرئيسية للوحي، تتمثل في المسائل التي لا طريق للعقل في الوصول لإثباتها أو نفيها، والتي لا يمكنه - من خلال تقويمه لمحتوى الرسالة - تحديد مدى صحتها وخطأها. إذن، فمن أي طريق يمكن ان نثبت - في مثل هذه المجالات - صحة محتوى الوحي، وصيانته من التشويه والتلاعب والتحريف العمدي أو السهوي للوسائط؟

الجواب: إنه كما أن العقل، مع ملاحظته للحكمة الإلهية يدرك ضرورة وجود طريق آخر، لمعرفة الحقائق والوظائف العملية وإن لم يتعرف على كنه هذا الطريق وحقيقته، فانه يدرك - أيضا - أن الحكمة الإلهية تقتضي وصول هذه الرسالة للناس بصورة سليمة وصحيحة، دون أن تتعرض لأي تلاعب وتشويه، والا لزم نقض الغرض.

وبتعبير آخر: بعد أن علم أن الرسالات الإلهية، لا بد أن تصل إلى الناس من خلال واسطة أو وسائط، حتى تتوفر الظروف والاجواء الملائمة للتكامل الإختياري للناس، وليتحقق بذلك الهدف الإلهي من خلق البشر، فإنه - بملاحظة الصفات الكمالية الإلهية - يثبت أن هذه الرسالة يلزم أن تكون مصونة من التشويه والتلاعب العمدي والسهوي، ذلك: لأن الله تعالى لو (لم يرد) وصول الرسالات

بصورة صحيحة إلى عباده لكان هذا مخالفا للحكمة، والإرادة الإلهية الحكيمة تنفي ذلك، وإذا كان الله (لا يعلم) عن أي طريق أو أي شخص يبلغ رسالته، لتصل سليمة إلى عباده فهذا ينافي علم الله اللامتناهي، واذا (لم يقدر) على اختيار وسائط صالحة لحفظها وصونها من شرور الشياطين. فإن هذه الحالة لا تتلاءم وقدرته اللامحدودة.

إذن فمع ملاحظة أن الله عالم بكل شيء لا يمكن أن نحتمل عدم علمه بخطأ الواسطة التي يختارها[١]، ومع ملاحظة القدرة الإلهية غير المحدودة لا يمكن أن نحتمل عدم قدرته على صيانة وحيه من تلاعب الشياطين، وتأثير عوامل السهو والنسيان فيه[٢]، ومع ملاحظة الحكمة الإلهية، لا يمكن أن نتقبل أنه لا يريد حفظ رسالته من الخطأ[٣]، اذن فالعلم والقدرة والحكمة الإلهية كلها تقتضي وصول رسالته بصورة سليمة وصحيحة إلى عباده.

ومن هنا تثبت صيانة الوحي بالبرهان العقلي، وبذلك - أيضا - تثبت صيانة ملك أو ملائكة الوحي والأنبياء في مجال تلقي الوحي، وكذلك تثبت عصمتهم من الخيانة العمدية، أو من السهو والنسيان، في مجال إبلاغ الرسالة الإلهية. ومن هنا يتضح لنا السبب في تأكيدات القرآن الكريم على أمانة ملك الوحي، وقدرته على حفظ الأمانة الإلهية، ودفع تأثيرات الشياطين، وأمانة الأنبياء وبصورة عامة يتضح صيانة الوحي والحفاظ عليه حتى وصوله للناس[٤].

### سائر مجالات العصمة

إن العصمة التي أثبتناها بالبرهان السابق للملائكة والأنبياء عليهم السلام،

---

(١) يقول القرآن الكريم في ذلك: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه﴾ الأنعام: ١٢٤.

(٢) يقول القرآن المجيد في ذلك ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ، لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ الجن: ٢٦ - ٢٨.

(٣) ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ الأنفال: ٤٢.

(٤) ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ التكوير: ٢١. ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ الأعراف: ٦٨.

مختصة بمجال تلقي الوحي وإبلاغه، وهناك مجالات أخرى للعصمة لا تثبت بهذا البرهان ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

أحدها: مرتبط بعصمة الملائكة.

وثانيها: مرتبط بعصمة الأنبياء.

وثالثها: مرتبط بعصمة بعض الأفراد أمثال الأئمة المعصومين عليهم السلام، ومريم وفاطمة الزهراء (سلام الله عليهما).

ففي مجال عصمة الملائكة: يمكن البحث في مسألتين غير تلقي الوحي وإبلاغه:

إحداهما: عصمة ملائكة الوحي فيما لا يتعلق بتلقي الوحي وإيصاله.

وثانيتهما: عصمة سائر الملائكة الذين لا علاقة لهم بالوحي، أمثال الموكلين بالرزق وكتابة الأعمال أو قبض الأرواح وغيرها . وكذلك حول عصمة الأنبياء فيما لا يتعلق برسالتهم، يمكن البحث في مسألتين:

إحداهما: عصمة الأنبياء من الذنب والمعصية تعمداً.

والأخرى: عصمتهم عن السهو والنسيان.

وهاتان المسألتان يمكن البحث فيهما بالنسبة لغير الأنبياء أيضاً.

أما المسائل المتعلقة بعصمة الملائكة في غير مجال تلقي الوحي وإبلاغه، إنما يمكن معالجتها بالبرهان العقلي فيما لو تعرفنا على حقيقة الملائكة، ولكن البحث عن حقيقتها ـ كما أنه ليس يسيراً ـ فهو غير مناسب لبحوث هذا الفصل، ومن هنا نكتفي بذكر آيتين تدلان على عصمة الملائكة، وهما الآية (٢٧) من سورة الأنبياء: **﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾**. والآية (٦) من سورة التحريم: **﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾**.

وهاتان الآيتان تدلان بصراحة على أن الملائكة عباد مكرمون، لا يعلمون إلا بالأمر الإلهي، ولا يعصون أمره، وإن بقي التساؤل حول تعميم الآيات لجميع الملائكة.

وأما البحث في عصمة بعض الأفراد (غير الأنبياء) فإنه يناسب بحث الإمامة،

ولذلك فنبحث هنا في خصوص المسائل المتعلقة بعصمة الأنبياء، وإن كانت بعض هذه المسائل لا يمكن معالجتها إلا بالأدلة النقلية والتعبدية، ولذلك لا بد من دراستها بعد إثبات حجية الكتاب والسنة، ولكن لأجل مراعاة التناسب بين موضوعات المسائل نبحثها في هذا الفصل، ونتقبل حجية الكتاب والسنة كأصل موضوعي نوكل مهمة البحث في اثباته إلى موضعه.

## عصمة الأنبياء

هناك خلاف بين الفرق الإسلامية حول مدى تنزيه الأنبياء عن إرتكاب المعاصي والذنوب. فالشيعة الإمامية يعتقدون بأن الأنبياء معصومون من جميع المعاصي، صغيرها وكبيرها، من حين الولادة حتى الوفاة، فلا تصدر منهم المعصية حتى سهوا ونسيانا، ولكن هناك فرقا أخرى، تذهب إلى عصمة الأنبياء من الكبائر فحسب، وبعضهم من حين البلوغ، وبعضهم من حين النبوة. ونقل عن بعض الفرق من أهل السنة (وهم الحشوية وبعض أهل الحديث) أنهم ينكرون عصمة الأنبياء تماما، ويذهبون إلى إمكان صدور المعصية منهم عمدا حتى في فترة نبوتهم.

وقبل البحث في إثبات عصمة الأنبياء عليه السلام تلزمنا الاشارة إلى بعض الملاحظات:

الأولى: لا نعني بعصمة الأنبياء أو غيرهم، عدم إرتكاب المعصية فحسب، إذ من الممكن أن لا يرتكب الفرد العادي معصية خلال عمره كله، وخاصة لو كان عمره قصيرا، بل نعني به توفره على ملكة نفسانية قوية، تمنعه من إرتكاب المعصية حتى في أشد الظروف، وهي ملكة تحصل من وعيه التام والدائم بقبح المعصية، وإرادة قوية على ضبط الميول النفسية. وبما أن هذه الملكة لا تتحقق إلا بعناية إلهية خاصة، لذلك تنسب فاعليتها إلى الله تعالى، وإلا فان الله لا يمنع

الإنسان المعصوم عن إقتراف المعصية جبرا، ولا يسلب منه الإختيار، وقد نسبت لله عصمة بعض الأفراد الذين يمتلكون مناصب إلهية كالنبوة والإمامة بمعنى آخر وهو ضمانه ـ عز وجل ـ صيانتهم.

والثانية: إنه يلزم من عصمة الشخص ترك الأعمال المحرمة عليه، كالمعاصي المحرمة في كل الشرائع، والأعمال التي يحرم إرتكابها في الشريعة التي ينتمي إليها، إذن فلا تنافي عصمة نبي ممارسة العمل الجائز في شريعته لشخصه خاصة، وإن كان محرما في الشريعة السابقة عليه، أو سيكون محرما بعد ذلك.

الثالثة: المراد من المعصية، التي ينزه المعصوم عن إرتكابها هي: العمل الذي يطلق عليه مصطلح (الحرام) في الفقه، أو ترك العمل الذي يطلق عليه (الواجب) في الفقه. وأما لفظة المعصية وما يرادفها أمثال الذنب، فإنها تستعمل فيما هو أوسع من ذلك بما يشمل (ترك الأولى) وممارسة مثل هذه الذنوب لا تنافي العصمة.



## الأسئلة



١ ـ كيف يمكن إثبات صيانة الوحي من أي خلل أو تشويه؟

٢ ـ ما هي مجالات العصمة الأخرى غير مجال صون النبي في تلقي الوحي وإبلاغه؟

٣ ـ من أي طريق يمكن إثبات عصمة الملائكة؟

٤ ـ ما هي الآراء حول عصمة الأنبياء عليهم السلام؟ وما هو رأي الشيعة الإمامية في هذا المجال؟

٥ ـ عرف العصمة، واذكر لوازمها.

## الدرس السابع عشر

# الأدلة على عصمة الأنبياء

### المقدمة

الإعتقاد بعصمة الأنبياء من الذنوب والمعاصي العمدية والسهوية من المعتقدات القطعية والمعروفة عند الشيعة.

ويمكن تقسيم الأدلة التي ذكرت لعصمة الأنبياء عليهم السلام إلى مجموعتين: - إحداهما: الأدلة العقلية، والثانية: الأدلة النقلية، وإن كان الإعتماد على الأدلة النقلية أكثر ونحن هنا نستعرض دليلين عقليين، ثم نذكر بعض الأدلة القرآنية.

### الأدلة العقلية على عصمة الأنبياء

الدليل العقلي الأول على لزوم عصمة الأنبياء عليهم السلام من إرتكاب المعاصي: إن الهدف الأصلي من بعثهم هو هداية البشر للحقايق والوظائف التي عينها الله للبشر، وفي الواقع أنهم سفراء من الله للبشر، يلزم عليهم هداية الآخرين للطريق المستقيم، فإذا كان هؤلاء السفراء أنفسهم غير ملتزمين بالتعاليم الإلهية، بل يعملون بما يخالف محتويات رسالتهم، وهم انفسهم يخالفون أقوالهم وتعاليمهم فإن الناس سيرون في عملهم هذا بيانا مخالفا لأقوالهم، وبذلك سوف لا يثقون بأقوالهم ايضا، ونتيجة لذلك سوف لا يتحقق الهدف من

بعثتهم بصورة كاملة. إذن فالحكمة واللطف الإلهيان يقتضيان أن يكون الأنبياء معصومين ومنزهين عن المعاصي، بل لا يصدر منهم العمل غير الصالح حتى سهوا ونسيانا، لئلا يحتمل الناس أنهم إتخذوا إدعاء السهو والنسيان مسوغا لإرتكابهم الذنب والمعصية.

الدليل العقلي الثاني على عصمة الأنبياء: إن الأنبياء كما أنهم مكلفون بابلاغ محتوى الوحي والرسالة للناس، وهدايتهم للطريق المستقيم، كذلك هم مكلفون بالقيام بتزكية الناس وتربيتهم وإصلاحهم، وإيصال الأفراد المؤهلين وذوي الإستعداد إلى آخر مرحلة من مراحل الكمال الإنساني، وبتعبير آخر: إن على عاتقهم - إضافة إلى تكفلهم مهمة التعليم والهداية - مهمة التربية والقيادة والتوجيه، تلك التربية الشاملة التي تشمل حتى أكثر الناس إستعداداً وأسماهم درجة، ولا يستحق مثل هذا المقام الإصلاحي الرفيع إلا أولئك الذين بلغوا أسمى درجات الكمال الانساني، ويمتلكون أكثر الملكات النفسية كمالا، وهي ملكة العصمة.

أضف إلى ذلك أن دور سلوك المربي وأفعاله ربما كان أكثر تأثيرا من أقواله في تربية الآخرين وإصلاحهم، ومن وجدت نقائص وعثرات في أفعاله، فإن قوله سوف لا يملك التأثير المنشود، إذن فإنما يتحقق الهدف الإلهي من بعثة الأنبياء بصورة كاملة بما هم مربو المجتمع ومصلحوه، فيما لو كانوا معصومين ومنزهين عن كل إنحراف في أقوالهم وأفعالهم.

## الأدلة النقلية على عصمة الأنبياء

١ - عبّر القرآن الكريم عن بعض الأفراد بـ(المخلَص)[1]، حيث لا يطمع في

(١) لا بد من ان نعلم بان (مخلَص) بفتح اللام غير (مخلِص) بكسرها، فالاول يدل على ان الله جعل الشخص خالصا، ومعنى الثاني أن الشخص يمارس أعماله بإخلاص ونية مخلصة.

إغوائهم حتى الشيطان، ومن هنا أقسم الشيطان على إغواء بني آدم جميعهم وأستثنى المخلصين كما جاء في الآيتين ٨٢ و ٨٣ من سورة ص: ﴿**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾.

ولا شك في أن السبب في يأس الشيطان من إغوائهم إنما هو، ما يملكونه من تنزيه وصيانة من الضلال والآثام، وإلا فإن عداءه شامل حتى لهؤلاء، ولو كان يمكنه إغواؤهم لما تخلى عن إغوائهم وأعرض عنهم . إذن فعنوان (المخلص) مساو لـ(المعصوم)، وأنه ـ وإن لم يوجد دليل على اختصاص هذه الصفة بالأنبياء ـ إلا أنه لا يمكن الشك في شمولها لهم.

وقد اعتبر القرآن الكريم بعض الأنبياء من المخلصين كما جاء الآيتين ٤٥ و ٤٦ من سورة ص: ﴿**وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ، إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ**﴾.

وفي الآية (٥١) من سورة مريم: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا**﴾.

وكذلك اعتبر السبب في تنزه يوسف عليه السلام عن الإنحراف في أشد الظروف هو أنه كان مخلصا كما في الآية (٢٤) من سورة يوسف: ﴿**كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾.

٢ ـ لقد فرض القرآن الكريم على البشر إطاعة الأنبياء بصورة مطلقة كما جاء في الآية (٦٤) من سورة النساء: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ**﴾.

وإنما تصح إطاعتهم المطلقة فيما لو كانت في مسار إطاعة الله وعلى إمتدادها، بحيث لا تكون إطاعتهم منافية لإطاعة الله، وإلا فإن الأمر بالإطاعة المطلقة للّه تعالى، والأمر بالطاعة المطلقة لمن هم معرضون للخطأ والإنحراف سيكونان على طرفي نقيض.

٣ ـ لقد خصص القرآن الكريم المناصب الإلهية لأولئك الذين لم يتلوثوا

بـ(الظلم).

يقول تعالى في جوابه لإبراهيم عليه السلام الذي طلب منصب الإمامة لأبنائه: **﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾**[1].

ونحن نعلم أن كل معصية هي ظلم للنفس على الأقل، وكل عاص ومذنب ظالم في عرف القرآن الكريم، إذن فالأنبياء أصحاب المنصب الإلهي (النبوة والرسالة) لا بد وأن يكونوا منزهين عن كل ظلم ومعصية. ويمكن إستفادة عصمة الأنبياء عليه السلام من آيات أخرى، وروايات كثيرة نعرض عن ذكرها.

## السر في عصمة الأنبياء

السر في عصمة الأنبياء وفي صيانتهم في مجال تلقي الوحي هو: أن إدراك الوحي من قبيل المدركات التى لا تحتمل الخطأ، والشخص المؤهل لتلقيه، يتوفر على حقيقة علمية يدركها حضوريا، ويشاهد إرتباطها بالموحي. سواء كانت هناك واسطة (ملك) أم لم تكن[2] ولا يمكن لمتلقي الوحي أن يشك بأنه هل تلقى الوحي أم لا؟ أو من الذي أوحى إليه؟ أو ما هو محتواه ومفاده؟

وإذا ما وردت بعض القصص والحكايات الموضوعة والمكذوبة التي تدعي أن نبيا شك في نبوته! أو لم يدرك محتوى وحيه! أو لم يعرف الموحي اليه! فهذه أخبار كاذبة، وهذه الأباطيل تشبه أن يقال: أنه شك في وجوده، أو في مدركاته الحضورية والوجدانية!!.

أما السر في عصمة الأنبياء في مجال القيام بالوظائف الإلهية، ومنها إبلاغ رسالة الله للناس، فيحتاج لمقدمة هي:

إن الأفعال البشرية إنما تتم بأن يحصل في أعماق الإنسان ميل لأمر ينشده

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٢) يقول القرآن الكريم في ذلك: **﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾** (النجم: ١١).

ويرغب فيه يثار هذا الميل نتيجة لعوامل ومثيرات مختلفة، ويحدد الإنسان طريق الوصول لهدفه المنشود بمعونة العلوم والمدركات المختلفة، ثم يقدم على العمل المتناسب معه، وإذا وجدت الميول والرغبات المتعارضة والمتزاحمة، فأنه يسعى قدر جهده لتحديد أفضلها وأكثرها قيمة وأهمية، ويختاره عمليا. ولكنه أحياناً ـ ونتيجة لنقص في علمه وقصور في معرفته ـ يكون مخطئا في تقويم الأفضل وتحديده، أو أنه لغفلته عن الأصلح، أو نتيجة لتعوده على الأمر الأسوأ يسيء الإختيار، ولا يبقى لديه مجال للتفكير الصحيح وإختيار الأصلح. إذن فكلما كان الإنسان أكثر معرفة بالحقايق، وكان بالنسبة اليها أكثر وعيا وتوجها، وثباتا وحيوية، وأقوى إرادة على ضبط الميول والإنفعالات الداخلية فإنه سيكون أفضل في حسن اختياره، وسيكون أكثر مناعة من الإنحرافات والعثرات.

ومن هنا فان بعض الأفراد المؤهلين ومن ذوي الإستعدادات العالية الذين توفروا على الثقافة اللازمة والوعي الضروري ونعموا بالتربية الصحيحة، سوف يتوصلون إلى مراحل مختلفة من الكمال والفضيلة، وربما يقتربون من حدود العصمة بل ولا يخطر في أذهانهم مجرد التفكير باقتراف الذنب والعمل السيئ، كما لا يفكر أي عاقل بشرب السم والجرع والعقاقير المميتة أو تناول الأشياء القذرة والعفنة.

إذن، فإذا افترضنا أن فردا بلغ الغاية في إستعداده لإدراك الحقائق، وارتفع صفاء روحه وقلبه إلى أسمى المستويات والدرجات وكما يعبر القرآن ﴿**يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار**﴾، وبسبب هذا الاستعداد القوي والصفاء الذاتي، تتولاه التربية الإلهية، ويؤيد بروح القدس فإن هذا الفرد سوف يطوي مدارج الكمال بسرعة لا توصف، وربما اجتاز في ليلة واحدة طريقا لا يجتاز إلا بمئة سنة، وربما تفوق على الآخرين حتى في مرحلة طفولته، بل حتى وهو جنين، وتظهر لمثل هذا الفرد قبح المعاصي والذنوب، تماما كظهور ضرر السم

ووضوحه وقبح الاشياء العفنة والقذرة للآخرين . وكما أن إجتناب الأفراد العاديين أمثال هذه الأفعال القاتلة أو القذرة ليس جبريا فإن إجتناب المعصوم عن المعاصي لا ينافي إختياره أبدا.



## الأسئلة



١ . أذكر الأدلة العقلية على عصمة الأنبياء.

٢ . ما هي الآيات القرآنية التي تدل على عصمة الأنبياء؟

٣ . ما هو السر في صيانة الأنبياء عن الخطأ في تلقى الوحي؟

٤ . كيف تتلاءم عصمة الأنبياء عن المعاصي مع إختياريتهم؟

٥ . هل لعصمة الأنبياء تأثير في تحقق الهدف الذي أنيط بهم تحقيقه؟

الدرس الثامن عشر

# شبهات وحلول

## حل عدة شبهات

طرحت بعض الشبهات حول عصمة الأنبياء عليه السلام نستعرضها في ما يلي ونجيب عنها:

**الشبهة الأولى:** إذا كان الله تعالى هو الذي قد عصم الأنبياء ونزههم عن إرتكاب المعاصي، حيث يلزم من ذلك أنه ضمن ممارستهم للوظائف والتكاليف فانه في هذه الحالة سوف لا تثبت لهم أية ميزة إختيارية، ولا يستحقون أي ثواب لممارستهم الوظائف والتكاليف، والإجتناب عن المعاصي، لأن الله تعالى لو جعل أي شخص آخر معصوما لكان مثلهم تماما لأنه تعالى هو الذي منحه العصمة ووفرها فيه.

الجواب عن هذه الشبهة: تقدم أن العصمة لا تعني الجبر على القيام بالوظائف والتكاليف وترك المعاصي، وحين نقول إن الله عاصم المعصومين وحافظهم، فلا نعني بذلك نفي إستناد الأفعال الاختيارية اليهم، ذلك لأن كل الظواهر وإن إستندت في نهاية سلسلتها إلى الإرادة التكوينية الإلهية، وفي ذلك المجال الذي توجد فيه عناية وتوفيق خاص من قبل الله، لذلك يتأكد أكثر إسناد العمل للّه ولكن الإرادة الإلهية في طول إرادة الإنسان لا في عرضها، وليست بديلة

عنها وقائمة مقامها.

ولكن هذه العناية الإلهية الخاصة بالنسبة للمعصومين هي كسائر الوسائل والظروف والإمكانات الخاصة التي توفر لبعض الأفراد المعينين، مما يؤدي إلى أن تكون مسؤوليتهم أكبر وأثقل، وكما أن الثواب على عملهم يتضاعف فإن العقاب على المخالفة أشد، وبهذا الشكل يتم التوازن بين الثواب والعقاب، وإن كان المعصوم لحسن إختياره لا يكون مستحقا للعقاب، ويلاحظ مثل هذا التوازن في حالة كل الذين يتمتعون بنعمة خاصة، كما هو الحال بالنسبة للعلماء والمنتسبين لأهل البيت عليه السلام[1] فأن مسؤوليتهم أثقل وأكثر خطورة من غيرهم، وكما أن الثواب على اعمالهم الخيرة أكثر، فكذلك العقاب على ذنوبهم ـ على تقدير إرتكابها ـ أشد[2].

**الشبهة الثانية:** إن الأنبياء وسائر المعصومين عليه السلام يعتبرون أنفسهم من المذنبين، كما ينقل عن أدعيتهم ومناجاتهم، وينقل ـ أيضا ـ إستغفارهم من الذنوب، ومع صدور مثل هذا الإعتراف والإقرار منهم، فكيف نعدهم معصومين؟

والجواب: إن المعصومين عليهم السلام قد إرتفعوا إلى أسمى درجات الكمال والقرب الإلهي ـ مع ملاحظة اختلاف مراتبهم ـ لذلك يشعرون بأنهم مكلفون بوظائف ومهام تفوق وظائف الآخرين، بل إنهم يعتبرون أي توجه وإلتفات منهم لغير معبودهم ومحبوبهم ذنبا كبيرا، ومن هنا يقفون موقف الإستغفار والإعتذار.

وقد ذكرنا سابقا أن عصمة الأنبياء، لا تعني أن يكون المعصوم منزها عن كل عمل يطلق عليه (معصية) بوجه ما، ولو بمفهومها الواسع، بل إنما نعني تنزيهه عن مخالفة التكاليف الإلزامية، وعن إرتكاب المحرمات الفقهية لا كل ما يطلق

---

(١) يقول القرآن الكريم في ذلك ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء﴾ الأحزاب الآية: ٣٢.

(٢) كما ذكر ذلك في الرواية التالية (يغفر للجاهل سبعون ذنبا قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد).

عليه معصية.

**الشبهة الثالثة:** ذكرت بعض الآيات القرآنية الدالة على عصمة الأنبياء أنهم يعتبرون من (المخلصين)، ولا يطمع الشيطان فيهم، مع أن القرآن الكريم نفسه يذكر بعض تصرفات وتأثيرات الشيطان في الأنبياء عليه السلام، منها ما ورد في الآية (٢٧) من سورة الاعراف: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ**﴾. حيث تنسب للشيطان خداعه لآدم وحواء، والذي أدى إلى خروجهما من الجنة، وفي الآية (٤١) من سورة ص على لسان أيوب: ﴿**إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ**﴾.

وفي الآية (٥٢) من سورة الحج: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ**﴾.

حيث نسب نوعا من الوساوس الشيطانية لجميع الأنبياء.

والجواب: لم يلحظ في هذه الآيات أي تصرف أو تأثير شيطاني أدى إلى مخالفة الأنبياء عليه السلام للتكاليف الإلزامية، أما الآية (٢٧) من سورة الأعراف، فتشير إلى وسوسة الشيطان لآدم وحواء للأكل من (الشجرة المنهية) فإنه لم يتعلق نهي تحريمي بالأكل، بل الوارد فحسب هو تذكير آدم وحواء وتنبيههما على أن الاكل منها سيؤدي إلى الخروج من (الجنة) والهبوط إلى (الأرض)، وأن وسوسة الشيطان سببت مخالفتهما لهذا النهي الإرشادي، والملاحظ أن ذلك العالم لم يكن عالم تكليف، ولم تنزل شريعة بعد، وأما الآية (٤١) من سورة ص فإنها تشير إلى المتاعب والتحديات التي توجهت لأيوب عليه السلام من قبل الشيطان، وليس فيها أية دلالة على مخالفته للأوامر والنواهي الإلهية، وأما الآية (٥٢) من سورة الحج فهي مرتبطة بالعراقيل التي يواجه بها الشيطان نشاطات الأنبياء عليهم السلام جميعا، والعقبات التي يضعها في سبيل وصولهم إلى أهدافهم في مجال هداية الناس، وأخيرا فإن الله تعالى يبطل مكر الشيطان وحيله، ويثبت الدين الحق.

**الشبهة الرابعة :** في الآية (١٢١) من سورة طه، نسب العصيان لآدم عليه السلام، وفي الآية (١١٥) من السورة نفسها نسب النسيان له عليه السلام، فكيف تتلاءم مثل هذه النسبة مع عصمته؟

والجواب عن هذه الشبهة: هو ما تقدم من أن المعصية والنسيان لم يكونا مرتبطين بالتكليف الإلزامي.

**الشبهة الخامسة :** نسب الكذب في القرآن الكريم لبعض الأنبياء، ومن الآيات التي تدل على ذلك: الآية (٨٩) من سورة الصافات نقلا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿**فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ**﴾.

مع أنه لم يكن مريضا، والآية (٦٣) من سورة الأنبياء نقلا عنه ايضا: ﴿**قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا**﴾.

مع أنه هو الذي حطم أصنامهم، والآية (٧٠) من سورة يوسف: ﴿**ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ**﴾.

مع أن إخوة يوسف لم يرتكبوا السرقة.

والجواب: إن هذه الأقوال إنما صدرت من باب التورية (إرادة معنى آخر) لأجل بعض المصالح الأكثر أهمية كما اشير إلى ذلك في بعض الروايات، ويمكن أن يستظهر من بعض الآيات أن هذه الأقوال كانت بإلهام إلهي، كما في قصة يوسف حيث يقول تعالى: (**كذلك كدنا ليوسف**)، وعلى أي حال فلا يعتبر مثل هذا الكذب معصية، ولا يخالف العصمة.

**الشبهة السادسة :** ورد في قصة موسى عليه السلام أن قبطيا تشاجر مع رجل من بني إسرائيل، فقتله موسى عليه السلام، ولأجل ذلك هرب من مصر. وحين بعثه الله تعالى لدعوة الفراعنة قال: ﴿**وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن**

**يَقْتُلُونِ**﴾[1].

وحينما ذكره فرعون بالقتل أجاب موسى: ﴿**قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ**﴾[2].

فمثل هذه الحكاية كيف تتلاءم وعصمة الأنبياء قبل بعثتهم؟

والجواب: أولاً: إن قتل القبطي لم يكن عمديا، بل كان نتيجة ضربة إصابته اتفاقا ودون تعمد من موسى لقتله.

ثانياً: إن الآية ﴿**ولهم عليّ ذنب**﴾، التي وردت على لسان موسى كانت وفق نظر الفراعنة، والمراد أنهم يعتبرونني قاتلاً ومذنباً، وأخاف أن يقتلوني قصاصا.

ثالثاً: أما الجملة ﴿**وأنا من الضالين**﴾ اما أنه قالها مجاراة للفراعنة وتمشيا معهم، بأنني على تقدير أنني كنت ضالا آنذاك فهداني الله، وأرسلني بهذه البراهين القاطعة. أو المراد من (الضلال) عدم المعرفة بعواقب العمل، وعلى كل حال، فلا تدل على مخالفة موسى للتكليف الإلزامي الإلهي.

**الشبهة السابعة**: في الآية (٩٤) من سورة يونس قال تعالى مخاطبا النبي صلى الله عليه وآله: ﴿**فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾.

وفي الآيات (١٤٧) من سورة البقرة، و (٦٠) من آل عمران، و (١١٤) من الانعام و (١٧) من هود و (٢٣) من سورة السجدة، ينهى فيها الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) عن الشك والترديد، فكيف يمكن القول بأن إدراك الوحي لا يقبل الشك والتردد؟

والجواب عن هذه الشبهة: إن هذه الآيات لا تدل على وقوع الشك والترديد فعلا للنبي صلى الله عليه وآله، بل إنها في صدد التأكيد على هذه الملاحظة بأنه لا مجال للشك والترديد في رسالته، وفي أن القرآن الكريم، ومحتوياته على حق، وفي الواقع

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٤.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٠.

أن مثل هذا الخطاب من باب (إياك اعني و اسمعي يا جارة).

**الشبهة الثامنة:** نسبت في القرآن الكريم بعض الذنوب للنبي صلى الله عليه وآله وقد غفرها الله له، يقول القرآن الكريم: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾[1].

والجواب: إن المراد من الذنب في هذه الآية الشريفة، الذنب الذي وجهه المشركون للنبي صلى الله عليه وآله قبل الهجرة وبعدها، وهو إهانته لأصنامهم وآلهتهم، والمراد من المغفرة، مواجهة الآثار التي يمكن ترتبها على ذلك وإزالتها، والشاهد على هذا التفسير، إنه إعتبر فتح مكة سببا لمغفرته حيث يقول: ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا، لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾. وإذا كان المراد من الذنب المعنى المصطلح فلا وجه لتعليل المغفرة بفتح مكة.

**الشبهة التاسعة:** يقول القرآن الكريم حول زواج النبي صلى الله عليه وآله بزوجة زيد بن حارثة (متبنى النبي) المطلقة: ﴿ **وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ**﴾[2].

فكيف يتلاءم مثل هذا القول مع العصمة.

الجواب: إن مثل هذا العمل الذي صدر بأمر الله، ومن أجل القضاء على تقليد من التقاليد الجاهلية المنحرفة (حيث كان يعتبر المتبنى كالإبن من النسب) كان يخشى النبي صلى الله عليه وآله أن يحمله الناس - لضعف إيمانهم - على ميوله ورغباته الشخصية، وان يؤدي ذلك إلى إرتدادهم عن الدين، وقد أطلعه الله تعالى في هذه الآية الشريفة على أن المصلحة في مكافحة هذا التقليد المنحرف أكثر أهمية، والأجدر به أن يكون أكثر خشية وخوفا من مخالفة الإرادة الإلهية القائمة على مكافحة نبيه عمليا لهذا التقليد الخاطئ، إذن فهذه الآية ليست في مجال

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٧.

تأنيب النبي صلى الله عليه وآله وتوبيخه.

**الشبهة العاشرة:** إن القرآن الكريم يعاتب النبي صلى الله عليه وآله في مواضع عديدة، منها حين أذن النبي صلى الله عليه وآله لبعض الأفراد بترك القتال حيث يقول تعالى: ﴿**عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ**﴾[1].

ومنها: تحريم بعض الأمور المحللة إرضاء لبعض زوجاته:﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ**﴾[2].

فكيف ينسجم هذا العتاب مع عصمته؟

والجواب: إن مثل هذا الخطاب في واقعه (مدح بأسلوب العتاب) حيث يدل على مدى ما كان يملكه النبي صلى الله عليه وآله من شفقة وحنان حتى على المنافقين ومرضى القلوب، حيث لم يبعث اليأس فيهم، ولم يكشف عن أسرارهم، وأيضا حين يقدم مرضاة زوجاته على رغباته وميوله، ويحرم باليمين عملا مباحا في حقه، وهذا لا يعني، (والعياذ بالله) أنه يحاول تغيير حكم الله، وتحريم الحلال على الناس. وفي الواقع إن هذه الآيات من ناحية ما نظير الآيات التي تشير إلى جهود النبي صلى الله عليه وآله الكبيرة وإهتمامه البالغ وحرصه الشديد لهداية الكفار، أمثال قوله تعالى:﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾[3].

او الآيات التي تدل على ما يبذله من جهد ومشقة في سبيل عبادة الله مثل:﴿**طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾[4].

وعلى كل حال، فلا تنافي هذه الآيات عصمته صلى الله عليه وآله.

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٣.

(٢) سورة التحريم، الآية: ١.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٣.

(٤) سورة طه، الآيتان: ١ و٢.



# الأسئلة



١ . لماذا كان الأنبياء وأولياء الله يعتبرون أنفسهم مذنبين، ويمارسون التضرع والإستغفار؟

٢ . كيف تتلاءم تأثيرات الشيطان في الأنبياء عليه السلام مع عصمتهم؟

٣ . كيف يتلاءم العصيان والنسيان الذي نسب في القرآن الكريم لآدم عليه السلام مع عصمته؟

٤ . ما هي الشبهة التي طرحت حول عصمة موسى عليه السلام؟ إذكرها مع الجواب عنها.

٥ . كيف تتلاءم نسبة الذنب لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله في سورة الفتح مع عصمته؟

## الدرس التاسع عشر

# المعجزة

### طرق إثبات النبوة

المسألة الأساس الثالثة في فصل النبوة هي كيف يثبت للناس صدق دعوى الأنبياء الحقيقيين وكذب المدعين الكاذبين؟

لا شك في أن الشخص الضال والمرتكب للمعاصي التي يدرك العقل أيضا قبحها لا يمكن الإعتماد عليه، والثقة به وتصديقه، ويمكن بذلك إثبات كذبه في إدعائه النبوة، فيما لو اشترطنا العصمة في الأنبياء وخاصة إذا كان يدعو إلى أمور مخالفة للعقل والفطرة الإنسانية، أو وجد تناقض في اقواله وأحاديثه، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، ربما تكون الحياة السابقة النظيفة للنبي، وسيرته الحسنة باعثة على حصول الاطمئنان بصدقه عند الأفراد المنصفين، وخاصة إذا شهد العقل بصحة محتويات دعوته، وكذلك من الممكن أن تثبت نبوة شخص بتبشير نبي آخر، وإخباره عنه، وتعريفه به بحيث لا يبقى أي شك أو ترديد للباحثين عن الحقيقة بأنه نبي. ولكن لو لم تتوفر بين الناس القرائن والشواهد والمؤشرات المؤدية إلى الإطمئنان، ولم تصل إليهم بشارة نبي آخر، فهنا تفرض الحاجة وجود

طريق آخر لإثبات النبوة، وقد جعل الله تعالى لحكمته البالغة هذا الطريق، وجهز الأنبياء بمعاجز هي علامات وآيات على صدق دعواهم، ومن هنا سميت بـ(الآيات)[1]. والحاصل: إنه يمكن إثبات صدق الأنبياء الحقيقيين في دعواهم، من خلال ثلاث طرق:

١ - من طريق القرائن والمؤشرات والشواهد المؤدية إلى الإطمئنان، أمثال الصدق والأمانة والإستقامة وعدم الإنحراف عن مسير الحق والعدالة طوال حياتهم. ولكن هذا الطريق لا يتحقق إلا في الأنبياء الذين عاشوا سنوات طويلة بين الناس، وكانت سيرتهم معروفة عندهم. أما النبي الذي بعث بالرسالة في بدايات شبابه، وقبل أن يتعرف الناس على شخصيته وسيرته، فلا يمكن التعرف على صحة دعواه وصدقه من طريق هذه المؤشرات والدلائل.

٢ - أن يعرفه ويبشر به نبي سابق أو معاصر، ويختص هذا الطريق أيضا في الناس الذين عرفوا نبيا آخر، واطلعوا على بشارته ودعمه وتأييده، وبطبيعة الحال لا مجال لمثل هذا الطريق في النبي الأول.

٣ - عن طريق إظهار المعجزة التي يمكن أن يكون أثرها أكثر إتساعا وشمولية، ومن هنا نحاول البحث حول هذا الطريق.

## تعريف المعجزة

المعجزة عبارة عن الأمر الخارق للعادة، تظهر من مدعي النبوة بإرادة الله، وتكون دليلا على صدق دعواه.

والملاحظ في هذا التعريف أنه يشتمل على عناصر ثلاثة:

أ - وجود بعض الظواهر الخارقة للعادة، والتي لا يمكن أن توجد من خلال

---

(١) لقد استخدمت لفظة (الآيات) في موارد أخرى، منها علامات العلم و القدرة والحكمة الإلهية في ظواهر الوجود سواء كانت عادية أو غير عادية.

الأسباب والعلل العادية.

**ب-** ظهور بعض هذه الأمور الخارقة للعادة، من الأنبياء بالإرادة الإلهية، وبإذن خاص من الله تعالى.

**ج-** إن مثل هذا الأمر الخارق للعادة، يمكن أن يكون دليلا على صدق دعوى النبي، وفي هذه الحالة يصطلح عليه بـ( المعجزة ).

والآن نحاول توضيح هذه العناصر الثلاثة التي تضمنها التعريف:

## الأمور الخارقة للعادة

إن الظواهر الكونية إنما توجد - غالبا - نتيجة أسباب وعلل يمكن التعريف عليها من خلال التجارب المختلفة، أمثال أكثر الظواهر الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية والنفسية. ولكن هناك حالات نادرة تتحقق فيها هذه الظواهر بصورة أخرى، حيث لا يمكن التعرف على جميع أسبابها وعللها من خلال التجارب الحسية. وهناك بعض الشواهد تدل على وجود عوامل من نوع آخر أثرت في تكوين هذه الظواهر، كالأعمال الغريبة والمدهشة التي يقوم بها المرتاضون، ويشهد الخبراء والمتخصصون في مختلف العلوم بأن مثل هذه الأعمال لا تتم وفق قوانين العلوم المادية والتجريبية، ويطلق على مثل الأمور بـ( الأمور الخارقة للعادة ).

## خوارق العادة الإلهية

يمكن تقسيم الأمور الخارقة للعادة بصورة عامة إلى قسمين:

الأول: الأمور التي لا تكون أسبابها وعللها عادية، ولكن أسبابها غير العادية في مقدور البشر وتحت إختيارهم، ويمكن التوصل إليها من خلال بعض التدريبات والدروس والتعليمات الخاصة، أمثال أعمال المرتاضين. الثاني: الأعمال الخارقة للعادة والتي لا تتم إلا بإذن إلهي خاص، ولا تكون في متناول أولئك الأفراد الذين

لا علاقة لهم بالله تعالى، ومن هنا فلها ميزتان:

إحداهما: أنها غير قابلة للتعليم والتعلم.

والأخرى: أنها لا تخضع لتأثير قوة أخرى أرقى وأقوى منها، ولا يمكن لأي عامل آخر أن يقهرها.

ومثل هذه الخوارق للعادة مختصة بعباد الله المصطفين والمنتجبين، ولا يمكن أن تكون في متناول أيدي الضالين والعابثين، ولكنها لا تختص بالأنبياء، بل ربما زود بها بعض أولياء الله، ولذلك لا يصطلح عليها كلها في علم الكلام بـ(المعجزة)، والمعروف أن يطلق على مثل هذه الأعمال في حالة صدورها من غير الأنبياء (الكرامة)، كما أن العلوم الالهية غير العادية لا تختص (بوحي النبوة) وحين يزود بعضهم بمثل هذه العلوم، يطلق عليها (الالهام) أو (التحديث).

ومن خلال ذلك تعرفنا على الطريق لمعرفة هذين النوعين من خوارق العادات (الإلهية، وغير الإلهية)، فإذا كان الاتيان بالخارق للعادة قابلا للتعليم أو التعلم، أو يمكن لعامل آخر أن يمنع من حدوثه أو إستمراره، وإبطال تأثيره، فلا يكون هذا العمل من قبيل خارق العادة الإلهي، ويمكن أن يعتبر ضلال فرد، وفساد معتقداته وأخلاقه مؤشرا آخر على عدم إرتباطه بالله تعالى، وعلى كون أعماله شيطانية أو نفسانية.

وتجدر الاشارة هنا إلى ملاحظة أخرى وهي أنه يمكن لنا ان نعتبر الله هو الفاعل لهذه الأعمال الإلهية الخارقة للعادة (بالاضافة لفاعليته بالنسبة لكل المخلوقات ومنها الظواهر العادية)، وذلك بملاحظة إناطة تحققها بإذن خاص منه تعالى[1] ويمكن أيضاً أن ننسبها إلى الوسائط ـ أمثال الملائكة والأنبياء ـ بملاحظة دورهم فيها كوسطاء أو فاعلين قريبين، كما نسب القرآن الكريم لعيسى

---

(١) ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ الرعد: ٢٧.

عليه السلام إحياء الموتى، وشفاء المرضى، وخلق الطير[1]. ولا تعارض بين هاتين النسبتين، لأن الفاعلية الإلهية في طول فاعلية العباد.

## ميزة معجزات الأنبياء

العنصر الثالث في تعريف المعجزة، أن معجزات الأنبياء آية ودليل على صدق دعواهم، ومن هنا إنما يطلق في علم الكلام مصطلح (المعجزة) على الأمر الخارق للعادة، حين يصدر دليلا على نبوة النبي، اضافة إلى إستناده إلى الإذن الإلهي الخاص، وبقليل من التعميم والتوسع في مفهومه يصبح شاملا الأمور الخارقة للعادة ـ أيضا ـ والتي تصدر دليلا على صدق دعوى الإمامة، ولذلك يختص مصطلح (الكرامة) بسائر الخوارق الإلهية للعادة، والتي تصدر من أولياء الله، مقابل خوارق العادات التي تستند إلى القوى الشيطانية والنفسانية، أمثال: السحر، والكهانة، وأعمال المرتاضين. ومثل هذه الأعمال كما أنها قابلة للتعليم والتعلم، كذلك يمكن قهرها بقوة أرقى واقوى منها، والغالب أنه يمكن أن نثبت عدم إنتسابها إلى الله من طريق سوء وانحطاط أخلاق أصحابها وفساد معتقداتهم.

والملاحظة التي يلزم التوجه إليها هنا هي أن معجزات الأنبياء إنما تثبت ـ بصورة مباشرة ـ صدقهم في دعوى النبوة، أما صحة محتوى الرسالة ولزوم الإطاعة للتعاليم والأوامر التي يبلغونها، فإنها تثبت بصورة غير مباشرة، وبتعبير آخر: تثبت نبوة الأنبياء عليه السلام بالدليل العقلي، أما محتويات رسالاتهم فتثبت بالدليل التعبدي.

---

(1) ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ آل عمران: ٤٩.



# الأسـئلة



١ ـ ما هي الطرق التي يمكن التعرف من خلالها على الأنبياء الحقيقيين؟ وما هو الفرق بين هذه الطرق؟

٢ ـ عُرف المعجزة.

٣ ـ ما هو الفرق بين الخارق الالهي للعادة، والخارق غير الإلهي؟

٤ ـ وضّح مصطلحي المعجزة والكرامة.

٥ ـ هل أن المعجزة عمل مستند إلى الله أم إلى النبي؟

## الدرس العشرون

# شبهات وحلول

### حلّ عدة شبهات

طرحت بعض الشبهات حول مسألة الإعجاز، وفيما يلي نستعرضها ونجيب عنها.

**الشبهة الأولى :** إن لكل ظاهرة مادية علة خاصة، يمكن التعرف عليها من خلال التجارب العلمية، وعدم التعرف على علة ظاهرة نتيجة لنقص أدوات التجربة ووسائلها، لا يمكن أن يعتبر دليلا على عدم وجود العلة العادية لتلك الظاهرة، نعم يمكن الإعتراف بأمر واحد في الظواهر الخارقة للعادة، وهو أنها وجدت بسبب علل وعوامل مجهولة، وغير معروفة وعلى أكثر التقادير، نعتبر التعرف على عللها في ذلك الزمان الذي لم تعرف فيه بعد أمراً معجزاً، أما أن ننكر وجود العلل التي يمكن إكتشافها ومعرفتها من خلال التجارب العلمية، فإن هذا يعني نفيا لمبدأ العلية وهو باطل.

**والجواب:** إن مبدأ العلية لا يقتضي أكثر من أن تكون لكل موجود مرتبط ومعلول علة ما، ولكن هذا المبدأ لا يفرض أن تكون كل علة قابلة للمعرفة والإكتشاف من خلال التجارب العلمية، ولا يوجد أي دليل على ذلك، لأن ميدان التجارب العلمية ومجالها محدد بالأمور الطبيعية، ولا يمكن أن يثبت من خلال

أدوات المختبرات وأجهزتها وجود أمور ما وراء الطبيعة أو نفيها، أو عدم تأثيرها.

أما تفسير الإعجاز بالتعرف على العلل المجهولة فغير صحيح، ذلك لأن هذه المعرفة إن توصل إليها من طريق العلل والعوامل العادية. فلا يكون هناك فرق بينها وبين سائر الظواهر العادية، ولا يمكن إعتبارها ـ بأي وجه كان ـ أمرا خارقا للعادة. أما لو حصلت المعرفة المذكورة بصورة غير عادية، فإنها وإن كانت أمرا خارقا للعادة وفيما لو كانت مستندة إلى إذن خاص من الله تعالى، وصدرت كدليل على صدق النبوة ستعتبر من أقسام المعجزة (المعجزة العلمية)، كما في معرفة عيسى عليه السلام ما يأكل الناس وما يدخرون في بيوتهم، حيث اعتبرت من معجزاته[1]. ولكن لا يمكن حصر المعجزة بهذا القسم، ونفي سائر أقسامها، وأخيرا يبقى التساؤل عن الفرق بين هذه الظاهرة وسائر الظواهر الخارقة للعادة في علاقتها بمبدأ العلية.

**الشبهة الثانية:** جرت السنة الإلهية على أن توجد كل ظاهرة من طريق علة خاصة. والآيات القرآنية تصرح بأنه ﴿**فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا**﴾[2]، وخرق العادة بمثابة التغيير والتبديل للسنة الإلهية، تنفيه هذه الآيات.

وهذه الشبهة كالسابقة، مع الفرق في أن الشبهة السابقة قد إستدل عليها بالعقل فحسب، وهذه الشبهة إستند فيها للآيات القرآنية.

**والجواب:** إن هذا الرأي الذي يعتبر حصر أسباب الظواهر وعللها في الأسباب والعلل العادية من السنن الإلهية التي لا تقبل التغير مثل هذا الرأي لا دليل عليه.

---

(1) ﴿**وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ آل عمران: ٤٩.

(٢) الإسراء: ٧٧؛ والأحزاب: ٦٢، وفاطر: ٤٣؛ والفتح: ٢٣.

ونظيره أن يدّعى بأن حصر علة الحرارة بالنار من السنن الإلهية التي لا تقبل التغيير!. ويمكن القول تجاه هذه الادعاءات بأن تعدد أنواع العلل المختلفة لأنواع المعلولات، وقيام الأسباب غير العادية مقام الأسباب العادية هو مما يحدث في العالم دائما. ومن هنا يلزم اعتبار ذلك من السنن الإلهية، وحصر الأسباب بالأسباب العادية يعتبر تغييرا لها، تنفيه الآيات القرآنية الكريمة.

وعلى كل حال فتفسير الآيات الدالة على نفي التغير والتحويل في السنن الإلهية بأن لا يقوم مقام الأسباب العادية شيء وأنها من السنن التي لا تقبل التغيير يعد تفسيرا بلا دليل، بل هناك آيات كثيرة تدل على وقوع المعجزات وخوارق العادات تقف كدليل قوي على عدم صحة هذا التفسير، ولابد من البحث عن تفسيرها الصحيح في كتب التفسير. ونشير له هنا بإيجاز فنقول: بأن هذه المجموعة من الآيات الشريفية تستهدف نفي تخلف المعلول عن العلة، لا أنها تنفي تعدد العلة وقيام العلة غير العادية، مقام العلة العادية، بل يمكن القول بأن القدر المتيقن من مورد هذه الآيات، هو تأثير الأسباب والعلل غير العادية.

**الشبهة الثالثة:** جاء في القرآن الكريم أن الناس طالبوا نبي الإسلام صلى الله عليه وآله مرارا ببعض المعجزات، وخوارق العادات وامتنع النبي صلى الله عليه وآله عن الإستجابة لطلبهم[1] فإذا كان الاتيان بالمعجزات طريقا لإثبات النبوة، إذن فلماذا لم يستفد النبي صلى الله عليه وآله من هذا الطريق لإثبات نبوته؟

والجواب: أن هذه الآيات مرتبطة بالطلب الذي صدر منهم عنادا، أو لأهداف أخرى غير طلب الحقيقة[2]، بعد إتمام الحجة عليهم، وإثبات نبوته صلى الله عليه وآله

---

(١) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأنعام: ٣٧.

(٢) ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الأنعام: ٣٥.

بالطرق الثلاث (دلائل الصدق، وبشارات الأنبياء السابقين، وإظهار المعجزة) والحكمة الالهية اقتضت عدم الإستجابة لهم.

وتوضيحه: إن الهدف من إظهار المعجزة ـ وهي أمر استثنائي في النظام الحاكم في الكون وتصدر أحيانا استجابة لمطالبة الناس (مثال ناقة صالح عليه السلام) وأخرى تصدر إبتداء ومن دون مطالبتهم (كمعجزات عيسى عليه السلام) ـ إنما هو التعريف بأنبياء الله، وإتمام الحجة على الناس، لا إلزامهم وقهرهم على قبول دعوة الأنبياء ولا إجبارهم على التسليم والإنقياد الجبري لهم، ولا توفير مشاهد اللهو والتسلية لهم، والتلاعب بنظام الأسباب والمسببات العادية.

ومثل هذا الهدف لا يقتضي الإستجابة لكل رغبة وطلب، بل إن الإستجابة ـ احيانا ـ مخالفة للحكمة ونقض للغرض، أمثال المطالبة ببعض الأعمال التي تسد طريق الإختيار، وتقهر الناس على تقبل دعوة الأنبياء عليهم السلام، أو الطلب الصادر عن دافع العناد، أو لأهداف أخرى غير البحث عن الحقيقة، وذلك لأنها ـ من ناحية ـ ستؤدي بالمعاجز للإبتذال، ويتجة الناس لمشاهدتها من أجل قضاء وقتهم في اللهو والتسلية، أو أنهم يلتفون حول الأنبياء مستهدفين تحقيق بعض المنافع الشخصية، ومن ناحية أخرى، ستزول أجواء الإمتحان والإختبار والإختيار الحر، وسيتبع الناس الأنبياء عن إكراه، خاضعين لتأثير عوامل الضغط والقهر، وكلا الناحيتين مخالف للحكمة والهدف من إظهار المعجزات.

وأما في غير هذه المجالات، وحين تقتضي الحكمة الإلهية فان الأنبياء سيستجيبون لطلب الناس، كالمعاجز الكثيرة التي أتي بها نبي الإسلام صلى الله عليه وآله، وقد ثبت نقل بعضها بالتواتر، وفي مقدمتها معجزته الخالدة أي القرآن الكريم.

**الشبهة الرابعة:** إن المعجزة من جهة إناطتها بالإذن الإلهي الخاص يمكن أن تكون دليلا وآية على وجود الإرتباط الخاص بين الله وحامل المعجزة، بدليل منحه

هذا الإذن الخاص له خاصة، وبعبارة آخرى: قد تحقق عمله بيده، وعن طريق إرادته، ولكن لا يلزم عقلا من هذا الارتباط أن يكون هناك إرتباط آخر بين الله تعالى وحامل المعجزة، وأنه رسول وقد تلقى الوحي منه، اذن فالمعجزة لا يمكن أن تعتبر دليلا عقليا على صحة دعوى النبوة. وأكثر ما تدل عليه في هذا المجال أن تكون دليلا ظنيا وإقناعيا عليها فحسب.

**والجواب:** إن العمل الخارق للعادة، وان كان من نوع الخرق الالهي للعادة، لا يدل بنفسه على وجود علاقة الوحي، ومن هنا لا يمكن أن تعتبر كرامات أولياء الله دليلا على نبوتهم، ولكن الحديث هنا هو حول ذلك الشخص الذي إدعى النبوة، وأظهر المعجزة دليلا وآية على صدق دعواه. واذا افترضنا أن هذا الشخص إدعى النبوة كذبا، فهذا يعني أنه قد إرتكب أعظم المعاصي وأبشعها، ويترتب على عمله أسوأ المفاسد في الدنيا والآخرة.

ومثل هذا الشخص لا يصلح - أبدا - لمثل هذا الارتباط بالله تعالى، ولا تقتضي الحكمة الإلهية تزويده بالقدرة على إظهار المعجزة، ليكون سببا في ضلال العباد وإنحرافهم.

**والحاصل:** إن العقل يدرك - بوضوح - أن الشخص الذي يصلح لهذا الإرتباط الخاص مع الله تعالى، والتزود بالقدرة على إظهار المعجزات، إنما هو الشخص الذي لا يخون مولاه، ولا يكون سببا في ضلال العباد وشقائهم الأبدي.

إذن فإظهار المعجزة دليل عقلي قاطع على صحة دعوى النبوة. وإن من يدعي النبوة صادق في دعواه.



# الأسئلة



١ - ما هو مضمون مبدأ العلية؟ وماذا يلزم منه؟

٢ - لماذا كان الإعتراف بمبدأ العلية لا ينافي الإعتراف بالإعجاز؟

٣ - لماذا لا يصح تفسير الإعجاز بمعرفة العلل المجهولة؟

٤ - هل أن الإعتراف بالإعجاز ينافي قبول السنن الإلهية للتغير؟ ولماذا؟

٥ - لماذا لم يستجب الأنبياء لكل ما يطلبه الناس من معاجز؟

الدرس الواحد والعشرون

# خصائص الأنبياء

## تعدد الأنبياء

لقد بحثنا حتى الآن في ثلاث مسائل أساسية من مسائل النبوة، ووصلنا لهذه النتيجة، مع ملاحظة قصور المعرفة البشرية من الوصول لكل المعلومات والمعارف المؤثرة في السعادة الدنيوية والاخروية، فإن الحكمة الإلهية تقتضي تعيين نبي أو أنبياء يتم تعليمهم ببعض الحقائق الضرورية ليبلغها اولئك لسائر البشر بصورة سليمة، دون أن تتعرض لأي تشويه وتلاعب . ومن ناحية أخرى، على الرسل إبلاغها للآخرين بصورة تتم الحجة عليهم، وأفضل الطرق وأكثرها شمولية في هذا المجال هو إظهار المعجزة. وقد أثبتنا هذه المفاهيم بالبراهين العقلية، ولكن هذه البراهين لا تدل على ضرورة تعدد الأنبياء والكتب والشرائع السماوية. فإذا افترضنا أن ظروف الحياة البشرية بالصورة التي يمكن فيها لنبي ما أن يبين كل ما يحتاج اليه البشر، حتى نهاية العالم، بحيث يتمكن كل فرد أو جماعة - عبر التاريخ - من التعرف على وظيفته من خلال رسالة هذا النبي فإن ذلك لا يكون مخالفا لهذه البراهين. ولكننا نعلم:

**أولاً:** إن عمر الإنسان - أي إنسان كان ومنهم الأنبياء - محدود وقصير، ولا

تقتضي حكمة الخلق بقاء النبي الأول حيا حتى نهاية العالم، ليهدي جميع البشر بشخصه.

**وثانياً:** الملاحظ عدم اتحاد وتشابه ظروف الحياة البشرية في مختلف الأزمنة والأمكنة، وهذا الإختلاف والتغير في الظروف، وخاصة مع ملاحظة التعقيد التدريجي الذي تتعرض له العلاقات الإجتماعية، يمكن أن يكون له تأثيره في كيفية الأحكام والقوانين الإجتماعية وكميتها، وربما تطلب ذلك ـ أحيانا ـ تشريع قوانين جديدة، وإذا فرض بيان مثل هذه القوانين وإبلاغها بواسطة نبي مبعوث قبل آلاف السنين، لكان مثل هذا البيان والإبلاغ عبثا ولغوا، كما يشق الحفاظ عليها، ويعسر تنفيذها في مجالاتها الخاصة.

**ثالثاً:** في الكثير من الأزمنة والعصور السابقة، لم تكن وسائل الإعلام وإمكانات النشر متوفرة لدعوة الأنبياء بالصورة التي يمكن للنبي إيصال رسالته لجميع البشر في العالم.

**رابعاً:** إن تعاليم النبي قد تتعرض في وسط الأمة التي تلقت هذه التعاليم منه وبمرور الزمن، ونتيجة لشتى العوامل ـ إلى التحريف[1] وإلى تفسيرات منحرفة خاطئة لها، وبعد فترة من الزمن ربما تتحول إلى دين مشوه ومنحرف، كما هو الملاحظ في دين عيسى عليه السلام التوحيدي حيث تحول لدين التثليث.

ومن خلال هذه الملاحظات تتضح الحكمة في تعدد الأنبياء عليهم السلام واختلاف الشرائع السماوية حول بعض الأحكام العبادية والقوانين الإجتماعية[2]

---

(١) للتعرف على نماذج من هذه التحريفات يراجع كتاب (الهدى إلى دين المصطفى) العلامة الشيخ محمد جواد البلاغي النجفي.

(٢) ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ المائدة: ٤٨.

بالرغم من إتحادها في أصول العقائد والأسس الأخلاقية، وإشتراكها في أصول الأحكام الفردية والإجتماعية[1] فالصلاة - مثلاً - مشرعة في جميع الأديان السماوية، وإن إختلفت الامم في طريقة أدائها أو في قبلتها، وكذلك الزكاة والانفاق، فهي مشرعة في كل الشرائع، وإن إختلفت في مقدارها ومواردها.

وعلى كل حال، يجب على كل إنسان الإيمان بجميع الأنبياء، وعدم التفريق بينهم، في مجال الإعتقاد والتصديق بالنبوة، وكذلك التصديق بكل الرسالات والتعاليم النازلة عليهم[2]، وعدم التفريق بينها، ولا يحق تكذيب أي نبي منهم، أو تكذيب أي حكم من أحكامهم، بل إن تكذيب واحد منهم، بمثابة تكذيب لجميعهم، وإنكار حكم إلهي واحد يعتبر إنكارا لجميع أحكام الله[3]، وبطبيعة الحال فإن الوظيفة العملية لكل امة، في أي زمان، إتباع التعاليم العملية، لنبي تلك الأمة وذلك الزمان.

والملاحظة التي يلزم التأكيد عليها هنا: أن العقل الإنساني وإن أمكنه التوصل من خلال الملاحظات السابقة إلى إدراك الحكمة في تعدد الأنبياء والكتب السماوية، والإختلاف بين الشرائع السماوية، بحيث يمكنه الحكم بالتحديد وعلى ضوء ذلك في أي زمان أو مكان يلزم بعثة نبي جديد، أو شريعة جديدة، وكل ما يمكنه فهمه عدم الضرورة لبعثة نبي آخر، فيما لو كانت الظروف التي يعيشها البشر بالصورة التي تصل معها دعوة الأنبياء لجميع البشر، وتبقى معها الرسالة سليمة ومصونة للمستقبل، وعدم حدوث تغير كبير في الظروف الإجتماعية يفرض

---

(١) ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ، فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ آل عمران: ١٩ - ٢٠.

(٢) ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ الشورى: ١٣.

(٢) النساء: ١٥٠، والبقرة: ٨٥.

تشريعات أساسية جديدة، وتغيرا في الأحكام والقوانين الموجودة.

## عدد الأنبياء

أشرنا سابقا إلى أن العقل لا يملك طريقا يثبت من خلاله عدد الأنبياء والكتب السماوية، ولا يتيسر إثبات أمثال ذلك إلا من طريق الدليل النقلي. والقرآن الكريم وإن أكد أن الله تعالى بعث لكل أمة نبياً[1]، ولكنه لم يحدد عدد الأمم وأنبيائهم، وإنما إقتصر على ذكر أسماء عشرين أو أكثر بقليل، من الأنبياء عليهم السلام واشار لقصص وحكايات بعض منهم دون ان يصرح باسمائهم[2]، ولكن ورد في بعض الروايات عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام[3]، أن الله بعث مئة وأربعة وعشرين ألفا من الأنبياء، وأن سلسلة الأنبياء تبدأ من آدم أبي البشر عليه السلام وتختم بمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله.

وبالإضافة لإطلاق تسمية (النبي) على أنبياء الله، وهو يدل على هذا المنصب الإلهي الخاص، فإنهم يمتلكون صفات أخرى أمثال (النذير) و(المنذر) و(المبشر)[4] وإعتبروا من (الصالحين) و(المخلصين) وقد بلغ بعضهم مقام (الرسالة) وورد في بعض الروايات أن عدد الرسل الإلهيين ثلاثمئة وثلاثة عشر[5].

---

(١) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ فاطر: ٢٤.

(٢) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ البقرة: ٢٤٦. ﴿وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ البقرة: ٢٤٨.

(٣) يلاحظ كتاب الاعتقادات للصدوق، وبحار الأنوار، ج١١، ص٢٨ و٣٢ وص٤١ من الطبعة الجديدة.

(٤) ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ البقرة: ٢١٣.

(٥) بحار الأنوار، ج١١، ص٣٢ من الطبعة الجديدة.

ولذلك يقع البحث هنا عن مفهوم النبوة والرسالة، والفرق بين النبي والرسول.

### النبوة والرسالة

إن لفظة (الرسول) بمعنى (حامل الرسالة)، ولفظة النبي إذا كانت مشتقة من مادة (نبأ) فالنبي بمعنى (صاحب الخبر المهم)، وإذا كانت مشتقة من مادة (نبو) فهو بمعنى: (صاحب المقام الرفيع والشريف).

واعتقد البعض أن مفهوم النبي أعم من مفهوم الرسول وذلك لأن النبي هو الذي نزل عليه الوحي من الله، سواء كان مأمورا بالإبلاغ للآخرين أم لم يكن، بينما الرسول هو المأمور بإبلاغ الوحي أيضا، ولكن هذا التفسير غير صحيح، وذلك لأنه ذكرت بعض الآيات الكريمة صفة (النبي) بعد صفة (الرسول)[1]، مع أنه وفق التفسير المذكور، يلزم أن تذكر الصفة التي تتضمن المفهوم العالم وهي (النبي) قبل ذكر الصفة الخاصة (الرسول) اضافة إلى عدم وجود دليل على اختصاص الأمر بإبلاغ الوحي بالرسل.

وورد في بعض الروايات أن مقتضى مقام النبوة أن يرى صاحبها ملك الوحي في النوم، وأن يسمع صوته فحسب في اليقظة، بينما صاحب مقام الرسالة يشاهد ملك الوحي في اليقظة أيضا[2].

ولكن هذا الفرق لا يمكن حمله على مفهوم اللفظ، وعلى كل حال فالذي يمكن تقبله أن النبي من حيث المصداق (لا المفهوم) أعم من الرسول، أي أن الأنبياء

---

(١) ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ مريم: ٥١ ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ مريم: ٥٤.

(٢) أصول الكافي، ج١، ص١٧٦.

جميعا كانوا يملكون مقام النبوة. وأما مقام الرسالة فهو مختص بجماعة منهم، وعدد الرسل وفق الرواية السابقة (ثلاثمئة وثلاثة عشر) وبطبيعة الحال يكون مقامهم أسمى من مقام سائر الأنبياء كما أن الرسل لم يكونوا متساوين من حيث الدرجة والفضيلة[1]، وقد نال بعضهم مقام (الإمامة) أيضا[2].

## الأنبياء أولو العزم

عبر القرآن الكريم عن جماعة من الأنبياء بأنهم (أولو العزم)[3] ولكن لم يحدد خصائصهم. ويستفاد من روايات أهل البيت عليهم السلام أن عدد الأنبياء أولي العزم خمسة، وهم بحسب الترتيب الزمني: نوح وإبراهيم؛ وموسى، وعيسى ومحمد بن عبد الله (عليهم الصلاة والسلام)[4]، والميزة التي يتميزون بها، إضافة للصبر والإستقامة المتميزة التي تمتعوا بها، وأشير اليها في القرآن الكريم هي: إن لكل واحد منهم كتابا وشريعة مستقلة، وقد إتبع شريعته الأنبياء المعاصرون له، أو المتأخرون عنه، حتى يبعث نبي آخر من أولي العزم بالرسالة، ويأتي بكتاب وشريعة جديدة.

ومن خلال ذلك إتضح أن من الممكن إجتماع نبيين في زمان واحد، كما عاصر لوط إبراهيم عليه السلام وهارون موسى عليه السلام ويحيى عيسى عليه السلام، في زمان واحد.

---

(١) ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ البقرة: ٢٥٣.

(٢) ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ البقرة: ١٢٤.

(٣) ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِن نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الأحقاف: ٣٥.

(٤) بحار الأنوار: ج١١: ص٣٢ـ ٣٤، ومعالم النبوة، ص١١٢.

## ملاحظات

في نهاية هذا الدرس نشير - بإيجاز - إلى بعض الملاحظات ونقتصر على ذكر عناوينها، دون إطالة البحث عنها:

**أ -** إن أنبياء الله يصدق بعضهم بعضا، ويبشر السابق منهم ببعثة النبي اللاحق[1]، ومن هنا، فإن مدعي النبوة الذي يكذبه الأنبياء السابقون أو المعاصرون له يعتبر كاذبا.

**ب -** إن أنبياء الله لم يطلبوا الأجر على ممارسة وظائف النبوة ومهامها من الناس[2]، ونبي الإسلام صلى الله عليه وآله لم يطلب من أمته أجرا لرسالته إلا ايصاءهم بالمودة لأهل بيته[3]، ليؤكد أكثر على إتباعهم والتمسك بهم، وفي الواقع إن فوائد ومعطيات هذه الوصية تعود للأمة نفسها[4].

**ج -** كان لبعض أنبياء الله مناصب الهية أخرى أمثال القضاء والحكم، ويمكن أن نذكر من جملة هؤلاء الأنبياء السابقين داوود وسليمان عليهم السلام، ويمكن أن يستفاد من الآية (٦٤) من سورة النساء - التي فرضت الإطاعة لكل رسول بصورة مطلقة - أن الرسل جميعا كانوا يتمتعون بمثال هذه المناصب.

**د -** إن بعض الجن - وهم نوع من المخلوقات المختارة والمكلفة، ولا يمكن للبشر رؤيتهم في الظروف العادية - إطلعوا على دعوة بعض الأنبياء الإلهيين، وقد آمن بهم

(١) ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ آل عمران: ٨١.

(٢) الأنعام: ٩٠، ويس: ٢١، والطور: ٤٠، والقلم: ٤٦، ويونس: ٧٢، وص: ٨٦، وهود: ٢٩ و٥١، والفرقان: ٥٧، والشعراء: ١٠٩ و١٢٧ و١٤٥ و١٦٤ و١٨٠، ويوسف: ١٠٤.

(٣) ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ الشورى: ٢٣.

(٤) ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ سبأ: ٤٧.

بعض صلحائهم وأتقيائهم، وكان من بينهم أتباع لموسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله[1]، كما أن بعضهم كفروا بأنبياء الله إتباعاً للشيطان[2].



## الأسئلة



١ - بيّن الحكم والأسباب من تعدد الأنبياء.

٢ - ما هي الحالة التي لا يلزم معها إرسال النبي الجديد؟

٣ - ما هو الفرق بين النبي والرسول؟ وما هي النسبة بينهما من حيث المفهوم، ومن حيث المصداق؟

٤ - بيّن المناصب الإلهية التي يفضل بها بعض الأنبياء على بعضهم الآخر؟

٥ - من هم الأنبياء أولو العزم؟ وما هي خصائصهم؟

---

(١) ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ، قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ، يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ الأحقاف: ٢٩ - ٣٢.

(٢) ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ، وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ، وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ، وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ، وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ، وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ، وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ، وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ، وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ، وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ، وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ الجن: ١ - ١٤.

الدرس الثاني والعشرون

# نبي الإسلام

## المقدمة

لقد بعث عشرات الآلاف من الأنبياء الإلهيين، في مراحل تاريخية مختلفة، وفي نقاط شتى من العالم، وقاموا بمهامهم خير قيام في هداية البشر وتربيتهم، وخلفوا آثارا ومعطيات مشرقة ومؤثرة في الشعوب. وقد قام كل منهم بتربية جماعة على أساس المعتقدات الصحيحة والقيم العليا، وكان لهم تأثيرهم غير المباشر في الآخرين، ووفق بعضهم إلى إقامة مجتمع توحيدي قائم على دعائم التوحيد والقسط والعدل، وتولوا مهمة قيادته.

وقد تميز من بين هؤلاء نوح وإبراهيم عليهما السلام، وموسى وعيسى عليهما السلام بأن أنزل الله عليهم كتبا سماوية مشتملة على الأحكام والقوانين الفردية والإجتماعية، والتعاليم والوظائف الأخلاقية والقانونية، الملائمة لظروفها الزمانية والمكانية، فوضعوها في متناول أيدي البشر، من أجل هدايتهم لما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة.

ولكن هذه الكتب إما أنها اختفت تماما على امتداد الزمان، أو تعرضت لتحريفات لفظية ومعنوية، ونتيجة لذلك كله شوهت الأديان والشرائع السماوية،

كما تعرضت توراة موسى عليه السلام إلى تحريفات عديدة، ولم يبق من إنجيل عيسى عليه السلام شيء إلا ما كتبه بعض أتباعه من كتابات جمعت بإسم (الكتاب المقدس).

ولو ألقى اي منصف نظرة على كتاب العهدين (التوراة والإنجيل) المتداول اليوم، فسوف يدرك بأنه ليس هو الكتاب الذي أنزل على موسى وعيسى عليهما السلام . فالتوراة اضافة إلى أنها صورت الله تعالى بصورة بشرية لأنه يجهل الكثير من الأمور والقضايا[1]، وأنه يندم على ما عمله كثيرا[2] وأنه يصارع أحد عباده - يعقوب عليه السلام - ولا يتمكن من أن يصرعه، وأخيرا يتوسل إليه أن يكف عنه حتى لا يرى الناس إلههم في هذه الحالة المزرية[3]. كما أنها تنسب الكثير من الأعمال المنحرفة والبشعة لأنبياء الله، فتنسب الزنا بالمحصنة - والعياذ بالله - لداوود عليه السلام[4] وشرب الخمر والزنا بالمحارم للوط عليه السلام[5] إضافة لذلك كله فإن التوراة تذكر - بالتفصيل - حكاية وفاة موسى عليه السلام، وكيفية وفاته ومكانها[6]، علما أن التوراة نزلت على موسى نفسه!! ألا تكفي هذه النقطة وحدها لكي ندرك عدم صحة إنتساب هذا الكتاب لموسى عليه السلام؟!.

وأما الإنجيل فهو أسوأ حالا من التوراة، إذ لا يوجد اليوم أي كتاب نزل على عيسى عليه السلام، وحتى المسيحيين أنفسهم لا يدعون بأن الإنجيل الموجود فعلا هو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام، بل إن هذا الكتاب المتداول اليوم يشتمل على بعض الكتابات المنسوبة إلى بعض أتباعه عليه السلام، وهو

(١) التوراة، سفر التكوين، الباب الثالث، الرقم ٨ـ ١٢.
(٢) التوراة، سفر التكوين، الباب السادس، الرقم ٦.
(٣) التوراة، سفر التكوين، الباب ٣٢، الرقم ٢٤ ـ ٣٢.
(٤) العهد القديم، كتاب صموئيل الثاني، الباب ١١.
(٥) التوراة، سفر التكوين، الباب ١٩، الرقم ٣٠ ـ ٣٨.
(٦) التوراة، سفر التثنية، الباب ٣٤.

بالاضافة إلى تجويزه شرب الخمر، فإنه يعتبر صنع الخمر من معاجز عيسى عليه السلام[١]!

وبإيجاز فان ما نزل من وحي على موسى وعيسى عليهما السلام قد تعرض للتحريف، ولا يمكنه أن يقوم بدوره المنشود في هداية البشر. وأما لماذا وكيف تم هذا التحريف فله حكاية طويلة ليس هنا مجال البحث عنها[٢].

أجل، في القرن السادس بعد ميلاد المسيح عليه السلام، وفي فترة طبق فيها العالم كله ظلام الجهل والظلم، وخمدت مشاعل الهداية الإلهية في كل أنحاء العالم، بعث الله خاتم أنبيائه وأفضلهم في أكثر المناطق تخلفاً وإنحطاطاً وظلمة، ليضيء - وإلى الأبد - مشعل الوحي الساطع لكل الناس، وليحمل للبشر الكتاب الإلهي الخالد المصون من التحريف والنسخ، وليعلم الناس المعارف الحقيقية والحكمة السماوية، والأحكام والقوانين الإلهية، وليقود البشرية جمعاء بإتجاه السعادة الدنيوية والأخروية[٣].

يصف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه الظروف والأوضاع التي كان يعيشها العالم خلال بعثه النبي صلى الله عليه وآله فيقول:

(أرسله على حين فترة من الرسل، وطول هجعة من الامم، وإعتزام من الفتن، وإنتشار من الأمور، وتلظ من الحروب، والدنيا كاسفة النور، ظاهرة الغرور، على حين اصفرار من ورقها، وإياس من ثمرها، وإغورار من مائها، قد درست منائر الهدى، وظهرت أعلام الردى، فهي متجهمة لأهلها، عابسة في وجه طالبها. ثمرها الفتنة، وطعامها الجيفة، وشعارها الخوف، ودثارها السيف)[٤].

---

(١) انجيل يوحنا الباب الثاني.

(٢) اظهار الحق، تأليف رحمة الله الهندي، والهدى إلى دين المصطفى، للعلامة البلاغي، و(راه سعادت بالفارسية) للعلامة الشعراني.

(٣) **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** الجمعة: ٢ - ٣.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٧، وفي طبعة صبحي الصالح (منار) بلا من (منائر) الخطبة ٨٩، ص ١٢١، ج ١٢٢.

ومنذ ظهور نبي الإسلام، إعتبر البحث حول نبوة النبي صلى الله عليه وآله، ورسالته وأن الدين الإسلامي المقدس على حق، أهم موضوع لكل إنسان باحث عن الحقيقة (بعد التوحيد). ومع إثبات هذا الموضوع، الذي يلازمه إثبات أن القرآن الكريم على حق، وإعتباره الكتاب السماوي الوحيد بين أيدي البشر، والمصون عن التحريف والتغيير، سيهتدي البشر حتى نهاية العالم إلى الطريق الوحيد لإثبات سائر المعتقدات الصحيحة، وسيمسك بالمفتاح لعلاج كل مسائل الرؤية الكونية.

### الدليل على رسالة نبي الإسلام

يمكن أن نثبت نبوة الأنبياء من خلال ثلاث طرق:

**الأول:** التعرف على سيرتهم وسلوكهم، والإعتماد على القرائن والمؤشرات المؤدية للاطمئنان.

**الثاني:** إخبار الأنبياء السابقين وبشاراتهم.

**الثالث:** المعجزة.

ولقد توفرت الطرق الثلاث لدى نبي الإسلام. فمن جانب، عاصر أهل مكة، النبي صلى الله عليه وآله واطلعوا عن كثب على حياته خلال أربعين عاما، فلم يجدوا نقطة ضعف في حياته المضيئة الحافلة بالنور والعطاء، وعرفوه بالصدق والأمانة، حيث لقبوه بـ(الأمين)، وبطبيعة الحال، فلا يحتمل الكذب في مثل هذا الشخص.

ومن جانب آخر وردت بشارات الأنبياء السابقين وإخبارهم ببعثته[1]. وقد كان ينتظر ظهوره جماعة من أهل الكتاب، وكانوا يعرفون بعض العلامات الواضحة

---

(١) ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ الصف: ٦.

والبينة عليه[1]، وكانوا يقولون للمشركين من العرب، بأنه سيبعث بالرسالة أحد أبناء النبي إسماعيل (وهم من القبائل العربية)، يصدق الأنبياء السابقين والأديان التوحيدية[2]، وقد آمن بالنبي صلى الله عليه وآله بعض علماء اليهود النصارى، اعتمادا على مثل هذه البشائر والأخبار[3]، وإن أعرض بعضهم عن إعتناق الإسلام خضوعا لدوافع نفسانية وشيطانية.

وقد أشار القرآن الكريم لهذا الطريق: **﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾**[4].

إن معرفة علماء بني إسرائيل بنبي الإسلام صلى الله عليه وآله إستنادا لبشارات الأنبياء السابقين مثلما تعد دليلا واضحا على صحة رسالته فهي مقنعة لأهل الكتاب جميعا، وكذلك تعتبر حجة مقنعة على أن الأنبياء المبشرين أنفسهم كانوا على حق، وكذلك هي حجة للآخرين على ان نبي الإسلام صلى الله عليه وآله على حق، وذلك لأنهم يشاهدون بعينهم ويميزون بعقولهم صدق البشارات والأخبار، والشواهد والعلامات التي أنبأ عنها الأنبياء السابقون عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله.

ومما يثير العجب والدهشة ويجدر الإلتفات إليه هو أنه حتى في هذا الإنجيل وفي التوراة المحرفة نفسها، وبالرغم من كل الجهود التي بذلت من أجل إخفاء مثل هذه البشارات والأخبار، توجد بعض النقاط المضيئة التي تتم الحجة على الباحثين

---

(١) **﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** الأعراف: ١٥٧، وانظر أيضا: البقرة: ١٤٦، والانعام: ٢٠.

(٢) **﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ﴾** البقرة: ٨٩.

(٣) **﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾** المائدة: ٨٣، وانظر أيضا: الاحقاف: ١٠.

(٤) الشعراء: ١٩٧.

عن الحقيقة، كما اهتدى الكثير من علماء اليهود والمسيحيين . الذين كانوا طلابا للحق والحقيقة . إلى الدين الإسلامي المقدس، بتأثير هذه النقاط المضيئة، والبشائر المتبقية في كتابي التوراة والإنجيل[١].

وقد سجلت في كتب التاريخ والحديث الكثير من المعجزات البينة التي صدرت عن النبي صلى الله عليه وآله وقد بلغ نقل الكثير منها حد التواتر[٢]، ولكن العناية الإلهية اقتضت وجود معجزة أخرى تدل على النبي صلى الله عليه وآله ودينه الخالد، بالإضافة لتلك المجعزات التي كانت حجة على الحاضرين والمشاهدين، ويتعرف عليها الآخرون عن طريق نقلهم، وهذه المعجزة الأخرى، هي خالدة بنفسها تتم الحجة على البشر . والى الابد . وهي القرآن الكريم.

ومن هنا سنتحدث عن إعجاز القرآن الكريم في الدرس القادم.



## الأسئلة



١ . أذكر حالة الكتب التي جاء بها الأنبياء السابقون.

٢ . أذكر بعض شواهد التحريف في التوراة.

٣ . دلّل على فقدان الإنجيل الحالي إعتباره وأصالته.

٤ . بيّن أهمية موضوع (رسالة نبي الإسلام).

٥ . بيّن الطرق التي تثبت من خلالها رسالة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

---

(١) يمكن أن نعتبر من هؤلاء الميرزا محمد رضا (من علماء اليهود الكبار في طهران) مؤلف كتاب (إقامة الشهود في رد اليهود)، والحاج بابا القزويني اليزدي (من علماء اليهود في يزد) مؤلف كتاب (محضر الشهود في رد اليهود) والبروفسور عبد الأحد داود الأسقف المسيحي السابق، ومؤلف كتاب (محمد في التوراة والإنجيل) الذي ترجم اخيرا من الإنجيلزية للفارسية.

(٢) يلاحظ بحار الانوار، ج ١٧، ص ٢٢٥ إلى آخر الجزء ١٨، وسائر كتب الحديث و التاريخ المعتبرة.

**الدرس الثالث والعشرون**

# إعجاز القرآن الكريم

## القرآن معجزة

إن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي أعلن ـ وبكل صراحة وقوة ـ أن أحدا لا يتمكن من الإتيان بمثله، وحتى لو إجتمعت الإنس والجن، فلن يتمكنوا من ذلك[١]، بل إنهم لا يقدرون على الاتيان بعشر سور مثله[٢]، بل حتى سورة واحدة قصيرة ذات سطر واحد[٣]. ومن ثم تحدى الجميع ودعاهم لمعارضته ومجاراته، واكد ذلك كثيرا في آياته وان عدم قدرتهم على مثل هذا العمل وعدم الإستجابة لهذا التحدي دليل على نسبة هذا الكتاب ورسالة النبي صلى الله عليه وآله لله تعالى[٤].

إذن فمما لا يقبل الشك والتردد أن هذا الكتاب الشريف قد حمل معه دعواه

---

(١) ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ الاسراء: ٨٨.

(٢) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ هود: ١٣.

(٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يونس: ٣٨.

(٤) ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ البقرة: ٢٣ و ٢٤.

بأنه معجزة، كما أن من جاء به عرضه للبشر كمعجزة خالدة، وبرهان قاطع على نبوته وإلى الأبد، واليوم. وبعد مرور أربعة عشر قرنا، لا زال صدى هذا الصوت الإلهي يطرق أسماع الجميع، صباح مساء من خلال أجهزة الإعلام الصديقة والعدوة، ويتم الحجة عليهم.

ومن جانب آخر، واجه نبي الإسلام من أول يوم من دعوته أعداء متشددين، وحاقدين، بذلوا كل جهودهم وقواهم، لمحاربة هذا الدين الإلهي، وبعد أن يئسوا من تأثير تهديداتهم وإغراءاتهم تآمروا على قتله واغتياله. ولكن فشلت هذه المؤامرة بتدبير من الله الحكيم بهجرته ليلا وسرا إلى المدينة. وبعد هجرته قضى بقية عمره الشريف في حروب ومعارك عديدة مع المشركين وحلفائهم من اليهود. منذ وفاته وحتى اليوم حاول - ويحاول - منافقوا الداخل وأعداء الخارج إطفاء هذا النور الإلهي، وقد بذلوا كل جهودهم وقواهم في هذا المجال ولو كان يمكنهم الإتيان بكتاب مثل القرآن الكريم لفعلوا ذلك بدون تردد.

وفي العصر الحديث، حيث ترى كل القوى العظمى في العالم أن الإسلام هو العدو الأكبر الذي يتهدد سلطاتهم الظالمة، وأطماعهم الجهنمية والشيطانية، لذلك أخذوا - وبكل ما يملكون من قوة - في محاربته، مع تملكهم لكل القوى والإمكانات المالية والعملية والسياسية والإعلامية، ولو كان يمكنهم مواجهة التحدي القرآني، وكتابة سطر واحد مشابه لإحدى السور القرآنية القصار لفعلوا ذلك، وعرضوه من خلال أجهزة إعلامهم العالمية، وذلك لأن مثل هذا العمل من أكثر الأعمال بساطة، وأقلها مؤونة ونفقة، وأكثرها تأثيرا في مواجهة الإسلام والمنع من انتشاره وشيوعه.

إذن، فكل إنسان عاقل منصف يجزم - بعد التوجه لكل هذه الملاحظات - بأن القرآن الكريم كتاب إستثنائي لا يقبل التقليد والمحاكاة، ولا يمكن لأي فرد أو جماعة الإتيان بمثله مهما بذلت من جهود، وتلقت من تعليم وتدريب على ذلك، أي

أنه يملك كل خصائص المعجزة (من كونه خارقا الهيا للعادة، وأنه لا يقبل التقليد والمحاكاة، وطرحه دليلا على صحة النبوة). ومن هنا فهو أفضل دليل قاطع على صدق دعوة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وعلى أن الدين الإسلامي المقدس على حق وأن من أكبر النعم الالهية على الأمة الإسلامية أن يكون هذا الكتاب الشريف قد نزل بصورة يبقى معها - والى الأبد - معجزة خالدة، وأن يملك في داخله الدليل على صدقه وصحته واعتباره. هذا الدليل الذي يمكن لأي فرد فهمه وإستيعابه وتقبله دون إحتياجه لتعلم وتخصص.

## عناصر الإعجاز في القرآن الكريم

الآن، وبعد أن عرفنا - وبصورة مجملة - أن القرآن الكريم كلام إلهي معجز، نوضح أكثر بعض عناصر الإعجاز القرآنية.

**أ- فصاحة القرآن وبلاغته :** إن أول عنصر من عناصر الإعجاز في القرآن الكريم هو فصحاته وبلاغته، أي أنه - تعالى - إستخدم لعرض مقاصده - وفي كل موضوع - أعذب الألفاظ وأجملها، وأجود التراكيب سبكا واعتدالا واتقانا ووقعا، ومن خلال ذلك يوصل المعاني المقصودة للمخاطبين من خلال أفضل الأساليب وأقربها للفهم، لا يتيسر إختيار أمثال هذه الألفاظ والتراكيب المتناسقة الملائمة للمعاني العالية والدقيقة إلا لمن كانت له إحاطة تامة بكل خصوصيات الألفاظ ودقائق المعاني، والعلاقات المتبادلة فيما بينها، ليمكنه اختيار أفضل الألفاظ والعبارات، مع ملاحظة كل أبعاد المعاني المقصودة وجوانبها، وملاحظة مقتضى الحال والمقام. ومثل هذه الإحاطة العلمية الشاملة لا يمكن توفرها في أي إنسان بدون الإستعانة بالوحي والإلهام الإلهي.

إن الجميع يدركون مدى ما يشتمل عليه القرآن الكريم، من أعذب الألحان الملكوتية والأنغام الخلابة. وإن كل العارفين باللغة العربية وفنون الفصاحة

والبلاغة يلمسون سمو فصاحته وبلاغته.

وأما التعرف على أنه معجزة في الفصاحة والبلاغة، فلا يتيسر إلا لأولئك الذين يملكون الخبرة والتخصص في فنون الكلام المختلفة، ومقارنة ما يتميز به القرآن الكريم مع سائر أنواع الكلام الفصيحة والبليغة، وإختبار قدراتهم بالقياس معه. ومثل هذه المهمة لا يقوم بها إلا الشعراء والبلغاء العرب، وذلك لأن أعظم ما كان يتميز به العرب من فن في عصر نزول القرآن هو البلاغة والأدب، اذ بلغ ذروته آنذاك وكانوا ينتخبون بعض القصائد والأشعار - بعد نقدها وتقييمها أدبيا - كأفضل المنجزات الفنية والأدبية. والملاحظ أن الحكمة والعناية الإلهية تقتضي أن تكون معجزة كل نبي متلائمة مع العلم والفن الشائع في ذلك الزمان، حتى يدرك جيداً إمتيازها وتفوقها المعجز على كل المحاولات والمنجزات البشرية، كما ذكر ذلك الإمام الهادي عليه السلام في جوابه لإبن السكيت عندما سأله:

(لماذا بعث الله موسى بن عمران عليه السلام بالعصا ويده البيضاء وآلة السحر؟ وبعث عيسى بآلة الطب؟ وبعث محمدا - صلى الله عليه وعلى جميع الأنبياء - بالكلام والخطب؟).

فقال الإمام عليه السلام:

**(إن الله لما بعث موسى عليه السلام كان الغالب على أهل عصره السحر، فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسعهم مثله، وما أبطل به سحرهم، وأثبت به الحجة عليهم. وإن الله بعث عيسى عليه السلام في وقت قد ظهرت فيه الزمانات، واحتاج الناس إلى الطب، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله، وبما أحيى لهم الموتى، وأبرأ الاكمه والأبرص بإذن الله، وأثبت به الحجة عليهم. وان الله بعث محمدا صلى الله عليه وآله في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام**

**فأتاهم من عند الله من مواعظه وحكمه ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجة عليهم)**[1].

أجل لقد شهد بلغاء العرب آنذاك ـ أمثال الوليد بن المغيرة المخزومي، وعتبة بن ربيعة، والطفيل بن عمرو ـ بأن القرآن بلغ الغاية في فصاحته وبلاغته وبتفوقه على أرقى النتاجات الادبية والبلاغية البشرية[2] وبعد قرن من نزوله حاول بعض الأفراد ـ أمثال إبن أبي العوجاء وإبن المقفع وأبي شاكر الديصاني وعبد الملك البصري ـ أن يجربوا حظهم في معارضة القرآن ومجاراته، وقد بذلوا كل قدراتهم وجهودهم خلال عام واحد في هذا المجال، ولكنهم لم يوفقوا لأي شيء، واخيرا اعترفوا بعجزهم أمام القرآن الكريم، وحين اجتمعوا في المسجد الحرام ليتدارسوا أعمالهم وجهودهم خلال ذلك العام، مر عليهم الإمام الصادق عليه السلام وتلا عليهم هذه الآية الشريفة: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾[3].

**ب ـ امية النبي (ص):** إن القرآن الكريم ـ بالرغم من صغر حجمه نسبيا ـ كتاب يشتمل على مختلف أنواع المعارف والعلوم والأحكام والتشريعات الفردية والإجتماعية، ويحتاج البحث عن كل مجموعة منها فيه ودراستها دراسة كاملة إلى جماعات متخصصة تبذل كل جهودها العلمية وخلال أعوام طويلة، ليكتشفوا ـ بالتدريج ـ بعض كنوزها وأسرارها المخبوءة، وليتوصلوا ـ من خلال ذلك ـ إلى حقائق أكثر، وإن كان إكتشاف كل حقائقه وأسراره وكنوزه لا يتيسر إلا لأولئك الذين يمتلكون العلم والتأييد والمدد الإلهي، إن هذه المجاميع المختلفة تشتمل على أكثر المعارف دقة وسموا، وأرفع التعاليم الاخلاقية وأكثرها قيمة، وأكمل القوانين الحقوقية والقانونية والجزائية عدالة وإحكاما، وأثرى المناسك العبادية والأحكام

(١) اصول الكافي، ج ١، ص ٢٤.

(٢) اعلام الورى، ص ٢٧ و ٢٨، وص ٤٩، وسيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٩٣ وص ٤١٠.

(٣) الاسراء: ٨٨، وانظر تفسير (نور الثقلين) حول هذه الآية.

الفردية والإجتماعية حكمة، وأكثر المواعظ والنصائح تأثيرا ونفعا، وأفضل الحكايات التاريخية عظة وتربية، وأنجع الاساليب التربوية والتعليمية.

وبأيجاز فإنه يشتمل على كل الأصول والمبادى التي يحتاجها البشر من أجل تحقيق سعادتهم الدنيوية والاخروية. ولقد امتزج كل ذلك بإسلوب رائع بديع لم يسبق له مثيل، بحيث يمكن لفئات المجتمع ـ جميعا ـ الاستفادة والتزود منها، كل بحسب إستعداده وقابليته.

إن جمع كل هذه المعارف والحقائق في مثل هذا الكتاب يفوق قدرة البشر العاديين، ولكن مما يزيد الدهشة والإعجاب أكثر، أن هذا الكتاب العظيم ظهر على يد إنسان لم يعرف الدرس والتعليم خلال حياته أبداً، ولم يمسك ـ يوما ـ بيده قلما و ورقة، وقد نشأ في محيط بعيد عن الحضارة والثقافة. والأعجب من ذلك أنه لم يسمع منه ـ خلال أربعين عاما قبل بعثته ـ مثل هذا الكلام المعجز، وخلال أيام رسالته وبعثته أيضا كان ما يصدر منه من آيات قرآنية ووحي الهي يتميز بسبكه وأسلوبه الخاص، وهو يختلف ـ تماماً ـ عن سائر كلامه وأحاديثه، وهذا الفرق الواضح بين هذا الكتاب وسائر أحاديثه مشهود وملموس للجميع.

والقرآن الكريم يشير إلى هذه الأمور فيقول: ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾[(1)].

وفي آية أخرى يقول: ﴿**قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾[(2)].

وثمة احتمال كبير في ان تكون الآية (٢٣) من سورة البقرة: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ**﴾ مشيرة لهذا العنصر الاعجازي، أي أن هناك احتمالا كبيرا في رجوع ضمير (مثله) إلى (عبدنا).

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٦.

والحاصل: إذا إفترضنا ـ محالا ـ قدرة المئات من الجماعات المتخصصة والمثقفة ـ وبالتعاون والإشتراك فيما بينهم ـ على الإتيان بمثل هذا الكتاب، ولكن لا يمكن لفرد أمي واحد القيام بذلك.

ومن جهات إعجاز القرآن الكريم.

ج- التناسق وعدم الإختلاف: إن القرآن الكريم كتاب نزل خلال ثلاثة وعشرين عاما من حياة النبي صلى الله عليه وآله وهي فترة شهدت مرحلة مضطربة مليئة بالحوادث الملتهبة، وزخرت بالكثير من التحديات والمحن والحوادث المرة والسعيدة، ولكن هذه المتغيرات لم يكن لها أي تأثير في تناسق محتويات القرآن وأسلوب إعجازه. ومثل هذا التناسق وعدم الإختلاف في شكله ومضمونه جهة أخرى من جهات إعجازه. وقد أشير إليها كما أشير للعلامتين السابقتين في القرآن الكريم: **﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾**[1].

وتوضيحه: إن كل إنسان يواجه ـ على الأقل ـ نوعين من المتغيرات: **الاول:** إن معلوماته وخبراته تأخذ بالتزايد والنمو، وهذا النمو والزيادة في ثقافته ومعلوماته وخبراته وقدراته تنعكس وتؤثر في أحاديثه وكلامه، وبطبيعة الحال، سوف يبرز الإختلاف الواضح بين أحاديثه خلال عشرين عاما.

**والثاني:** إن حوادث الحياة المختلفة تؤدي إلى ظهور حالات نفسية ومشاعر وأحاسيس مختلفة، أمثال: اليأس والأمل، والفرح والحزن، والقلق والهدوء، ولمثل هذا الإختلاف في الحالات تأثير كبير في تفكير المرء وفي أقواله وافعاله، وبطبيعة الحال، مع اشتداد هذه التغيرات وإتساعها فإن أحاديثه سوف يطرأ عليها إختلاف كبير. وفي الواقع إن تغيرات الكلام خاضعة لتغيرات الحالات النفسية، وهي بدورها خاضعة لتغير الظروف الطبيعية والإجتماعية. فإذا افترضنا أن

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

القرآن الكريم من صنع النبي صلى الله عليه وآله نفسه كإنسان خاضع لكل المتغيرات المذكورة، فمع ملاحظة الظروف المتغيرة الحادة التي شهدتها حياته فلا بد أن تظهر في كلامه إختلافات كبيرة في شكله ومحتواه، مع أنه لم يشاهد أي أثر لمثل هذه الإختلافات.

إذن، فهذا الإنسجام وعدم الإختلاف في مضامين القرآن، وفي مستوى بلاغته المعجزة، يعد علامة أخرى على صدور هذا الكتاب الشريف من مصدر العلم الثابت واللامتناهي لله تعالى، الحاكم على الطبيعة وغير المحكوم لكل الظواهر المختلفة والمتغيرات.



## الأسئلة



١ ـ ما هو الدليل الإجمالي على إعجاز القرآن؟

٢ ـ هل يمكن أن نحتمل أن هناك من لم يرد الإتيان بمثل القرآن؟ أو هناك من أتى به ولكننا لم نطلع عليه؟ ولماذا؟

٣ ـ تحدّث عن البلاغة المعجزة للقرآن.

٤ ـ ما هي علاقة أمية النبي صلى الله عليه وآله بإعجاز القرآن؟

٥ ـ كيف يدل عدم الإختلاف في القرآن على أنه معجزة؟

الدرس الرابع والعشرون

# صيانة القرآن عن التحريف

## المقدمة

إن الدليل على ضرورة النبوة - كما أشرنا اليه سابقا - يقتضي وصول الرسالات الإلهية للبشر بصورة سليمة غير محرفة، حتى يمكنهم الإستفادة منها لما فيه سعادتهم الدنيوية والأخروية، إذن فلا حاجة للبحث عن صيانة القرآن الكريم من حين صدوره حتى إبلاغه للناس، كأي كتاب سماوي آخر، ولكن - وكما علمنا - أن سائر الكتب السماوية تعرضت للتحريف، بعد وصولها لأيدي الناس، أو أنها هجرت بعد فترة إبلاغها واختفت، كما هو الملاحظ اليوم، حيث لم يبق عين ولا أثر لكتابي نوح وإبراهيم عليهما السلام، ولا توجد الصورة الأصلية لكتابي موسى وعيسى عليهما السلام، ومع ملاحظة هذه الحقيقة، يبرز السؤال التالي: - من أي طريق يعرف أن الكتاب الذي هو بين ايدينا اليوم بإسم القرآن الكريم هو الكتاب نفسه الذي نزل على نبي الإسلام صلى الله عليه وآله لم يتطرق إليه اي تغيير أو تبديل، ولم يتعرض لزيادة أو نقيصة؟

وبطبيعة الحال، فإن كل من اطلع - ولو قليلا - على تاريخ الإسلام والمسلمين، واهتمام الرسول صلى الله عليه وإله وخلفائه المعصومين عليهم السلام، بكتابة

الآيات القرآنية وضبطها، وإهتمام المسلمين بحفظ الآيات القرآنية - وكما هو المنقول أنه في معركة واحدة قتل من حفاظ القرآن سبعون رجلا - وكل من إطلع على التواتر في نقل القرآن خلال أربعة عشر قرنا، والإهتمام بإحصاء آياته وكلماته وحروفه، فإن مثل هذا المطلع على تاريخ القرآن الكريم لا يخطر في ذهنه أي إحتمال عن تحريفه.

ولكن مع غض النظر عن هذه الدلائل والشواهد التاريخية المؤدية لليقين، يمكن الإستدلال على صيانة القرآن الكريم عن التحريف ببيان مركب من دليل عقلي، ودليل نقلي. أي يمكن الإستدلال على عدم زيادته بدليل عقلي أولا، وبعد ذلك نثبت عدم نقيصة القرآن الموجود بين أيدينا اليوم إستنادا لآياته.

ومن هنا نبحث في موضوع صيانة القرآن الكريم عن التحريف من خلال جهتين مستقلتين.

## عدم الزيادة في القرآن

أجمع المسلمون كلهم على عدم الزيادة في القرآن الكريم، بل هو مما اتفق عليه كل المطلعين في العالم، اذ لم يطرأ أي حادث أو عامل أدى إلى إحتمال زيادة شيء عليه، ولا يوجد أي شاهد على مثل هذا الإحتمال، ومع ذلك يمكن أن نبطل افتراض زيادته بدليل عقلي بالتوضيح التالي:

إذا إفترضنا زيادة مطلب تام في القرآن الكريم، فإن هذا يعني أنه كان يمكن الإتيان بمثله، ومثل هذا الإفتراض لا يتلاءم وإعجاز القرآن وعدم قدرة البشر على الإتيان بمثله. و اذا افترضنا زيادة كلمة أو آية قصيرة عليه أمثال **﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾**[1] فانه يلزم من ذلك إضطراب نظام الكلام وإختلال سبكه وخروجه عن صورته الأصلية و المعجزة، وفي هذه الحالة يمكن تقليده والإتيان بمثله. وذلك لأن النظام

(١) سورة الرحمن، الآية: ٦٤.

و السبك المعجز للعبارات القرآنية مرتبط ـ أيضا ـ بإختيار الكلمات والحروف، وبعروض التغيير عليها يخرج عن حالته المعجزة.

إذن، فنفس الدليل الذي يثبت إعجاز القرآن الكريم، هو الذي يثبت صيانته عن الزيادة، كما أنه بهذا الدليل نفسه ننفي عروض النقيصة في الكلمات والجمل المؤدية إلى خروج الآيات عن حالتها الإعجازية، وأما حذف سورة كاملة، أو مطلب كامل، بصورة لا يؤدي ذلك إلى خروج سائر الآيات عن حالة الاعجاز، فيحتاج نفيه لدليل آخر.

## عدم النقيصة في القرآن

صرح كبار علماء الإسلام من الشيعة وأهل السنة، وأكدوا عدم تعرض القرآن الكريم للنقيصة كما لم يتعرض للزيادة، وجاءوا بأدلة كثيرة على هذه الحقيقة. ولكن مع الأسف، ونتيجة لنقل بعض الروايات الموضوعة في كتب الحديث لدى الفريقين، والتفسير الخاطئ والفهم المنحرف لبعض الروايات المعتبرة[1]، إحتمل البعض، بل ربما ذهبوا إلى حذف بعض الآيات من القرآن الكريم. ولكن بالاضافة إلى وجود الدلائل والشواهد التاريخية المسلمة على صيانة القرآن الكريم عن أي تحريف، سواء كان بنحو الزيادة أو كان بنحو النقيصة، وبالإضافة إلى بطلان الحذف المؤدي لاختلال النظام والسبك القرآني المعجز ـ بدليل الإعجاز ـ يمكن أن نثبت اعتمادا على القرآن الكريم بنفسه صيانته من حذف آية أو سورة مستقلة.

فبعد أن أثبتنا أن كل ما في القرآن المتداول اليوم هو كلام الله، ولم يتعرض للزيادة، فستكون محتويات آياته حجة من أقوى الأدلة والحجج النقلية والتعبدية.

(١) كالروايات الواردة في تفسير بعض الآيات، والتعرض لبعض تطبيقاتها و مصاديقها، أو الواردة في مجال رد التفسيرات الخاطئة والتحريفات المعنوية، حيث فهم منها دلالتها على حذف كلمات أو عبارات من القرآن الكريم.

ومن المفاهيم التي يمكن إستفادتها من الآيات القرآنية الكريمة، أن الله تعالى قد تعهد بحفظ هذا الكتاب عن أي تحريف، خلافا لسائر الكتب السماوية، التي وضع مهمة حفظها على عاتق الناس[1].

وتستفاد هذه الفكرة من الآية (٩) من سورة الحجر: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾.

وتتألف هذه الآية الشريفة من جملتين، أكد في الأولى ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ**﴾ ـ أن القرآن الكريم نازل من الله تعالى، ولم يتعرض حين نزوله لأي تغيير أو تلاعب، وفي الثانية ﴿**وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ حيث أستخدم فيها من جديد أدوات التأكيد، والهيئة التي تدل على الإستمرار، وقد أكد فيها تعهده بحفظ القرآن الكريم عن أي تحريف إلى الأبد. ولكن الملاحظ أن هذه الآية وإن دلت على عدم الزيادة في القرآن، ولكن الإستدلال بها على نفي الزيادة إستدلال دوري، وذلك لأن إفتراض زيادة شيء على القرآن الكريم يشمل زيادة هذه الآية أيضا، ونفي هذا الإفتراض بهذه الآية نفسها غير صحيح. ومن هنا، فإننا أبطلنا هذا الإفتراض بالدليل الذي يثبت أن القرآن الكريم معجزة، وبعد ذلك، وبالإستفادة من هذه الآية الشريفة، أثبتنا صيانته عن حذف آية أو سورة مستقلة (بالصورة التي لا تؤدي إلى الإختلال في نظامه وسبكه المعجز) وبذلك تثبت صيانة القرآن الكريم عن التحريف في الزيادة والحذف ببيان مركب من دليل عقلي، ودليل نقلي.

وأخيرا، يلزم علينا تأكيد هذه الملاحظة وهي: أن صيانة القرآن الشريف عن التحريف لا تعني اعتبار كل كتاب ونسخة من القرآن الكريم قرآنا كاملا مصونا من كل خطأ في الكتابة والقراءة، أو أنه لا يمكن أن يتعرض لأي تفسير خاطئ أو تحريف معنوي، أو أن الآيات والسور قد رتبت بنفس ترتيب نزولها، بل إنما نعني

---

(١) كما ذكر في الآية (٤٤) من سورة المائدة حول علماء اليهود والنصارى ﴿**بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء**﴾.

من ذلك، أن القرآن الكريم يبقى بين البشر بصورة يمكن فيها لكل باحث عن الحقيقة من الوصول لآياته كلها كما نزلت، دون زيادة أو نقيصة. ومن هنا فإن نقيصة بعض النسخ القرآنية، أو عروض الخطأ عليها، أو الإختلاف في القراءات، أو ترتيب الآيات والسور بصورة مخالفة لترتيب النزول، أو وجود التحرفات المعنوية، ومختلف أنواع التفسير بالرأي. هذا كله لا ينافي صيانة القرآن الكريم عن التحريفات الذي نبحث فيه.



## الأسئلة



١ ـ لماذا يبحث في موضوع (صيانة القرآن الكريم عن التحريف)؟

٢ ـ ما هي الشواهد التاريخية على صيانة القرآن الكريم عن التحريف؟

٣ ـ ما هو الدليل الذي يمكن إثبات صيانة القرآن به؟

٤ ـ بيّن الدليل على عدم الزيادة في القرآن.

٥ ـ ما هو الدليل على عدم النقيصة في القرآن؟

الدرس الخامس والعشرون

# عالمية الإسلام وخلوده

## المقدمة

إن الإيمان بكل الأنبياء، والتصديق بكل رسالاتهم من المعتقدات الضرورية في الإسلام، وأن إنكار أحد الأنبياء أو أحد أحكامه وتعاليمه يعني إنكار الربوبية التشريعية الإلهية، وبمثابة كفر إبليس.

ومن هنا، فبعد إثبات رسالة الإسلام، يلزم الإيمان به، والإيمان بكل الآيات النازلة عليه، وبجميع الأحكام والتعاليم التي جاء بها من الله تعالى.

ولكن الإيمان بكل نبي، وبكتابه السماوي، لا يستلزم لزوم العمل وفق شريعته. فالملاحظ أن المسلمين يؤمنون بكل الأنبياء العظام عليهم السلام وجميع الكتب السماوية، ولكن لا يمكنهم ولا يجوز لهم العمل بالشرائع السابقة. ومن الواضح أن الوظيفة العملية لكل أمة هي: العمل بتعاليم النبي المرسل لتلك الامة، إذن، فلزوم عمل الناس - جميعاً - بالشريعة الإسلامية انما يثبت فيما لو لم تختص رسالة نبي الإسلام بقوم (كالعرب)، وكذلك فيما لو لم يبعث نبي آخر بعده ينسخ شريعته، وبعبارة أخرى: إن الإسلام دين عالمي وخالد.

ومن هنا، يلزم علينا البحث في هذه المسألة: هل إن رسالة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله عالمية وخالدة؟ أم أنها تختص بقوم أو زمان معين؟ ومن الواضح أنه

لا يمكن دراسة هذه المسألة بالمنهج العقلي البحت، بل لا بد من الإعتماد على منهج البحث في دراسة العلوم النقلية والتاريخية، اي لا بد من مراجعة المستندات والمصادر المعتبرة، ومن ثبت عنده أن القرآن الكريم على حق، وثبت عنه نبوة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وعصمته، فليس هناك أي مصدر آخر أكثر إعتباراً لديه من الكتاب والسنة.

## عالمية الإسلام

إن عالمية الدين الإسلامي، وعدم إختصاصه وتحديده بقوم أو منطقة معينة، من ضروريات هذا الدين الإلهي، وحتى غير معتنقيه يعلمون بأن الدعوة الإسلامية عامة شاملة، وغير محددة بمنطقة جغرافية معينة. إضافة إلى ذلك، هناك الكثير من الشواهد والدلائل التاريخية التي تدل على أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قد بعث الرسائل لرؤساء وملوك الدول القائمة آنذاك، أمثال قيصر الروم، وشاه إيران، وحكام مصر والشام والحبشة، ورؤساء القبائل العربية المختلفة. وأرسل لكل واحد منهم رسولا خاصا، ودعاهم جميعا لاعتناق هذا الدين المقدس، وحذرهم من مغبة الكفر والمساوئ المترتبة على إمتناعهم عن إعتناق الإسلام[1]، ولو لم يكن الدين الإسلامي، عالميا لما تحقق مثل هذه الدعوة الشاملة، ولكان هناك عذر ومسوغ لسائر الأقوام والأمم عن عدم إعتناقه. إذن فلا يمكن التفكيك بين الإيمان بأن الإسلام على حق، وضرورة العمل وفق هذه الشريعة الإلهية، ولا يستثني أي أحد عن الإلتزام العملي بهذا الدين الإلهي.

## الأدلة القرآنية على عالمية الإسلام

تقدم أن القرآن الكريم هو أفضل الأدلة وأكثر المصادر إعتبارا على هذه

---

(١) ذكرت رسائل النبي صلى الله عليه وآله الكتب التاريخية المعتبرة، وقد جمعت في كتاب مستقل اسمه (مكاتيب الرسول).

الحقيقة، وهو المصدر المعتبر والحجة المعتبرة لكل الناس. ومن ألقى نظرة ـ ولو كانت عابرة ـ على هذا الكتاب الإلهي يدرك ـ بكل وضوح ـ عمومية دعوته، وعدم اختصاصها بقوم، أو عنصر، أو لسان.

ومنها: أنه يخاطب الناس جميعا في آيات كثيرة: (يا أيها الناس)[١] أو (يا بني آدم)[٢] ويرى هدايته شاملة لجميع البشر (الناس)[٣] و (العالمين)[٤]، وقد جعل رسالة النبي الأكرم موجهة لجميع الناس (الناس)[٥] و (العالمين)[٦]. وقد أكد في احدى آياته شمول دعوته لكل من إطلع عليها[٧] ومن جانب آخر يخاطب ـ معاتبا ـ أتباع الأديان الأخرى بـ(هل الكتاب)[٨]، ويثبت رسالة النبي صلى الله عليه وآله في حقهم، ويرى الهدف من نزول القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وآله هو إعلاء الإسلام وإظهاره على سائر الأديان[٩].

ومع التأمل في هذه الآيات، لا يبقى أي شك في عمومية الدعوة القرآنية وعالمية الدين الاسلامي المقدس.

## خلود الإسلام

كما أن الآيات المذكورة تثبت عمومية الإسلام وعالميته، من خلال استعمال الألفاظ العامة أمثال (بني آدم، والناس، والعالمين)، وتوجيه الخطاب للامم

---

(١) البقرة: ٢١، والنساء: ١، ١٧٤، وفاطر: ١٥.

(٢) الاعراف: ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ و ٣١ و ٣٥، ويس: ٦٠.

(٣) البقرة: ١٨٥ و ١٨٧، وآل عمران: ١٣٨، وابراهيم: ١ و ٥٢، والجاثية: ٢٠، والزمر: ٤١، والنحل: ٤٤، والكهف: ٥٤، والحشر: ٢١.

(٤) الانعام: ٩٠، ويوسف: ١٠٤، وسورة ص: ٨٧، والتكوير: ٢٧، والقلم: ٥٢.

(٥) النساء: ٧٩، والحج: ٤٩، وسبأ: ٢٨.

(٦) الأنبياء: ١٠٧، والفرقان: ١.

(٧) الانعام: ١٩.

(٨) آل عمران: ٦٥، و٧٠ و٧١ و٩٨ و٩٩ و١١٠، والمائدة: ١٩.

(٩) التوبة: ٣٣، والفتح: ٢٨، والصف: ٩.

الأخرى من غير العرب، وأتباع الأديان الأخرى أمثال (يا أهل الكتاب)، فهي كذلك ـ ومن خلال الإطلاق الزماني ـ تنفي أي تحديد وتقييد له بزمان معين، وخاصة هذا التعبير ﴿**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**﴾[1]، حيث لا يبقى معه شك في هذا المجال.

ويمكن الإستدلال على هذه الحقيقة ـ أيضا ـ بالآيتين (٤١) و (٤٢) من سورة فصلت: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾.

حيث تدل على أن القرآن الكريم لن يفقد صحته وإعتباره أبدا. كما أن الأدلة التي تثبت ختم النبوة بنبي الإسلام (وسنبحث عنها في درس لاحق) تبطل كل ما يتوهم عن نسخ هذا الدين الإلهي، بواسطة نبي آخر أو شريعة أخرى.

وقد وردت روايات كثيرة تتضمن هذه الفكرة:

**(حلال محمد حلال أبداً إلى يوم القيامة، وحرامه حرام أبداً إلى يوم القيامة)**[2].

اضافة إلى أن خلود الاسلام ـ كعالميته ـ من ضروريات هذا الدين الإلهي، ولا يحتاج إلى دليل آخر غير الادلة التي تثبت أن الإسلام على حق.

## معالجة بعض الشبهات

إن أعداء الاسلام الذين بذلوا كل جهودهم في الوقوف بوجه هذا الدين الإلهي، والمنع من إنتشاره وإتساعه، حاولوا ـ من خلال طرح بعض الشبهات ـ أن يثبتوا أن الدين الإسلامي إنما نزل للجزيرة العربية فحسب، وليست رسالته شاملة لسائر الناس!

---

(١) التوبة: ٣٣، والفتح: ٢٨، والصف: ٩.

(٢) الكافي، ج١، ص ٥٨، وج٢، ص١٧، والبحار، ج٢، ص ٢٦٠، وج ٢٤، ص ٢٨٨، ووسائل الشيعة، ج ١٨، ص ١٢٤.

وقد تمسكوا ببعض الأيات التي تدل أن النبي صلى الله عليه وأله إنما كان مأمورا بهداية عشيرته وأقربائه، أو أهل مكة وما يحاذيها[1]. وكذلك الآية (٦٩) من سورة المائدة فإنها ـ بعد أن أشارت لليهود والصابئين والنصارى ـ إعتبرت محور السعادة في الإيمان والعمل الصالح، ولم تتطرق إلى تأثير إعتناق الدين الإسلامي في السعادة.

وإضافة لذلك، فإن الفقه الاسلامي لم يعتبر أهل الكتاب بمستوى المشتركين، بل يرى أنهم لو دفعوا الجزية (وهي بدل الخمس والزكاة المفروضين على المسلمين) فلهم الأمان في ظل الدولة الإسلامية، ويمكنهم العمل بأحكام شريعتهم، وهذا دليل على إعتبار سائر الأديان.

**ونقول في الجواب:** ان الآيات تذكر عشيرة النبي صلى الله عليه وآله أو أهل مكة، إنما هي في مجال بيان مراحل الدعوة، حيث تبدأ من عشيرته الأقربين، وبعد ذلك تمتد لسائر أهل مكة وما يحاذيها، ثم تأخذ بالإتساع لسائر البشر في العالم، ولا يمكن لهذه الآيات أن تكون مخصصة للآيات الدالة على عالمية رسالة النبي صلى الله عليه وآله، وذلك لإنه ـ بالاضافة إلى أن شكل التعبير في هذه الآيات ولحنها يأبى عن التخصيص ـ فإن مثل هذا التخصيص يلزم منه تخصيص الأكثر وهو مستهجن عند العقلاء.

وأما الآية المذكور في سورة المائدة، فهي في مجال بيان هذه الحقيقة، بأن مجرد الإنتساب لهذا الدين أو ذاك لا يكفي لغرض الوصول للسعادة الحقيقية، بل إن عامل السعادة هو الإيمان الواقعي والعمل بالوظائف التي شرعها الله تعالى لعباده، ووفق الأدلة التي تثبت عالمية الإسلام وخلوده فإن وظيفة الناس ـ جميعا ـ بعد ظهور نبي الإسلام هي العمل بأحكام هذا الدين وتشريعاته.

---

(١) ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ الشعراء: ٢١٤، وأيضاً: الانعام: ٩٢، والشورى: ٧، والسجدة: ٣، والقصص: ٤٦، ويس: ٥ و٦.

وأما الميزة التي تميز أهل الكتاب عن سائر الكفار في الدين الإسلامي فلا تعني إعفاءهم عن إعتناق الإسلام والعمل بأحكامه، بل إنه في واقعه ارفاق دنيوي في حقهم لبعض المصالح، وفي رأي الشيعة إن هذا الإرفاق مؤقت، سيعلن عن الحكم النهائي في حقهم، في زمان ظهور ولي العصر (عجل الله فرجه) وسيكون الموقف منهم كالموقف من سائر الكفار، ويمكن إستفادة هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه**﴾.



## الأسئلة



١ ـ في أية صورة يلزم على جميع البشر إتباع الشريعة الإسلامية؟

٢ ـ بيّن الأدلة القرآنية على عالمية الإسلام وخلوده.

٣ ـ وضّح هذه الفكرة: إن الآيات التي تأمر نبي الإسلام بهداية عشيرته الأقربين وأهل مكة، لا تدل على إختصاص رسالته بهم.

٤ ـ وضح هذه الفكرة: إن الآية (٦٩) من سورة المائدة، لا تدل على إعفاء أية أمة من إتباع الإسلام.

٥ ـ وضّح هذه الفكرة: إن الإذن لأهل الذمة في العمل بشريعتهم لا يدل على إعفائهم من إعتناق الشريعة الإسلامية.

الدرس السادس والعشرون

# ختم النبوة

## المقدمة

بملاحظة خلود الدين الإسلامي لا يبقى أي إحتمال لبعثة نبي آخر ينسخ الشريعة الإسلامية، ولكن يبقى إحتمال آخر: وهو إمكان بعثة نبي آخر يقوم بمهمة تبليغ الإسلام ونشره، كما تكفل الكثير من الأنبياء السابقين بهذه المهمة، سواء كانوا معاصرين لصاحب الشريعة - أمثال لوط عليه السلام الذي كان معاصرا لإبراهيم عليه السلام تابعا لشريعته - أو الأنبياء الذين بعثوا بعد النبي صاحب الشريعة، ولكنهم تابعون له، أمثال أكثر أنبياء بني إسرائيل. ومن هنا يلزم علينا البحث عن ختم النبوة بنبي الاسلام في بحث مستقل، حتى لا يبقى مثل هذا الإحتمال.

## الدليل القرآني على ختم النبوة

من ضروريات الإسلام إنقطاع سلسلة الأنبياء عليهم السلام وختمها بنبي الإسلام، ولم ولن يبعث أي نبي بعده. وحتى غير المسلمين يعلمون بأن هذه الحقيقة من جملة المعتقدات الإسلامية، التي يلزم على كل مسلم الإعتقاد بها، ولذلك فهي كسائر ضروريات الدين لا تحتاج لإستدلال، ولكن مع ذلك يمكن إستفادتها من القرآن الكريم والروايات المتواترة.

يقول القرآن الكريم: **﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾**[1].

حيث عبرت بصراحة عن النبي صلى الله عليه وآله بأنه خاتم الأنبياء جميعا.

وقد وجه بعض أعداء الإسلام إعتراضين على دلالة هذه الآية على ختم النبوة بالنبي صلى الله عليه وآله:

**أحدهما:** إن لفظة الخاتم، وردت بمعنى آخر غير الإنتهاء، وهو خاتم اليد أي الحلقة التي في الإصبع للزينة، وإن المراد من الخاتم في هذه الآية لعله هذا المعنى.

ثانيهما: على تقدير أن معنى الخاتم هو المعنى المعروف، ولكن معناها أن سلسلة (الأنبياء) تختم بالنبي صلى الله عليه وآله، ولا تدل على خاتمية سلسلة (الرسل) به. **والجواب عن الإعتراض الأول:** إن معنى الخاتم (ما يختم به الشيء) وخاتم الإصبع إنما سمي بذلك لهذا المعنى، لتختم وتوقع به الرسائل وأمثالها. والجواب عن الإعتراض الثاني: إن كل نبي يملك مقام الرسالة فله مقام النبوة أيضا، وبانتهاء سلسلة الأنبياء تنتهي سلسلة الرسل أيضا، فإن مفهوم (النبي) وإن لم يكن أعم من مفهوم الرسول، ولكن النبي من حيث المورد أعم من الرسول[2].

---

(١) سورة الاحزاب، الآية: ٤٠.

(٢) إن لفظة (الرسول) بمعنى (حامل الرسالة)، ولفظة النبي إذا كانت مشتقة من مادة (نبأ) فالنبي بمعنى (صاحب الخبر المهم)، وإذا كانت مشتقة من مادة (نبو) فهو بمعنى: (صاحب المقام الرفيع والشريف). واعتقد البعض أن مفهوم النبي أعم من مفهوم الرسول وذلك لأن النبي هو الذي نزل عليه الوحي من الله، سواء كان مأمورا بالإبلاغ للآخرين أم لم يكن، بينما الرسول هو المأمور بإبلاغ الوحي أيضا. ولكن هذا التفسير غير صحيح، وذلك لأنه ذكرت بعض الآيات الكريمة صفة (النبي) بعد صفة (الرسول)، مع أنه وفق التفسير المذكور، يلزم أن تذكر الصفة التي تتضمن المفهوم العالم وهي (النبي) قبل ذكر الصفة الخاصة (الرسول) إضافة الى عدم وجود دليل على إختصاص الأمر بإبلاغ الوحي بالرسل. وورد في بعض الروايات أن مقتضى مقام النبوة أن يرى صاحبها ملك الوحي في النوم، وأن يسمع صوته فحسب في اليقظة، بينما صاحب مقام الرسالة يشاهد ملك الوحي في اليقظة أيضا. ولكن هذا الفرق لا يمكن حمله على مفهوم اللفظ، وعلى كل حال فالذي يمكن تقبله أن النبي من حيث المصداق (لا المفهوم) أعم من الرسول، أي أن الأنبياء جميعا كانوا يملكون مقام النبوة، وأما مقام الرسالة فهو مختص بجماعة منهم، وعدد الرسل وفق الرواية السابقة (ثلاثمئة وثلاثة عشر) وبطبيعة الحال يكون مقامهم أسمى من مقام سائر الأنبياء كما أن الرسل لم يكونوا متساوين من حيث الدرجة والفضيلة، وقد نال بعضهم مقام (الإمامة) أيضا.

## الأدلة الروائية على ختم النبوة

ورد التصريح والتأكيد على ختم النبوة بنبي الإسلام في المئات من الروايات، منها حديث المنزلة[1] الذي نقله الشيعة وأهل السنة متواترا عن النبي صلى الله عليه وآله بحيث لا يبقى معه أي شك في صدور مضمونه، وذلك حين خرج النبي صلى الله عليه وآله في غزوة تبوك وخلف عليا عليه السلام مكانه في المدينة: (فبكى علي، فقال له رسول الله (ص): أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس بعدي نبي).

وفي رواية أخرى عن النبي صلى الله عليه وآله: **(أيها الناس، لا نبي بعدي ولا أمة بعدكم)**[2].

وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله إنه قال: **(أيها الناس إنه لا نبي بعدي، ولا سنة بعد سنتي)**[3].

ونقل هذا المعنى في أكثر من خطبة من نهج البلاغة[4]. وفي الروايات والأدعية والزيارات المأثورة عن الأئمة الأطهار عليهم السلام، بيد أنه يضيق المجال لو نقلناها كلها.

## السر في ختم النبوة

إن الحكمة في تعدد الأنبياء وبعثتهم المتدرجة هي: أنه لا يمكن لفرد واحد تبليغ الرسالة الإلهية ونشرها ـ في الأزمنة السابقة ـ في أقطار العالم كافة، وفي كل الأمم

(1) بحار الانوار، ج ٣٧، ص ٢٥٤ ـ ٢٨٩، وصحيح البخاري، ج ٣، ص ٥٨، وصحيح مسلم، ج ٢، ص ٣٢٣، وسنن ابن ماجة، ج ١، ص ٢٨، ومستدرك الحاكم، ج ٣، ص ١٠٩، ومسند ابن حنبل، ج ١، ص ٢٨، ومستدرك الحاكم، ج ٣، ص ١٠٩، ومسند ابن حنبل، ج ١، ص ٣٣١، وج ٢، ص ٣٦٩ و٤٣٧.

(2) وسائل الشيعة، ج ١، ص ١٥، والخصال، ج ١، ص ٣٢٢، والخصال، ج٢، ص٤٨٧.

(3) وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٥٥٥، ومن لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ١٦٣، وكشف الغمة، ج ١، ص ٢١. (في الأصل والترجمة: وبحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٥٢١، إلا أننا لم نجده فيه ـ المصحح).

(4) نهج البلاغة، الخطبة الأولى والخطبة ٦٩، و ٨٣، و ٨٧، و ١٢٩، و١٦٨، و ١٩٣، و ٢٣٠.

والشعوب هذه من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن إتساع العلاقات وتعقيدها، وحدوث الظواهر الاجتماعية الجديدة، كان يفرض وضع قوانين جديدة أو تغيير القوانين السابقة وكذلك فإن حدوث التغيرات والتحريفات نتيجة للتدخل المغرض أو الجاهل لبعض الأفراد والجماعات، فيستدعي كل ذلك تصحيحا وتعديلا للتعاليم الإلهية من قبل نبي آخر. ولكن لو توفرت الظروف والشروط التي يمكن معها لنبي واحد تبليغ رسالته الإلهية للعالم كله وبالإستعانة بأنصاره وخلفائه، إضافة إلى كون أحكام شريعته وتعاليمها وتشريعاتها مستجيبة لكل إحتياجات المجتمعات الراهنة والمستقبلية، ومتضمنة لجميع الإحتياطات الضرورية للمسائل المستجدة والمستحدثة، وكذلك في حالة وجود الضامن الذي يكفل بقاءها وصيانتها عن التحريفات، فمع توفر كل هذه الظروف والعوامل فلا مسوغ لبعثة نبي آخر.

ولكن معارف البشر العادية وعلومهم لا يمكنها تحديد مثل هذه الظروف والعوامل، أما الله فبعلمه اللامتناهي المحيط يمكنه تحديد الزمان الذي تتحقق فيه هذه الظروف، وهو الذي يمكنه الإعلام عن ختم النبوة، كما فعل ذلك في آخر كتبه السماوية.

بيد أن ختم النبوة لا يعني قطع علاقة الهداية - تماما - بين الله والعباد، فإن الله تعالى يفيض من العلوم الغيبية لبعض عباده الصالحين متى ما رأى المصلحة تقتضي ذلك، وإن لم يكن ذلك عن طريق وحي النبوة، وكما يعتقد الشيعة بأن أمثال هذه العلوم قد أفاضها الله على الأئمة المعصومين عليه السلام.

## الجواب عن شبهة

توصلنا - مما سبق - إلى أن السر في ختم النبوة:

أولاً: إن نبي الإسلام - بمعونة أنصاره وخلفائه - يمكنه إيصال رسالته إلى

أسماع جميع البشر في العالم.

وثانياً: التكفل بصيانة الكتاب السماوي عن أي تحريف.

وثالثاً: إن الشريعة الإسلامية يمكنها الإستجابة لإحتياجات البشر كلها حتى نهاية العالم.

ولكن يبرز إعتراض على الفكرة الثالثة وهو: كما أن تعقيد العلاقات الإجتماعية في الأزمنة السابقة اقتضى وضع أحكام جديدة، أو تغيير الأحكام السابقة عليها، ولذلك كان يبعث نبي آخر، فإن الأمر ظل كذلك حتى بعد نبي الإسلام، فقد حدثت متغيرات بارزة أضحت معها العلاقات الإجتماعية أكثر تعقيدا، فكيف لا تقتضي هذه المتغيرات شريعة جديدة؟

والجواب هو: إنه ـ كما أشرنا إلى ذلك سابقا ـ ليس في مقدور الإنسان العادي تحديد المتغيرات والتحولات التي تقتضي تغير التشريعات الأساس، وذلك لأننا لا نحيط بعلل الأحكام والتشريعات وحكمها، بل إننا ـ ومن خلال الأدلة المبرهنة على خلود الإسلام، وختم النبوة بالنبي صلى الله عليه وآله ـ نكتشف عدم الإحتياج لتغيير الأحكام والتشريعات الإسلامية الأساس.

أجل، نحن لا ننكر ظهور بعض الوقائع الإجتماعية الجديدة التي تقتضي وضع أحكام جديدة، ولكن قد جعلت في الشريعة الإسلامية أصول وقواعد عامة توضع على أساسها أمثال هذه الأحكام والتشريعات الجزئية، حيث يمكن لذوي الصلاحية على أساسها وضع الأحكام اللازمة لمعالجتها وتطبيقها.



# الأسئلة



١ ـ كيف يمكن لنا إثبات ختم النبوة بالدليل القرآني؟

٢ ـ إذكر ثلاث روايات من الروايات الدالة على الخاتمية.

٣ ـ لماذا ختمت سلسلة الأنبياء بظهور نبي الإسلام صلى الله عليه وآله؟

٤ ـ هل أن ختم النبوة يعني إنسداد طرق الإستفادة من العلوم الإلهية؟ ولماذا؟

٥ ـ كيف يمكن تلبية حاجة المجتمع للأحكام التي تعالج الوقائع المستجدة والمستحدثة؟

الدرس السابع والعشرون

# الإمامة

## المقدمة

إن النبي صلى الله عليه وآله بعد هجرته للمدينة، ودفاع أهل المدينة المستميت عنه، وعن المسلمين الذين هاجروا من مكة - والذين سموا بـ(المهاجرين)، بينما سمي أهل المدينة بـ(الأنصار) - وضع دعائم وأسس المجتمع الإسلامي وقام بإدارته. وكان مسجد النبي صلى الله عليه وآله ملجأً للمهاجرين والمحرومين، ومعالجة قضاياهم ومشاكلهم الإقتصادية والمعيشية، إضافة إلى كونه موضعا للعبادة، ومنطلقا لنشر الرسالة الالهية وتعليم الناس وتربيتهم، ومعالجة الخصومات والمسائل القضائية، ومركزا لإصدار القرارات العسكرية، وتزويد جبهات الحرب بالعدة والعدد، وإسناد الجبهات، ومعالجة سائر القضايا الحكومية.

وبإيجاز، كانت إدارة شؤون الناس وقضاياهم الدينية والدنيوية تتم على يد النبي صلى الله عليه وآله. وكان المسلمون يرون أنفسهم مكلفين بإطاعة تعاليم النبي صلى الله عليه وآله وأوامره، لأن الله تعالى - إضافة لفرضه إطاعة الرسول

المطلقة عليهم[1] كان قد أصدر أوامر مؤكدة على ولاية الرسول صلى الله عليه وآله وقيادته للامة[2] في خصوص المسائل والمجالات السياسية والقضائية والعسكرية.

وبعبارة أخرى: إن النبي صلى الله عليه وآله إضافة لمنصب النبوة والرسالة، ومنصب تعليم الأحكام وتبيينها، كان يملك منصبا إلهيا آخر، هو قيادة الأمة الإسلامية والولاية عليها، وتتفرع منها مناصب أخرى، كالقضاء والقيادة العسكرية وغيرهما. وكما أن الدين الإسلامي إشتمل على الوظائف والتعاليم العبادية والإخلاقية، فهو كذلك إشتمل على الأحكام السياسية والإقتصادية والحقوقية وغيرها. كما كان نبي الإسلام مكلفا بوظائف التبليغ ومهام التعليم والتربية، وكذلك كان مكلفا ـ من قبل الله ـ بمهمة تنفيذ الأحكام والتشريعات الإلهية وتطبيقها وكان بيده زمام كل المهام والمناصب الحكومية.

ومن البديهي أن الدين الذي، يدعي قيادة البشرية كلها حتى نهاية العالم، لا يمكنه عدم الإهتمام بهذه المسائل والقضايا، ولا يمكن للمجتمع القائم على أساس هذا الدين أن يفتقد مثل هذه المهام والمناصب السياسية والحكومية، هذه المناصب والمسؤوليات التي يشملها جميعا عنوان (الإمامة). ولكن الحديث هو عمن يقوم بهذه المهمة بعد وفاة الرسول؟ ومن الذي يعين مثل هذا الشخص في هذا المنصب؟

وهل أن الله تعالى ـ وكما أنه هو الذي نصب النبي صلى الله عليه وآله في هذا المنصب ـ نصب ـ هو أيضا ـ غيره فيه؟ وهل تتوقف مشروعية تولي هذا المنصب

---

(١) ﴿قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ آل عمران: ٣٢، وانظر أيضا: النساء: ١٢، و١٤، و٦٩ و٨٠، والمائدة: ٩٢، والانفال: ١، و٢٠ و٤٦، والتوبة: ٧١، والنور: ٥١، ٥٤، و٥٦، والاحزاب: ٦٦، و٧١، والحجرات: ١٤، والفتح: ١٦، و١٧، ومحمد: ٣٢، والمجادلة: ١٢، والممتحنة: ١٢، والتغابن: ١٢، والجن: ٢٣.

(٢) ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ ...﴾ المائدة: ٤٨، وانظر أيضا: آل عمران: ١٥٢، والنساء: ٤٢، و٥٩، و٦٥، و١٠٥، والحج: ٦٧، والاحزاب: ٦، ٣٦، والمجادلة: ٨ـ ٩، والحشر: ٧.

على إحراز التعيين الإلهي؟ أم أن هذا التعيين من قبل الله مختص بالنبي صلى الله عليه وآله وأما بعده، فعلى الناس إنتخاب الإمام وتعيينه واليا وقائدا عليهم؟ ثم هل يملك الناس ـ حقا ـ مثل هذا الحق في إنتخاب الإمام أم لا؟

وهذه هي النقطة الرئيسة في الخلاف بين الشيعة وأهل السنة. فالشيعة تعتقد بأن الإمامة منصب إلهي، لا بد وأن ينصب فيه الأفراد الصالحون لذلك من قبل الله تعالى، وقد قام الله تعالى بهذا التعيين بواسطة نبيه صلى الله عليه وآله حيث عين أمير المؤمنين عليا عليه السلام خليفة له من بعده مباشرة، وعين من بعده أحد عشر إماما من أولاده خلفاء من بعده.

ولكن أهل السنة يعتقدون بأن الإمامة الإلهية ـ كالنبوة والرسالة ـ قد إنتهت بوفاة النبي صلى الله عليه واله وقد أوكل للناس مهمة تعيين الإمام من بعده، بل صرح بعض كبار علماء أهل السنة، أنه لو سيطر أحد بقوة السلاح على الناس وأمسك بزمام أمورهم، فتجب على الآخرين إطاعته(١).

ومن الواضح أن مثل هذه الآراء تفتح الابواب أمام الجبابرة والطواغيت والمحتالين للتوصل إلى مطامعهم ومآربهم، وتوفر عوامل التمزق والإنحطاط والتخلف بين المسلمين. وفي الواقع، إن أهل السنة باعتقادهم بشرعية الإمامة بدون التعيين الإلهي وضعوا الحجر الأساس لفكرة عزل الدين عن السياسة. وبإعتقاد الشيعة أن هذا الأمر هو المنعطف الخطير للإنحراف عن المسير الإسلامي الأصيل والصحيح، وعبادة الله في جميع الجوانب والأبعاد الحياتية، وكذلك كان منطلقا للآلاف من الإنحرافات الأخرى التي ظهرت من حين وفاة الرسول صلى الله عليه وآله بين المسلمين.

ومن هنا، كان من الضروري على كل مسلم البحث في هذا الموضوع بكل إهتمام،

---

(١) الأحكام السلطانية، ابو يعلي، وترجمة (السواد الاعظم) لأبي القاسم السمرقندي، ص ٤٠ ـ ٤٢.

وبعيدا عن كل تقليد وعصبية[1] وأن يحاول جهده في إكتشاف المذهب الحق والدفاع عنه، ويلزم التأكيد على أننا يجب أن نضع نصب العين المصلحة العامة للعالم الإسلامي، وأن يتجنب أتباع المذاهب المختلفة التفرقة والصراع والتناحر التي تمهد الطريق وتوفر الظروف الملائمة لأعداء الإسلام من أجل تحقيق أطماعهم والوصول لمآربهم الجهنمية.

ويلزم عدم ممارسة الأعمال التي توسع من شقة الخلاف بين صفوف المسلمين، فيتزعزع بها تلاحمهم وقوتهم تجاه الكفار، بحيث لا تعود مفاسده وأضراره الخطيرة إلا على جميع المسلمين، ولا تؤدي إلا إلى ضعف الامة الإسلامية، ولكن الحفاظ على الوحدة والتلاحم بين المسلمين ينبغي أن لا يكون عائقا ومانعا من البحث وبذل الجهود، في سبيل التعرف على المذهب الحق، وتوفير الظروف الملائمة والأجواء الصالحة لدراسة مسائل الإمامة ومعالجتها، هذه المسائل التي يكون لمعالجتها الصحيحة دورها الفاعل في مصير المسلمين وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

## مفهوم الإمامة

الإمامة في اللغة، الرئاسة وكل من يتصدى لرئاسة جماعة يسمى (الإمام)، سواء كان في طريق الحق أو الباطل، وقد اطلق مصطلح (أئمة الكفر)[2] في القرآن الكريم على رؤساء الكفار واطلق على من يقتدي به المصلون (إمام الجماعة).

---

(١) ومن الجدير بالذكر أن العلماء الكبار كتبوا في هذا المجال الكثير من الكتب والدراسات وبمختلف اللغات، وبأساليب عديدة، ومهدوا طريق الحق للباحثين عن الحقيقة، نذكر نماذج منها أمثال: كتاب عبقات الأنوار، والغدير، ودلائل الصدق، وغاية المرام واثبات الهداة، ونحث من لم تسمح له الظروف بالتحقيق والتوسع على مطالعة كتاب (المراجعات)، وهو مجموعة من الرسائل بين عالمين من علماء الشيعة وأهل السنة، وكتاب (أصل الشيعة وأصولها).

(١) ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ التوبة: ١٢.

والإمامة في مصطلح علم الكلام عبارة عن: الرئاسة العامة الشاملة على الأمة الإسلامية وقيادتها في جميع الأبعاد والمجالات الدينية والدنيوية.

وإنما ورد ذكر كلمة (الدنيوية) لأجل التأكيد على سعة ميدان الإمامة ومجالها، وإلا فإن تدبير القضايا الدنيوية للأمة الإسلامية وإدارتها جزء من الدين الإسلامي، وهذه الرئاسة والقيادة ـ في رأي الشيعة ـ إنما تكون شرعية، فيما لو كانت من قبل الله تعالى، ولا يكتسب أي شخص مثل هذا المقام أصالة (لا نيابة) إلا إذا كان معصوما عن الخطأ في بيان الأحكام والمعارف الإسلامية، ومنزها من الذنوب والمعاصي. وفي الواقع إن الإمام المعصوم يمتلك كل مناصب النبي صلى الله عليه وآله سوى النبوة والرسالة، وكما أن أحاديثه حجة في بيان الحقائق والتشريعات والأحكام والمعارف الإسلامية، فكذلك تجب إطاعة أوامره وأحكامه في مختلف القضايا الحكومية.

ومن هنا يتبين أن إختلاف الشيعة وأهل السنة في موضوع الإمامة يدور حول ثلاث مسائل:

الأولى: لا بد من نصب الإمام وتعيينه من قبل الله تعالى.

الثانية: لا بد وأن يملك الإمام العلم الموهوب له من الله، وأن يكون مصانا عن الخطأ.

الثالثة: لا بد وأن يكون معصوما من المعصية.

ومن الواضح أن العصمة لا تختص بالإمامة، وذلك لأن فاطمة الزهراء عليها السلام ـ باعتقاد الشيعة ـ كانت معصومة، ولكنها لا تمتلك مقام الإمامة. كما أن مريم عليها السلام كانت تمتلك مقام العصمة، ويمكن أن يكون هناك من بين أولياء الله من بلغ مثل هذا المقام، وإن لم نطلع عليهم، والإنسان المعصوم لا يتيسر التعرف عليه إلا من طريق التعريف الإلهي.



# الأسئلة



١ ـ ما هي المناصب الإلهية الأخرى لنبي الإسلام غير النبوة والرسالة؟

٢ ـ ما هي نقطة الخلاف الرئيسة بين الشيعة وأهل السنة؟

٣ ـ ما هي الآثار التي تترتب على الإعتقاد بالإمامة بدون التعيين الإلهي؟

٤ ـ إذكر المعنى اللغوي والإصطلاحي للإمامة.

٥ ـ ما هي المسائل الأساس لموضوع الإمامة؟

الدرس الثامن والعشرون

# الحاجة لوجود الإمام

## المقدمة

يتوهم الكثير ممن لم يدرس المسائل العقائدية بعمق ودقة أن الخلاف بين الشيعة وأهل السنة فيما يخص الإمامة يتركز حول هذه النقطة، إن الشيعة يعتقدون أن النبي صلى الله عليه وآله نصب علي بن أبي طالب عليه السلام خليفة له في إدارة الامة، بينما أهل السنة يعتقدون أنه لم يصدر مثل هذا التعيين، وإنما الناس قد إختاروا الحاكم بإرادتهم وإختيارهم، وأن الخليفة الأول عين بنفسه خليفة من بعده، وفي المرحلة الثالثة، وضعت مهمة إختيار الخليفة على عاتق جماعة مؤلفة من ستة أفراد، والخليفة الرابع إنتخبه الناس أيضا إنتخابا عاما، ولذلك لا توجد طريقة معينة لتعيين الخليفة بين المسلمين، ومن هنا تصدى لهذا المنصب بعد الخليفة الرابع كل من كان أقوى من غيره عسكريا، كما هو الأسلوب المتبع في غير البلدان الإسلامية أيضا.

وبعبارة أخرى: قد يتصور البعض أن الشيعة يعتقدون في مجال تعيين الإمام الأول بما يعتقده أهل السنة في تعيين الخليفة الثاني من قبل الخليفة الأول، مع هذا الإختلاف بأن رأي النبي صلى الله عليه وآله وتعيينه قد تقبله الناس! ولكن مع

غض النظر عن هذا التساؤل:

كيف امتلك الخليفة الأول مثل هذا الحق في تعيين الخليفة من بعده؟ ولماذا لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله - باعتقاد أهل السنة - أكثر شعورا واهتماما بالإسلام منه؟

وكيف أهمل الامة الإسلامية الوليدة دون قائد مع أنه كلما خرج من المدينة للجهاد، كان يعين خليفة له فيها، إضافة إلى أنه صلى الله عليه وآله أخبر بنفسه عن وقوع الخلافات والفتن في أمته؟ مع غض النظر عن كل هذه التساؤلات - وتساؤلات أخرى - لا بد وأن نعرف أن الخلاف بين السنة والشيعة يدور قبل كل شيء حول هذه الفكرة، هل أن الإمامة مقام ديني خاضع للتشريع والتعيين الإلهي؟ أم أنها سلطة دنيوية خاضعة للعوامل الإجتماعية؟ يعتقد الشيعة بأنه حتى النبي صلى الله عليه وآله نفسه لم يكن له أي دور مستقل في تعيين خليفته، بل قام بهذا التعيين بأمر إلهي. وفي الواقع إن الحكمة في ختم النبوة مرتبطة - تماماً - بتعيين الإمام المعصوم. ومع وجود مثل هذا الإمام فإنه سيكفل توفير المصالح الضرورية في الامة الإسلامية بعد النبي صلى الله عليه وآله. ومن هنا يتبين أنه لماذا طرحت الإمامة في الفكر الشيعي كأصل عقائدي، لا كحكم فقهي فرعي ولماذا اعتبرت الشروط الثلاثة في الإمام (العلم الموهوب من الله، والعصمة، والتعيين الإلهي) ولماذا امتزجت هذه المفاهيم في عرف الكلام الشيعي مع مفهوم المرجعية في معرفة الأحكام الإلهية والحكومة والولاية على الامة الإسلامية، وكأنما لفظة الإمامة تدل على جميع هذه المفاهيم. ومن هنا - وبعد أن تعرفنا على مفهوم الإمامة وموقعها بين معتقدات الشيعة - نبحث حول مدى صحة هذا المعتقد.

## ضرورة وجود الإمام

ذكرنا فيما سبق أن تحقيق الهدف من خلق الإنسان مرتبط بهدايته بواسطة

الوحي، وقد اقتضت الحكمة الإلهية بعثة أنبياء يعلمون البشر طريق السعادة في الدنيا والآخرة والإستجابة لهذه الحاجة فيه. وكذلك تربية الأفراد المؤهلين وإيصالهم لآخر مرحلة كمالية يمكنهم الوصول اليها. وكذلك القيام بتنفيذ الأحكام والتشريعات الإجتماعية الدينية فيما لو توفرت الظروف الإجتماعية لذلك.

وتقدم أن الدين الإسلامي دين عالمي وخالد، لا ينسخ ولا يأتي بعد نبي الإسلام صلى الله عليه وآله نبي آخر. وانما يتوافق ختم النبوة مع الحكمة من بعثة الأنبياء فيما لو كانت الشريعة السماوية الأخيرة مستجيبة لجميع الإحتياجات البشرية، وقد ضمن بقاؤها حتى نهاية العالم. وقد توفر القرآن الكريم على هذا التكفل والضمان، فقد تعهد الله تعالى بحفظ هذا الكتاب العزيز عن كل تغيير وتحريف، ولكن لا تستفاد جميع الأحكام والتعاليم الإسلامية من ظواهر الآيات الكريمة.

فمثلا. يمكن التعرف من القرآن الكريم على عدد ركعات الصلاة، وطريقة ادائها، ومئات أخرى من الأحكام الواجبة والمستحبة. وليس القرآن الكريم في مقام بيان تفاصيل الأحكام والتشريعات، بل وضع مهمة بيانها على عاتق النبي صلى الله عليه وآله[1] من خلال العلم الذي وهبه الله تعالى له (غير الوحي القرآني) ومن هنا تثبت حجية سنة النبي صلى الله عليه وآله واعتبارها كمصدر من المصادر الأصيلة لمعرفة الإسلام.

ولكن الظروف الصعبة التي عاشها النبي صلى الله عليه وآله كسنوات الحصار في شعب أبي طالب، وعشر سنين من القتال مع أعداء الإسلام، لم تسمح له ببيان جميع الأحكام والتشريعات الإسلامية للناس كافة. وحتى ما تعلمه الأصحاب، لم

---

(١) ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ١٥١. وانظر أيضا: آل عمران: ١٦٤، والجمعة: ٢. والنحل: ٤٤، و٤٤، والاحزاب: ٢١، والحشر: ٧.

يضمن الحفاظ عليه، فقد اختلف في طريقة وضوئه صلى الله عليه وآله، بالرغم من أنها كانت بمرأى من الجميع سنوات طويلة. إذن، فإذا كانت أحكام هذا العمل معرضة للإختلافات والخلاف - وهو عمل يحتاجه جميع المسلمين ويمارسونه يوميا، وليست هناك دوافع على حدوث التحريف والتغيير العمدي فيه - فإن حظر الخطأ والاشتباه في النقل، والتحريفات المتعمدة أشد وأكثر في مجال الأحكام الدقيقة، وخاصة تلك الأحكام والتشريعات التي تصطدم وأهواء بعض الأفراد، وأطماع بعض الجماعات ومصالحهم[1]. ومن خلال هذه الملاحظات يتضح أن الدين الإسلامي إنما يمكن طرحه كدين كامل وشامل يستجيب لكل الإحتياجات ولجميع البشر، وحتى نهاية العالم، فيما لو افترض وجود طريق لتوفير المصالح الضرورية للأمة في داخل الدين نفسه، تلك المصالح التي يمكن أن تتعرض للتهديد والتدمير مع وفاة الرسول صلى الله عليه وآله ولا يتمثل هذا الطريق إلا في تعيين الخليفة الصالح للرسول صلى الله عليه وآله، هذا الخليفة الذي يملك العلم الموهوب من الله، ليمكنه بيان الحقائق الدينية بكل أبعادها وخصوصياتها، ويتمتع بتملكه العصمة، حتى لا يخضع لتأثير الدوافع النفسانية والشيطانية وحتى لا يرتكب التحريف العمدي في الدين، وكذلك يمكنه القيام بالدور التربوي الذي كان يملكه النبي، والأخذ بيدي الأفراد المؤهلين وإيصالهم إلى أسمى درجات الكمال، وكذلك - حين تتوفر الظروف الإجتماعية الملائمة - يتصدى للحكومة وتدبير الأمور في الأمة الإسلامية، وتنفيذ التشريعات الإجتماعية الإسلامية، وتطبيقها ونشر الحق والعدالة في العالم.

والحاصل: إن ختم النبوة إنما يكون موافقا للحكمة الإلهية فيما لو إقترن بتعيين الإمام المعصوم، الإمام الذي يمتلك خصائص نبي الإسلام صلى الله عليه وآله

---

(١) ذكر العلامة الأميني (ره) في كتابه (الغدير) أسماء سبعمئة من الوضاعين للأحاديث، ونسب لبعضهم أنه وضع ما يناهز مئة ألف حديث، يراجع الغدير، ج٥، ص ٢٠٨، وما بعدها.

كلها عدا النبوة والرسالة. وبذلك تثبت ضرورة وجود الإمام، وكذلك ضرورة توفره على العلم الموهوب من الله، ومقام العصمة، وكذلك لزوم تعيينه ونصبه من قبل الله تعالى لأنه ـ عز وجل ـ وحده الذي يعرف الشخص الذي أعطاه هذا العلم والعصمة، وهو الذي يملك حق الولاية على عباده أصالة، ويمكنه منح مثل هذا الحق في درجة أدنى لأفراد يتمتعون بشروط معينة.

ومما يلزم التأكيد عليه، أن أهل السنة لا يقولون بمثل هذه الخصائص لأي خليفة من الخلفاء، فلا يدعون نصبه وتعيينه من الله تعالى والنبي صلى الله عليه وآله، ولا توفر الخلفاء على العلم الموهوب من الله، وملكة العصمة.

بل إنهم نقلوا في كتبهم المعتبرة عثراتهم واشتباهاتهم وعجزهم عن الإجابة على أسئلة الناس الدينية، ومنها ما نقلوه عن الخليفة الأول أنه قال: (إن لي شيطانا يعتريني)[1]، ونقلوا عن الخليفة الثاني أنه قال، بأن (بيعة الخليفة الأول كانت فلتة)[2]، أي عمل متسرع لم يتأمل فيه، وأنه كان يكرر هذا القول كثيرا (لولا علي لهلك عمر)[3] اما عثرات الخليفة الثالث[4] وخلفاء بني امية وبني العباس، فهي أوضح من أن تذكر، ويعرفها كل من له إطلاع ـ ولو كان قليلا ـ على تاريخ المسلمين. والشيعة وحدهم الذين يعتقدون بوجود الشروط الثلاثة في الأئمة الإثني عشر، ويثبت مما ذكرنا صحة إعتقادهم في مسألة الإمامة، ولا يحتاج ذلك للأدلة الموسعة والمفصلة، وسنشير في الدرس القادم إلى بعض الأدلة المقتبسة من الكتاب والسنة.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج١، ص ٨٥، وج ٤، ص ٢٢١ ـ ٢٦٢، والغدير، ج٧، ص ١٠٢ ـ ١٨٠.
(٢) شرح نهج البلاغة، ج١، ص ١٤٢ ـ ١٨٥، وج٣، ص٥٧.
(٣) الغدير، ج٦، ص ٩٣، وما بعدها.
(٤) الغدير، ج٨، ص٩٧ وما بعدها.



## الأسئلة



١ ـ إذكر رأي الشيعة في موضوع الإمامة والفرق بينه وبين رأي أهل السنة.

٢ ـ لماذا يعتبر الشيعة الإمامة أصلا عقائديا؟

٣ ـ بيّن فكرة ضرورة الإمام.

٤ ـ كيف يكون وجود الإمام تتميما للدين؟

٥ ـ ما هي النتائج التي يتوصل إليها من هذا البيان؟

الدرس التاسع والعشرون

# تعيين الإمام

أوضحنا في الدرس السابق أن ختم النبوة بدون نصب الإمام المعصوم وتعيينه مخالف للحكمة الإلهية، وأن إكمال الدين الإسلامي العالمي والخالد مرتبط بتعيين الخلفاء الصالحين بعد النبي صلى الله عليه وآله بحيث يكونون متوفرين على كل مناصب النبي الإلهية سوى النبوة والرسالة.

ويمكن استفادة هذه الفكرة من الآيات القرآنية الكريمة والروايات الكثيرة التي نقلها الشيعة وأهل السنة في تفسير هذه الآيات. ومنها الآية الثالثة من سورة المائدة: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾**.

وهذه الآية اتفق المفسرون جميعا على نزولها في حجة الوداع، وقبل وفاة الرسول صلى الله عليه وآله بشهور، وبعد أن تشير الآية ليأس الكفار من إلحاق الضرر بالإسلام **﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ﴾** تؤكد إكمال الدين في ذلك اليوم، وإتمام النعمة، ومع ملاحظة الكثير من الروايات الواردة في شأن نزول هذه الآية، يتضح ـ جليا ـ أن (الإكمال والإتمام) الذي اقترن بيأس الكفار من الحاق الضرر بالإسلام، أنما تحقق بنصب خليفة للنبي صلى الله عليه وآله من قبل الله تعالى، وذلك لأن أعداء الإسلام كانوا يتوقعون بقاء الإسلام بدون قائد بعد وفاة

رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وخاصة مع عدم وجود الأولاد الذكور للرسول صلى الله عليه وآله ـ وبذلك يكون معرضا للضعف والزوال، بيد أن الإسلام قد بلغ كماله بتعيين خليفة للنبي صلى الله عليه وآله، تمت النعمة الإلهية وانهارت أطماع الكافرين وآمالهم[1]. وقد تم هذا التعيين حين رجوع النبي صلى الله عليه وآله من حجة الوداع. فقد جمع الحجاج كلهم في موضع يقال له (غدير خم)، وخلال إلقائه خطبته الطويلة عليهم، سألهم: «الست أولى بكم من أنفسكم»[2] قالوا: «بلى» ثم أخذ بكتف علي عليه السلام ورفعه أمام الناس وقال: (من كنت مولاه فعلي مولاه) وبهذا أثبت للإمام عليه السلام الولاية الإلهية فبايعه جميع الحاضرون، ومنهم الخليفة الثاني الذي هنأه بقوله: **(بخ بخ لك يا على، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة)**[3].

وفي هذا اليوم نزلت هذه الآية الشريفة: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾** فكبّر الرسول صلى الله عليه وآله وقال **(تمام نبوتي وتمام دين الله ولاية علي بعدي)**. وورد في رواية نقلها أحد علماء أهل السنة الكبار (الحمويني): (فقام أبو بكر وعمر وقالا: يا رسول الله هذه الآيات خاصة في علي عليه السلام فقال صلى الله عليه وآله: بلى، فيه وفي أوصيائي إلى يوم القيامة، قالا: يا رسول الله بينهم لنا، فقال:

علي أخي ووزيري ووارثي ووصيي وخليفتي في امتي وولي كل مؤمن من بعدي، ثم ابني الحسن، ثم إبني الحسين، ثم تسعة من ولد إبني الحسين، واحدا بعد واحد، القرآن معهم وهم مع القرآن، لا يفارقونه ولا يفارقهم حتى يردوا علي الحوض)[4].

---

(١) للتوسع أكثر حول دلالة هذه الآية يراجع تفسير الميزان (ج ٥، ص ١٥٦ وما بعدها المصحح).

(٢) يشير بذلك للآية (٦) من سورة الأحزاب **﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾**.

(٣) للتأكد من قطعية سند الحديث ودلالته يراجع عبقات الانوار والغدير.

(٤) غاية المرام، الباب ـ ٥٨ الحديث ٤، نقلا عن الفرائد للحمويني.

ويستفاد من روايات عديدة أن النبي صلى الله عليه وآله كان مأمورا قبل ذلك بالإعلان الرسمي عن إمامة أمير المؤمنين عليه السلام على الرأي العام، لكنه كان يخشى حمل الناس مثل هذا العمل منه على رأيه الشخصي، وأن يعرضوا عن تقبله، ولذلك كان يبحث عن فرصة مناسبة، تتوفر فيها ظروف الإعلان عن مثل هذا التعيين، حتى نزلت الآية الشريفة: **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾**[١].

فمن خلال التأكيد على ضرورة إبلاغ هذا النداء الإلهي ـ الذي هو بمستوى كل النداءات الإلهية الأخرى، وعدم إبلاغه يعني عدم إبلاغ الرسالة الإلهية كلها ـ قد بشره الله بأنه سيعصمه ويحفظه من جميع الآثار والمضاعفات المتوقعة من هذا العمل. وقد أدرك النبي صلى الله عليه وآله ـ مع نزول هذه الآية ـ حصول الزمان المناسب للقيام بهذه المهمة، وليس من الصالح تأخيرها، ومن هنا بادر في غدير خم للقيام بها[٢].

والملاحظ أن ما يختص بهذا اليوم هو الإعلان الرسمي عن هذا التعيين أمام الناس، وأخذ البيعة منهم، وإلا فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يشير مرارا خلال فترة رسالته لخلافة أمير المؤمنين عليه السلام وبأساليب وتعابير مختلفة. فحين نزلت هذه الآية: **﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾**[٣] في بدايات البعثة، قال صلى الله عليه وآله لعشيرته: (فأيكم يؤازرني على أمري هذا، على أن يكون هو أخي ووصيي وخليفتي فيكم) واتفق الفريقان على إحجام القوم جميعا إلا علي بن أبي طالب وأنه أول من إستجاب[٤].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧، للتوسع أكثر حول دلالة الآية يراجع تفسير الميزان، ج٦، ص ٤١ فما بعدها.

(٢) روى علماء أهل السنة الكبار هذه الواقعة عن سبعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وهم: زيد بن أرقم، وابو سعيد الخدري، وابن عباس، وجابر بن عبد الله الأنصاري، والبراء بن عازب، وابو هريرة، إبن مسعود (الغدير، ج١).

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

(٤) عبقات الانوار، والغدير، والمراجعات ـ المراجعة ٢٠.

وكذلك حين نزلت هذه الآية: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾**[١].

حيث فرض فيها إطاعة أولي الأمر بصورة مطلقة، واعتبر إطاعتهم بمستوى إطاعة النبي صلى الله عليه وآله، سأله جابر بن عبد الله من هم الذين وجبت طاعتهم؟ أجاب صلى الله عليه وآله:

(هم خلفائي يا جابر وأئمة المسلمين من بعدي، أولهم علي بن أبي طالب، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم علي بن الحسين، ثم محمد بن علي المعروف في التوراة بالباقر، ـ ستدركه يا جابر، فإذا لقيته فاقرأه مني السلام ـ ثم الصادق جعفر بن محمد، ثم موسى بن جعفر، ثم علي بن موسى، ثم محمد بن علي، ثم علي بن محمد، ثم الحسن بن علي، ثم سميي وكنيي حجة الله في أرضه وبقيته في عباده ابن الحسن بن علي)[٢].

وكما أخبر النبي صلى الله عليه وآله فقد بقي جابر حيا حتى إمامة الباقر عليه السلام وأبلغه سلام رسول الله صلى الله عليه وآله.

وفي حديث روي عن أبي بصير أنه قال: سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل: **﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُم﴾** فقال: (نزلت في علي بن ابي طالب والحسن والحسين ـ عليهم السلام ـ فقلت له: إن الناس يقولون فما له لم يسم عليا وأهل بيته في كتاب الله ـ عز وجل ـ قال: فقولوا لهم بأن رسول الله (ص) نزلت عليه آيات الصلاة فلم تذكر شيئا عن الركعات الأربع أو الثلاث وإنما فسرها لهم رسول الله، وكذلك حينما نزلت آية **﴿أَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُم﴾** فقال رسول الله من كنت مولاه، وقال (ص): أوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي فإني سألت الله ـ عز وجل ـ أن لا يفرق بينهما حتى

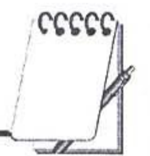
---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) غاية المرام، ص ٢٦٧، ج١٠، (ط قديمة)، واثبات الهداة، ج٣، ص ١٢٣، وينابيع المودة، ص ٤٩٤.

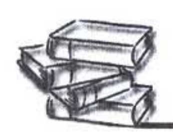
يوردهما علي الحوض فأعطاني ذلك، وقال: لا تعلموهم فإنهم أعلم منكم إنهم لن يخرجوكم من باب هدى، ولن يدخلوكم في باب ضلالة)[1].

وقد كرر الرسول صلى الله عليه وآله مرارا هذا القول، ومنها في أواخر أيام حياته قال: (إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وأهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض)[2]، وقال صلى الله عليه وآله أيضا: (لا إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق)[3] وقال مرارا مخاطبا عليا عليه السلام (أنت ولي كل مؤمن بعدي)[4] وعشرات من الاحاديث الأخرى[5]، لا يسمح المجال لذكرها كلها.





## الأسئلة



١ ـ ما هي الآية المرتبطة بتعيين الإمام؟ بيّن دلالتها على ذلك.

٢ ـ بيّن الواقعة التي عين فيها أمير المؤمنين عليه السلام إماما.

٣ ـ لماذا أخر النبي صلى الله عليه وآله الاعلان عن إمامة أمير المؤمنين عليه السلام؟ وكيف أقدم على هذا العمل؟

٤ ـ إذكر الروايات الدالة على إمامة سائر الأئمة عليه السلام.

٥ ـ بيّن سائر الروايات التي تشير لإمامة أهل البيت عليه السلام.

---

(١) غاية المرام، ص ٢٦٥، ح٣، ط القديمة.

(٢) وهذا الحديث من الاحاديث المتواترة أيضا، وقد رواه عن الرسول ـ وبطرق عديدة، جماعة من كبار علماء أهل السنة أمثال: الترمذي والنسائي وصاحب المستدرك.

(٣) مستدرك الحاكم، ج٣، ص ١٥١.

(٤) مستدرك الحاكم، ج٣، ص ١٣٤، وص١١١، وصواعق ابن حجر، ص ١٠٣، ومسند ابن حنبل، ج١، ص ٣٣١، وج٤، ص ٤٣٨. الخ.

(٥) كمال الدين وتمام النعمة ـ للصدوق، والبحار، للمجلسي.

الدرس الثلاثون

# العصمة وعلم الإمام

## المقدمة

إن الخلاف بين الشيعة وأهل السنة في موضوع الإمامة يدور حول ثلاث مسائل:

الأولى: لزوم نصب الإمام من قبل الله تعالى.

الثانية: لزوم إتصافه بملكة العصمة.

الثالثة: لا بد وان يملك الإمام العلم الموهوب من الله.

وقد تقدم إثبات هذه المسائل الثلاث بالدليل العقلي.

كما تقدمت الاشارة لبعض الأدلة النقلية على تعيين الأئمة الأطهار عليه السلام، من قبل الله تعالى، ونبحث في هذا الدرس حول العصمة والعلم الموهوب من الله.

## عصمة الإمام

بعد أن أثبتنا أن الإمامة منصب إلهي منحه الله تعالى لعلي بن أبي طالب وأولاده عليهم السلام، فيمكن استنباط عصمتهم من هذه الآية الشريفة: ﴿ لاَ

**يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾**[1].

حيث نفى ـ سبحانه وتعالى ـ منح المناصب الإلهية لأولئك الملوثين بالذنوب. وكذلك يستفاد من آية أولي الأمر حيث فرض اطاعتهم المطلقة وقرنها باطاعة رسول الله صلى الله عليه وآله[2] أن إطاعتهم لا يمكن أن تنافي إطاعة الله تعالى: إذن فالأمر بإطاعتهم بصورة مطلقة يعني تضمين عصمتهم وتوفرهم على العصمة.

وكذلك يمكن أن نستفيد عصمة أهل البيت عليهم السلام من آية التطهير: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾**[3]. بالتوضيح التالي: إن الإرادة التشريعية الالهية في تطهير العباد لا تختص بحد: إذن فالإرادة المختصة بأهل البيت عليهم السلام هي الإرادة التكوينية الإلهية التي لا تقبل التخلف كما يقول تعالى: **﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾**[4].

والتطهير المطلق ونفي كل رجس وقبيح يعني العصمة، ونحن نعلم أن كل المذاهب والفرق الإسلامية، لا تدعي وجود العصمة في أي أحد من المنتسبين للنبي صلى الله عليه وآله إلا الشيعة الذين يعتقدون بعصمة الزهراء عليها السلام، والأئمة الاثني عشر عليهم السلام[5].

ويلزم علينا أن نؤكد أن هناك أكثر من سبعين رواية، وقد وردت أكثرها عن علماء أهل السنة، تدل على أن هذه الآية الشريفة نزلت في شأن (الخمسة

---

(1) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(2) **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾** النساء: ٥٩.

(3) سورة الاحزاب، الآية: ٣٣.

(4) سورة يس، الآية: ٨٢.

(5) لمزيد من التوضيح حول هذه الآية يراجع تفسير الميزان وكتاب (الإمامة والولاية في القرآن الكريم).

الطيبين)[1] وقد نقل الشيخ الصدوق عن أمير المؤمنين عليه السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: يا علي هذه الآية نزلت فيك وفي سبطي والائمة من ولدك، قلت: يا رسول الله وكم الأئمة من بعدك؟ قال: أنت يا علي، ثم إبناك الحسن والحسين، وبعد الحسين علي إبنه، وبعد علي محمد إبنه، وبعد محمد جعفر إبنه، وبعد جعفر موسى إبنه، وبعد موسى علي إبنه، وبعد علي محمد إبنه، وبعد محمد علي إبنه، وبعد علي الحسن إبنه، وبعد الحسن إبنه الحجة. هكذا وجدت أساميهم مكتوبة على ساق العرش فسألت الله ـ عز وجل ـ عن ذلك فقال: (يا محمد هم الأئمة بعدك مطهرون معصومون وأعداؤهم ملعونون)[2].

وكذلك حديث الثقلين الذي قرن فيه الرسول صلى الله عليه وآله أهل البيت والعترة مع القرآن الكريم، وأكد عدم افتراقها أبداً، وهو دليل واضح على عصمتهم، وذلك لأن إرتكاب المعصية ـ حتى لو كانت صغيرة، وإن صدرت سهوا ـ يعني الإفتراق العملي عن القرآن.

## علم الإمام

لا شك في أن أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله قد اقتبسوا وتزودوا من علومه صلى الله عليه وآله أكثر من غيرهم، وكما قال صلى الله عليه وآله في حقهم (لا تعلموهم فانهم أعلم منكم)[3]، وخاصة أمير المؤمنين عليه السلام الذي ترعرع ونشأ في أحضان الرسول صلى الله عليه وآله منذ طفولته، ولازمه حتى آخر لحظات عمره الشريف، وكان يغترف ـ دائما ـ ويتزود من علوم النبي صلى الله عليه وآله وقد قال الرسول صلى الله عليه وآله في حقه: (أنا مدينة

---

(١) غاية المرام، ص ٢٨٧ ـ ٢٩٣.

(٢) غاية المرام، ص ٢٩٣، ح ٦.

(٣) غاية المرام، ص ٢٦٥، وأصول الكافي، ج ١، ص ٢٩٤.

العلم وعلي بابها )[1].

ونقل عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (إن رسول الله (ص) علمني ألف باب، وكل باب يفتح ألف باب، فذلك ألف ألف باب، حتى علمت ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وعلمت علم المنايا والبلايا وفصل الخطاب )[2].

ولكن علوم أئمة أهل البيت عليهم السلام لا تنحصر بما سمعوه من النبي صلى الله عليه وآله بواسطة أو بدون واسطة، بل إنهم كانوا يتمتعون ايضا بنوع من العلوم غير العادية التي تفاض عليهم من طريق (الالهام) أو (التحديث )[3] كالالهام الذي حصل للخضر وذي القرنين[4]، ومريم وأم موسى عليهم السلام[5]، وقد عبر في القرآن الكريم عن بعضها بـ(الوحي) وليس المقصود وحي النبوة، وبمثل هذا العلم بلغ بعض الأئمة الاطهار عليهم السلام مقام الإمامة في فترة طفولتهم، وحيث كانوا يعلمون بكل شيء، ولم يحتاجوا للتعلم والدراسة لدى آخرين.

وتستفاد هذه الفكرة من روايات كثيرة نقلت عن الأئمة الاطهار عليهم السلام أنفسهم ـ حيث ثبتت حجيتها بملاحظة عصمتهم ـ وقبل أن نستعرض نماذج منها نشير لهذه الآية من القرآن الكريم، حيث عبر فيها عن شخص أو أشخاص أنهم (من عنده علم الكتاب) وذكره كشاهد على أن النبي صلى الله عليه وآله على حق، والآية هي: ﴿**قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ**

---

(١) مستدرك الحاكم، ج ٣، ص ٢٢٦، ومن الجدير بالذكر أن أحد علماء أهل السنة ألف كتابا اسمه (فتح الملك العلي بصحة حديث مدينة العلم علي) وطبع في القاهرة كتبه سنة ١٣٥٤ هـ.

(٢) ينابيع المودة، ص ٨٨، وأصول الكافي، ج١، ص ٢٩٦.

(٣) أصول الكافي: كتاب الحجة، ص ٢٦٤ وص ٢٧٠.

(٤) الكهف: ٦٥ ـ ٩٨، وأصول الكافي: ج١: ص ٢٦٨.

(٥) ﴿**وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾ آل عمران: ٤٢، وانظر أيضاً: مريم: ١٧ ـ ٢١، طه: ٣٨، القصص: ٧.

**عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾**[1]. فإن من قرنت شهادته بشهادة الله تعالى، وإن توفره على علم الكتاب قد أهله لمثل هذه الشهادة، لا شك بأنه يتمتع بمقام رفيع.

وقد أشير في آية أخرى لهذا الشاهد، وأنه يتلو رسول الله صلى الله عليه وآله: **﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾**[2]، ولفظة (منه) تدل على أن هذا الشاهد من أقرباء الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته. وقد نقلت روايات كثيرة من طرق الشيعة وأهل السنة تؤكد أن المراد من هذا الشاهد هو علي بن أبي طالب (ع).

منها: ما رواه ابن المغازلي الشافعي عن عبد الله بن عطاء: قال كنت عند ابي جعفر (الامام الباقر عليه السلام) جالسا اذ مر علينا إبن عبد الله بن سلام «وعبد الله من علماء أهل الكتاب أسلم في حياة الرسول صلى الله عليه وآله» قلت: جعلني الله فداك، هذا إبن الذي عنده علم الكتاب، قال: لا ولكنه صاحبكم علي بن ابي طالب الذي نزلت فيه آيات من كتاب الله (عز وجل): **﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾**[3].

ونقلت عدة روايات عن الفريقين بأن المراد من (الشاهد) في سورة هود، هو علي بن ابي طالب عليه السلام[4]، وإذا تأملنا في الميزة التي تميز بها المذكور في كلمة (منه) يتضح لنا انه ليس المراد منه إلا الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام. وتتضح لنا أهمية التوفر على (علم الكتاب) حينما نتأمل في حكاية سليمان عليه السلام وإحضار عرش بلقيس لديه، التي ذكرها

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٤٣.

(٢) سورة هود، الآية: ١٧.

(٣) سورة المائدة: الآية: ٥٥.

(٤) غاية المرام، ص ٣٥٩ ـ ٣٦١.

القرآن الكريم: **﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾**[1].

ويستفاد من هذه الآية أن التعرف على (بعض) علم الكتاب له مثل هذه الآثار المدهشة، ومن هنا يمكن أن ندرك الآثار الكبيرة للتعرف على (جميع) علم الكتاب. وقد أشار لهذه الملاحظة الإمام الصادق عليه السلام في حديث رواه سدير عنه:

(قال كنت أنا وأبو بصير ويحيى البزاز وداوود بن كثير في مجلس أبي عبد الله عليه السلام إذ خرج إلينا وهو مغضب، فلما أخذ مجلسه قال عليه السلام: يا عجبا لأقوام يزعمون أنا نعلم الغيب، ما يعلم الغيب إلا الله عز وجل، لقد هممت بضرب جاريتي فلانة، فهربت مني فما علمت في أي بيوت الدار هي[2]، قال سدير: فلما أن قام من مجلسه وصار في منزله، دخلت أنا وابو بصير وميسر وقلنا له: جعلنا فداك، سمعناك وانت تقول كذا وكذا في أمر جاريتك، ونحن نعلم أنك تعلم علما كثيرا، ولا ننسبك إلى علم الغيب، قال فقال عليه السلام: يا سدير: ألم تقرأ القرآن، قلت بلى، قال: فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عز وجل (قال الذي عنه علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) قال، قلت: جعلت فداك قد قرأته، قال: فهل عرفت

(١) سورة النمل، الآية: ٤٠.

(٢) يتضح من تتمة الحديث أن هذا الكلام من الإمام عليه السلام إنما صدر لوجود من يتجنب ذكر الحقيقة أمامه، ويلزم أن نعلم بأن المراد من علم الغيب المختص بالله تعالى، هو العلم الذي لا يحتاج لتعلم، كما أجاب به الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عمن سأله عن علمه بالغيب، (إنما هو تعلم من ذي علم) وإلا فإن جميع الأنبياء و كثير من أولياء الله مطلعون على بعض العلوم الغيبية بواسطة الوحي أو الإلهام. و من العلوم الغيبية التي لا يشك فيها أحد هذا النبأ الغيبي الذي الهم لام موسى عليه السلام: **﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾** القصص: ٧.

الرجل؟ وهل علمت ما كان عنده من علم الكتاب؟ قال قلت: آخبرني به قال: قطرة من الماء في البحر الاخضر. ثم قال عليه السلام: يا سدير فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عز وجل أيضا (قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) قلت : قد قرأته، قال عليه السلام: أفمن عنده علم الكتاب كله أفهم أم من عنده علم الكتاب بعضه؟، قلت: لا بل من عنده علم الكتاب كله، قال: فأومأ بيده إلى صدره وقال عليه السلام: علم الكتاب والله كله عندنا، علم الكتاب والله كله عندنا»[1].

ونشير هنا إلى نماذج أخرى من الروايات الواردة حول علوم اهل البيت عليه السلام.

- ففي حديث طويل عن الإمام الرضا عليه السلام يقول فيه: **(وإن العبد إذا إختاره الله لأمور عباده شرح صدره لذلك، وأودع قلبه ينابيع الحكمة، وألهمه العلم إلهاما، فلم يعي بعده بجواب، ولا يحير فيه عن الصواب، فهو معصوم مؤيد، موفق مسدد، قد أمن من الخطايا والزلل والعثار، يخصه الله بذلك ليكون حجة على عباده، وشاهده على خلقه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . فهل يقدمون على مثل هذا فيختارونه، أو يكون مختارهم بهذه الصفة فيقدمونه)**[2].

- وعن الحسن بن يحيى المدائني عن أبي عبد الله عليه السلام قال، قلت له: أخبرني عن الإمام اذ سئل كيف يجيب؟ فقال: (إلهام، وسماع، وربما كانا جميعا)[3].

---

(١) أصول الكافي، ج ١، ص ٢٥٧، طبعة دار الكتب الإسلامية.

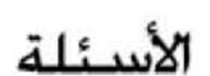
(٢) أصول الكافي، ج ١، ص ١٩٨ - ٢٠٣.

(٣) بحار الانوار، ج ٢٦، ص ٥٨.

- وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: (أي إمام لا يعلم ما يصيبه والى ما يصير، فليس ذلك بحجة لله على خلقه)[1].

- وفي عدة روايات عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال فيها: **(إن الإمام اذا شاء أن يعلم علم)**[2].

- وورد عنه عليه السلام أيضا في روايات عديدة انه سئل عن قوله تعالى: **﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا﴾** قال: **(خلق من خلق الله عز وجل أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله يخبره ويسدده وهو مع الأئمة من بعده)**[3].


## الأسئلة

١ ـ إذكر الآيات التي يمكن أن نثبت بها عصمة الإمام.

٢ ـ إذكر الروايات الدالة على عصمة الإمام.

٣ ـ ما هي الطرق التي يصل من خلالها علم الإمام الخاص؟

٤ ـ من هم الذين امتلكوا مثل هذا العلم في الأزمنة السابقة؟

٥ ـ ما هي الآية التي تدل على علم الإمامة؟ وكيف تدل على ذلك؟

---

(١) أصول الكافي، ج ١، ص ٢٥٨.

(٢) أصول الكافي، ج ١، ص ٢٥٨ وفي رواية (اعلم) بلا عن (علم) وفي الأخرى (علمه الله بذلك) المصحح.

(٣) أصول الكافي، ج ١، ص ٢٧٣.

## الدرس الواحد والثلاثون




### المقدمة

ذكرنا - خلال البحوث السابقة - بعض الأحاديث المتضمنة لأسماء الأئمة الإثني عشر عليهم السلام، ولكن رويت أحاديث كثيرة أخرى من قبل الشيعة وأهل السنة عن النبي صلى الله عليه وآله، أشير في بعضها إلى عددهم فحسب، وأضيف في بعضها إلى ذلك أنهم - جميعا - من قريش، وفي بعض آخر ذكر أنهم بعدد نقباء بني اسرائيل، وجاء في بعضها ان تسعة منهم من أولاد الإمام الحسين عليه السلام، وأخيرا ذكرت أسماؤهم واحدا بعد الآخر في بعض الاحاديث المنقولة عن أهل السنة، والمتواترة من طرق الشيعة[1].

وقد رويت أحاديث كثيرة من طرق الشيعة حول إمامة كل واحد من الأئمة الأطهار عليهم السلام، لا يسمح المجال لذكرها في هذا الموجز[2]، ولذلك نخص الدرس الأخير من دروس هذا الكتاب بالبحث في موضوع الإمام الثاني عشر

---

(١) منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر، ط ٣، ص١٠ - ١٤٠.

(٢) راجع بحار الانوار، وغاية المرام، واثبات الهداة وسائر كتب الحديث.

صاحب الزمان (عجل الله فرجه الشريف) ومراعاة للإيجاز نحاول البحث حول أهم الملاحظات.

## الحكومة الإلهية العالمية

عرفنا أن الهدف الرئيس والأول من بعثة الأنبياء هو، إتمام الشروط التي يلزم توفرها لرشد البشر وتكاملهم الاختياري والحر والواعي الشعوري، والذي يتم تحقيقه من خلال إبلاغ الوحي الإلهي للناس، وجعله بمتناول أيديهم. وقد لوحظت أهداف أخرى وراء ذلك يمكن أن نعتبر منها: المساعدة على الرشد العقلي، والتربية الروحية والمعنوية للأفراد المؤهلين وذوي الإستعداد. وأخيرا، كان الأنبياء العظام عليهم السلام يحاولون تشكيل المجتمع المثالي القائم على أساس عبادة الله والقيم والتعاليم الإلهية، ونشر العدل والقسط في الأرض كلها. وقد خطا كل واحد منهم - بحسب وسعه - خطوة في هذا السبيل، وقد تمكن بعضهم من إقامة دولة إلهية في منطقة أو مرحلة زمنية معينة، ولكن لم تتوفر لأي منهم الظروف والشروط المناسبة لإقامة الحكومة العالمية.

والملاحظة أن عدم توفر مثل هذه الظروف والشروط المناسبة لا يعني قصور تعاليم الأنبياء ومناهجهم واساليبهم، أو النقص في إدارتهم وقيادتهم. وكذلك لا يعني عدم تحقق الهدف الإلهي من بعثتهم. إذ - وكما أشرنا إلى ذلك - إن الهدف الإلهي هو: توفير الأجواء والظروف المناسبة لحركة البشر الإختيارية ومسيرتهم: **﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾**[1].

لا إلزام الناس وقهرهم على إعتناق الدين الحق، وإتباع القادة الإلهيين، وقد تحقق هذا الهدف.

ولكن الله تعالى وعد - في كتبه السماوية - بإقامة الحكومة الإلهية على الأرض

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

كلها، ويمكن إعتبار ذلك نوعا من الإنباء عن الغيب بالنسبة لتوفر الأجواء المناسبة لتقبل الدين الحق، على نطاق واسع من المجتمع البشري، وحيث تتم بيدي بعض الأفراد والجماعات المتفوقة والمتميزة - وبمعونة الإمدادات الغيبية الإلهية - إزالة العقبات والحواجز عن طريق إقامة الحكومة العالمية، ونشر العدل والقسط في الشعوب المحرومة، التي ضاقت ذرعا بجور الظالمين، ويئست من كل المبادئ والأنظمة الحاكمة، ويمكن اعتبار ذلك هو الهدف النهائي لبعثة خاتم النبيين صلى الله عليه وآله، ودينه العالمي والخالد، وذلك لأن الله قال في حقه: ﴿**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**﴾[1].

وبما أن الإمامة متممة للنبوة، ومحققة لحكمة ختم النبوة، فنتوصل - على ضوء ذلك - لهذه النتيجة، إن هذا الهدف سيتحقق بواسطة الإمام الأخير، وهذه الفكرة قد ذكرت في روايات متواترة حول المهدي (أرواحنا فداه) وورد التأكيد عليها كثيرا.

ونشير هنا - أولاً - إلى آيات من القرآن الكريم، تتضمن البشارة والوعد بإقامة هذه الدولة العالمية، وبعد ذلك نذكر نماذج من الروايات المرتبطة بهذا الموضوع.

## الوعد الإلهي

يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾[2].

وقد نقل هذا المضمون في آية أخرى عن موسى عليه السلام[3]، ومما لا يقبل الشك والترديد أنه سيأتي اليوم الذي يتحقق فيه هذا الوعد الإلهي. وفي آية أخرى اشير لحكاية فرعون، الذي جر الناس للإستضعاف: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ**

(١) التوبة: ٣٣، والفتح: ٢٨. والصف: ٩. وراجع بحار الانوار، ج ٥١، ص ٥٠. ح ٢٢، وص ٦٠. ح ٥٨ و ٥٩.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.
(٣) سورة الاعراف، الآية: ١٢٨.

**اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾**[1].

وهذه الآية - وإن وردت في شأن بني إسرائيل وإستيلائهم على زمام الأمور بعد تخلصهم من قبضة الفراعنة - ولكن هذا التعبير (ونريد) يشير إلى إرادة إلهية مستمرة، ولذلك طبقت في الكثير من الروايات على ظهور المهدي **(عجل الله فرجه الشريف)**[2].

وقد خاطب - في موضع آخر - المسلمين بقوله: **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾**[3].

وجاء في بعض الروايات، إن المصداق الكامل لهذا الوعد سيتحقق في زمان ظهور الإمام الغائب (عجل الله فرجه) بصورة كاملة[4]. وهناك روايات أخرى طبقت بعض الايات على الامام الغائب عليه السلام[5]، نعرض عن ذكرها رعاية للإختصار والإيجاز[6].

## نماذج من الروايات

إن الروايات التي نقلها الشيعة وأهل السنة عن النبي صلى الله عليه وآله حول الإمام المهدي (عجل الله فرجه) تفوق حد التواتر، بل إن الروايات التي نقلها أهل

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥.

(٢) بحار الانوار، ج ٥١، ص ٥٤، ح ٣٥، وص ٦٣ و ٦٤.

(٣) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٤) بحار الانوار، ج ٥١، ص ٥٨، ح ٥، وص ٥٤، ح ٣٤ و ٣٥.

(٥) أمثال هذه الآيات: (ويكون الدين كله لله) و (ليظهره على الدين كله) و (بقية الله خير لكم).

(٦) بحار الانوار، ج ٥١، ص ٤٤ - ٦٤.

السنة - وحدهم - تبلغ حد التواتر، بإعتراف جماعة من علمائهم[1] وقد إعتبر جماعة من علمائهم الإعتقاد بالإمام الغائب مما اتفقت عليه الفرق الإسلامية جميعا[2]، وألف بعضهم كتبا ومؤلفات حول الإمام المهدي[3] وعلامات ظهوره، نذكر هنا بعض الروايات التي نقلها أهل السنة:

- من الروايات العديدة التي رووها عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: (لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلا من أهل بيتي يملأها عدلا كما ملئت جورا)[4].

- عن ام سلمة: أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (المهدي من عترتي ومن ولد فاطمة)[5].

- وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (إن عليا إمام امتي من بعدي، ومن ولده القائم المنتظر الذي اذا ظهر يملأ الارض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما)[6].

## الغيبة ومغزاها

تعتبر الغيبة من خصائص الإمام الثاني عشر (عجل الله فرجه الشريف)

---

(١) الصواعق المحرقة، لابن حجر، ص ٩٩، ونور الأبصار، للشبلنجي، ص ١٥٥، واسعاف الراغبين، ص -١٤، والفتوحات الإسلامية، ج ٢، ص ٢١١.

(٢) شرح نهج البلاغة، لابن ابي الحديد، ج ٢، ص ٥٣٥، وسبائك الذهب، للسويدي، ص ٧٨، وغاية المأمول، ج ٥، ص ٣٦٢.

(٣) أمثال كتاب (البيان في أخبار صاحب الزمان) تأليف الحافظ محمد بن يوسف الكنجي الشافعي الذي عاش في القرن السابع، وكتاب (البرهان في علامات مهدي آخر الزمان) - تأليف المتقي الهندي الذي عاش في القرن العاشر.

(٤) صحيح الترمذي، ج٢، ص ٤٦، وصحيح أبي داود، ج ٢، ص ٢٠٧، ومسند ابن حنبل، ج ١، ص ٣٧٨، وينابيع المودة، ص ١٨٦ و ٢٨٥ و ٤٤٠ و ٤٨٨ و ٤٩٠.

(٥) اسعاف الراغبين، ص ١٣٤، نقلا عن صحيح مسلم وابي داوود والنسائي وابن ماجة والبيهقي.

(٦) ينابيع المودة، ص ٤٩٤.

والتي ورد التأكيد عليها في الروايات المروية عن أهل البيت عليهم السلام منها:

ما رواه عبد العظيم الحسني عن الإمام محمد الجواد عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (للقائم منا غيبة أمدها طويل، كأني بالشيعة يجولون جولان النعم في غيبته يطلبون المرعى فلا يجدونه، ألا فمن ثبت منهم على دينه ولم يقس قلبه لطول غيبة إمامه فهو معي في درجتي يوم القيامة).

ثم قال: (إن القائم منا إذا قام لم يكن لأحد في عنقه بيعة، فلذلك تخفى ولادته ويغيب شخصه)[١].

ـ وروي عن الإمام السجاد، عن أبيه، عن جده علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال:

وإن للقائم منا غيبتين، إحداهما أطول من الأخرى، فلا يثبت على إمامته إلا من قوي يقينه وصحت معرفته)[٢].

ومن أجل أن نتعرف على سر الغيبة ومغزاها لا بد وأن نلقي نظرة على سيرة الأئمة الأطهار عليهم السلام وتاريخهم. فنحن نعلم أن أكثر الناس بايعوا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله أبا بكر وبعده عمر وبعده عثمان، وقد جرى تمرد على عثمان في أواخر حكمه، نتيجة للكثير من الاختلالات التي نشأت من التمييز المنحرف، فقتلوه، ومن ثم بايعوا أمير المؤمنين عليا عليه السلام.

وقد سكت الإمام الذي هو الخليفة المنصوب من قبل الله والرسول صلى الله عليه وآله، خلال فترة الخلفاء الثلاثة، رعاية لمصالح الامة الإسلامية الجديدة، ولم ينطق بشى إلا ما يتم به الحجة. وفي الوقت نفسه، لم يتخلف ـ لحظة ـ عن تقديم الخدمات والجهود لما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين، ولكن فترة خلافته

(١) منتخب الاثر، ص ٢٥٥.

(٢) منتخب الاثر، ص ٢٥١.

إستغرقت كلها في محاربة أصحاب الجمل ومعاوية والخوارج، وأخيرا استشهد بيد أحد الخوارج.

وقد توفي الإمام الحسن عليه السلام مسموما بأمر من معاوية، وبعد موت معاوية تربع على عرش الحكم الاموي إبنه يزيد، الذي لم يكترث حتى بمظاهر الاسلام، وكان من المتوقع أن يتعرض الإسلام للإبادة والدمار نتيجة لهذه السيرة الهابطة، ولذلك لم يجد الإمام الحسين عليه السلام مناصا من النهوض وإعلان الثورة، وأنقذ (بإستشهاده مظلوما ـ الإسلام من خطر الإبادة، حيث بعث في المسلمين الوعي واليقظة، بيد أنه لم تتوفر الظروف الإجتماعية لاقامة الدولة الإسلامية العادلة، ومن هنا قام سائر الأئمة الأطهار عليهم السلام بتثبيت الأصول العقائدية وترسيخ ونشر المعارف والأحكام الإسلامية، وتربية النفوس المؤهلة وتهذيبها، وحيثما تسمح الظروف كانوا يحرضون الناس ـ سرا ـ على محاربة الظالمين والجبابرة والطواغيت، ويزرعون فيهم الأمل بتحقق الدولة الإلهية العالمية، وأخيرا إستشهدوا ـ جميعا ـ واحدا بعد الآخر.

وعلى كل حال، تمكن الأئمة الأطهار عليهم السلام خلال قرنين ونصف من عرض الحقائق الإسلامية وبيانها للناس، بالرغم من مواجهتهم الكثير من التحديات والمشاكل والمتاعب الشديدة، وقد بينوا بعضا منه للناس عامة وبعضها بينوها لخصوص شيعتهم وخواص أصحابهم، وبذلك إنتشرت المعارف الإسلامية بمختلف أبعادها وجوانبها في الامة، وضمن ـ بذلك ـ بقاء الشريعة المحمدية، وقد تشكلت ـ خلال ذلك ـ هنا وهناك في البلاد الإسلامية بعض الجماعات التي اندفعت لمحاربة الحكام الجائرين، وامكنهم ـ ولو بصورة محدودة ـ منع الجابرة والطواغيت من التمادي في غيهم وجورهم وعبثهم.

ولكن الذي كان يثير فزع الحكام الظالمين وقلقهم أكثر هو، الوعد بظهور الإمام المهدي عليه السلام، الذي كان يهدد وجودهم وكيانهم، ومن هنا فرض المعاصرون

منهم للإمام الحسن العسكري عليه السلام رقابة مشددة عليه، ليقتلوا أي طفل يولد له، وقد استشهد الإمام عليه السلام نفسه بيديهم، وهو في ريعان شبابه، ولكن شاءت الإرادة الإلهية أن يولد المهدي عليه السلام، وأن يدّخر لخلاص البشرية ونجاتها، ولهذا السبب لم يوفق للقائه خلال حياة أبيه - وحتى الخامسة من عمره - إلا أفراد قليلون من خواص الشيعة، بيد أن الإمام عليه السلام ارتبط بالناس بعد وفاة أبيه، بواسطة نواب أربعة، كلفوا بمهمة النيابة الخاصة [1]، واحدا بعد الآخر، وبعد ذلك بدأت (الغيبة الكبرى)، التي ستستمر إلى مدة غير معلومة، حتى اليوم الذي يتم فيه إعداد البشرية لتقبل الحكومة الإلهية العالمية، وحينئذ سيظهر الإمام عليه السلام بأمر من الله - تبارك وتعالى -.

إذن فالسر في غيبته هو، الحفاظ عليه من أيدي الجبابرة والجائرين. وقد اشير في بعض الروايات إلى حكم أخرى، منها، إمتحان الناس وإختبار مدى إستقامتهم وثباتهم بعد إتمام الحجة عليهم. والملاحظ أن الناس لم يحرموا - تماما - من عطاءات الإمام عليه السلام خلال الغيبة، وكما ورد في الروايات فإنه كالشمس خلف الغيوم، حيث يستفاد من نورها وشعاعها [2]، وقد وفق الكثير من الأفراد للقاء الإمام عليه السلام وإن ظهر بصورة رجل مجهول، واستفادوا منه الكثير في قضاء حوائجهم، ومعالجة مشاكلهم المادية والمعنوية، ويعتبر بقاؤه حيا عاملا كبيرا ومؤثرا في زرع الطمأنينة وشيوع الأمل بين الناس، ليحاولوا إصلاح أنفسهم وإعدادها لظهوره.

---

(١) وهم: عثمان بن سعيد، ومحمد بن عثمان بن سعيد، والحسين بن روح، وعلي بن محمد السمري.

(٢) بحار الأنوار، للمجلسي، ج ٥٢، ص٩٢.



## الأسئلة



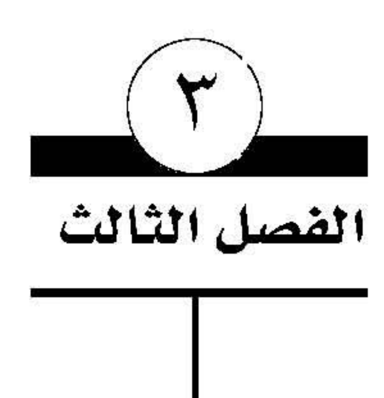
١ ـ ما هو الهدف النهائي من بعثه نبي الإسلام صلى الله عليه وآله؟

٢ ـ ما هي الآيات التي تبشر باقامة الدولة الإلهية العالمية؟

٣ ـ بيّن الغيبة الصغرى والكبرى والفرق بينهما.

٤ ـ وضّح مغزى غيبة الإمام المهدي (عج).

٥ ـ ما هي الفوائد والمعطيات التي يمكن للناس الإستفادة منها في زمن الغيبة؟



# الفصل الثالث

# المعاد

## الدرس الثاني والثلاثون

# أهمية معرفة العاقبة

### المقدمة

في بداية هذا الكتاب درسنا أهمية البحث في الدين وأسسه وأصوله العقائدية (التوحيد، النبوة، المعاد) ووضحنا أن إنسانية الحياة تبتني على المعالجة الصحيحة لهذه المسائل، وتناولنا في الجزء الاول مسائل التوحيد، وفي الجزء الثاني مسائل الطريق والهادي والدليل (النبوة والإمامة). والان نحاول أن نتناول بالبحث أهم مسائل المعاد وبحوثه، والتي يجمعها عنوان (معرفة المصير).

وفي البداية، نبين ميزة هذا الأصل العقائدي، وتأثيره الخاص في السلوك والأفعال الفردية والإجتماعية للإنسان، وبعد ذلك نوضح أن التصور الصحيح عن المعاد يتوقف على الإعتراف بروح غير محسوسة وخالدة، فكما أن (معرفة الوجود) بدون الإعتقاد بالله الواحد معرفة ناقصة، وكذلك تكون (معرفة الإنسان) بدون الإعتقاد بروح خالدة معرفة غير كاملة، ثم بعد ذلك، نتناول بالبحث المسائل الاساس للمعاد بالطريقة المتناسبة مع هذا الكتاب.

## أهمية الإعتقاد بالمعاد

إن الباعث على النشاطات والأعمال الحياتية إشباع الحاجات والرغبات، وتحقيق الأهداف والطموحات، وبالتالي الوصول للسعادة والكمال النهائي، وإن تقويم الأفعال، وكيفية توجيهها مرتبط بتحديد الأهداف التي تسعى جميع الجهود والنشاطات الحياتية لبلوغها، ومن هنا كان لمعرفة الهدف النهائي للحياة دور أساس في توجيه النشاطات، وإختيار الأعمال وتعيينها، وفي الواقع إن العامل الرئيس في تحديد طريقة الحياة ومسيرتها يكمن في نوع نظرة الإنسان ورؤيته ومعرفته بحقيقته وكماله وسعادته، ومن يعتقد أن حقيقته ليست إلا مجموعة من العناصر المادية، والتفاعلات المعقدة فيما بينما، ويرى حياته محددة بهذه الأيام القليلة للحياة الدنيوية، ولا يعرف لذة أو سعادة أو كمالا آخر وراء هذه المنافع والمكاسب المرتبطة بهذه الحياة، فانه سوف ينظم أعماله وسلوكه بما يشبع حاجاته الدنيوية ومتطلبات هذا العالم، اما ذلك الذي يؤمن بان حقيقته أوسع وأبعد من الظواهر المادية، ولا يرى في الموت نهاية الحياة، بل يراه منعطفا ينتقل من خلاله من هذا العالم الموقت العابر إلى عالم خالد باق، وأن أعماله الصالحة وسيلة للوصول لسعادته وكماله الابديين، فإنه سوف يخطط وينسق نظام حياته بطريقة تكون معها أكثر عطاء وأفضل تأثيرا على حياته المؤبدة ومن جانب آخر، فإن المتاعب والاخطاء والخسائر التي يواجهها في حياته الدنيوية، لا تثبط عزيمته، ولا تبعث فيه اليأس والقنوط، ولا تمنعه من مواصلة جهوده ونشاطاته في سبيل ممارسة وظائفه، وبلوغ السعادة والكمال الأبديين.

ولا ينحصر تأثير هذين النوعين من معرفة الإنسان، في الحياة الفردية، بل إن لهما تأثيرا كبيرا وفاعلا في الحياة الإجتماعية، وفي مواقف الأفراد و علاقاتهم فيما بينهم، فان للإعتقاد بالحياة الأخروية، وبالثواب والعقاب الأبديين، دوره

المهم وتاثيره البالغ في رعاية حقوق الاخرين، والإيثار والإحسان إلى المحتاجين والمحرومين، وحين يسود المجتمع مثل هذا الإعتقاد، فلا يحتاج كثيرا إلى استخدام القوة في سبيل تنفيذ القوانين والاحكام العادلة ومكافحة الظلم والإعتداء على الأخرين . وبطبيعة الحال حين يصبح هذا الإعتقاد عالميا وشاملا، فسوف تقل بصورة ملحوظة الكثير من المشاكل الدولية.

ومن خلال هذه الملاحظات، تتضح لنا أهمية مسألة المعاد، وقيمة البحث فيها، بل وحتى الإعتقاد بالتوحيد، ان لم يكن مقترنا بالإعتقاد بالمعاد، لا يمكنه ان يؤثر أثره الكامل والشامل في، توجيه الحياة الوجهة الصحيحة والمنشودة، ومن هنا ينكشف لنا سر إهتمام الأديان السماوية، و خاصة الدين الإسلامي المقدس بهذا الأصل العقائدي، وسر بذل الأنبياء أقصى جهودهم في سبيل ترسيخ هذه العقيدة في النفوس وتثبيتها. والإعتقاد بالحياة الاخروية، انما يكون له تأثيره في توجيه السلوك والأفعال الفردية والإجتماعية، فيما لو تم التسليم بوجود نوع من علاقة العلة والمعلول بين ما يتحقق في هذا العالم من المواقف والأفعال والسعادة والشقاء في عالم الآخرة. وفي أقل التقادير لا بد من الإعتراف بان النعم أو العذاب الأخروي إنما تكون ثوابا أو عقابا على الأعمال الطالحة والصالحة التي تصدر في هذا العالم. واما لو إعتقدنا بأن السعادة الأخروية يمكن تحصيلها في ذلك العالم الاخر نفسه - كما يمكن الحصول على النعم الدنيوية في هذا العالم - فإن الإعتقاد بالحياة الأخروية سوف يفقد تاثيره الفاعل والأساس في الأفعال الدنيوية، إذ أنه - على حسب هذا الإعتقاد والفهم - يمكن القول: بأنه يلزم السعي في هذه الدنيا لتحصيل السعادة الدنيوية، كما أنه من أجل الوصول للسعادة الأخروية، لا بد من السعي في العالم الأخروي نفسه بعد الموت!

ومن هنا، كان من الضروري أن نثبت ايضا، إضافة لإثبات المعاد والحياة

الأخروية، العلاقة بين الحياتين (الدنيا والآخرة) وتأثير الأفعال الإختيارية في السعادة والشقاء الأبديين.

## إهتمام القرآن بمسألة المعاد

الملاحظ ان أكثر من ثلث الآيات القرآنية، مرتبط بالحياة الأبدية، وفي مجموعة من هذه الآيات أكد القرآن على لزوم الإيمان بالآخرة[1] ، وفي مجموعة أخرى، أشار إلى آثار إنكاره ومضاعفاته[2]، وفي مجموعة ثالثة، ذكر النعم الأبدية[3]، وفي مجموعة رابعة، تعّرض القرآن إلى أنواع العذاب الأبدي[4] كما أن هناك آيات كثيرة ذكرت العلاقة بين الأعمال الحسنة والسيئة، مع نتائجها وآثارها الاخروية وكذلك اكدت، بأساليب مختلفة، إمكان القيامة وضرورتها، وتعرضت إلى الجواب عن شبهات المنكرين، وقد بينت بعض الآيات أن السبب في الكثير من أنواع الضلال والإنحراف هو نسيان أو إنكار

---

(١) ﴿والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ البقرة: ٤. وانظر أيضا: لقمان: ٤. النمل: ٣.

(٢) ﴿وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ الاسراء: ١٠، وأيضا: الفرقان: ١١، وسبأ: ٨، والمؤمنون: ٧٤.

(٣) ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ الإنسان: ١١ ـ ٢١، وانظر: الرحمن: من الآية ٤٦ إلى آخر السورة. الواقعة: ١٥، ج ٣٨.

(٤) ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ الحاقة: ٢٠ ـ ٢٧، وانظر أيضا: الملك: ٦ ـ ١١، الواقعة: ٤٢ ـ ٥٦.

القيامة ويوم الجزاء[1].

ومن خلال التأمل في الايات القرآنية نتوصل إلى أن القسم الأكبر من أحاديث الأنبياء ومناظراتهم مع الناس كان يدور حول موضوع المعاد، بل يمكن القول بأن الجهود التي بذلوها لإثبات هذا الأصل كانت أكثر من جهودهم لإثبات التوحيد، وذلك لأن أغلب الناس كانوا يتخذون موقفا أكثر عنادا وتشددا من هذا الأصل، ويمكن ان نلخص السبب في عنادهم وتشددهم هذين في امرين: أحدهما عامل مشترك يتجسد في إنكار كل أمر غيبي وغير محسوس، والثاني عامل مختص بموضوع المعاد، اي الرغبة بالتحلل، وعدم الشعور بالمسؤولية، وذلك لما ذكرناه من أن الإعتقاد بالقيامة والحساب، يعتبر دعامة قوية وصلبة للشعور بالمسؤولية، ودافعا قويا لتقبل الكثير من الضوابط على السلوك والأعمال، والكف عن الظلم والاعتداء والفساد والمعصية. وبإنكاره، سوف يفتح الطريق أمام تدفق التصرفات المتحللة، وعبادة الشهوات والأنانيات، والإنحرافات. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا العامل في قوله: **﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ ، بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَه، بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَه﴾**[2].

ويمكن ان نلاحظ هذه الحالة النفسية من الإمتناع عن الإعتراف بالمعاد بمعناه الحقيقي في أولئك الذين يحاولون في أحاديثهم وكتاباتهم، تطبيق (البعث) و(اليوم الآخر) وسائر التعبيرات القرآنية عن المعاد على ظواهر هذا العالم الدنيوي، وبعث الامم والشعوب، وإقامة المجتمع غير الطبقي وبناء الجنة الارضية، أو أنهم يفسرون عالم الآخرة والمفاهيم المرتبطة به، بمفاهيم قيمية خلقية،

---

(١) **﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾** سورة ص: ٢٦، وانظر أيضا: السجدة: ١٤.

(٢) سورة القيامة، الآيات: ٣ ـ ٥.

واعتبارية، واسطورية [1].

وقد إعتبر القرآن الكريم أمثال هؤلاء من (شياطين الانس) و(أعداء الأنبياء) لأنهم يحاولون تشويه الأذهان وخداع القلوب بأحاديثهم الخادعة والمنمقة. وإقصاء الناس عن الإيمان والإعتقاد الصحيح، والتزام الأحكام والتعاليم الإلهية. **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ، وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾** [2].

## النتيجة

من أجل أن يمكن للانسان أن يختار في حياته طريقا يؤدي به إلى سعادته الحقيقية وكماله النهائي، فيلزم عليه أن يفكر: هل تنتهي الحياة الإنسانية بالموت؟ أم هل توجد هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة؟ وهل الانتقال من هذا العالم إلى عالم آخر، كالسفر من مدينة لأخرى، بحيث يمكنه توفير وسائل ومستلزمات المعيشة والحياة في تلك المدينة، أم أن الحياة في هذا العالم مقدمة، وارضية لحصول المسرات والآلام في ذلك العالم، ولا بد ان يعد العدة، ويعمل في هذا العالم، ليحصل على النتيجة النهائية هناك ؟، واذا لم يعالج الإنسان هذه المسائل، فلا يمكنه معرفة الطريق، وتعيين نظام الحياة وطريقتها، وذلك لأنه إذا لم يتعرف على مقصد سفره ومصيره، فلا يمكنه تحديد طريق الوصول اليه.

وأخيرا، نؤكد على وجود إحتمال وجود مثل هذه الحياة الأخروية مهما

---

(١) قال تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ النمل: ٦٨، وانظر أيضا: الاحقاف: ١٧.

(١) الانعام: الأيتان: ١١٢ ـ ١١٣.

إفترضناه ضعيفا، وهذا الإحتمال في نفسه يكفي في دفع الإنسان العاقل الواعي، إلى البحث والفحص حول تلك الحياة، وذلك لأن (مقدار المحتمل) غير نهائي.



## الأسئلة



١ . إشرح الفرق بين الإعتقاد بالمعاد وعدمه، في مجال توجيه النشاطات الحياتية.

٢ . متى يمكن للإعتقاد بالحياة الأخروية أن يؤثر اثره الكبير في توجيه الحياة الوجهة المطلوبة؟

٣ . إشرح إهتمام القرآن بموضوع المعاد.

٤ . إشرح السبب في تشدد الناس وعنادهم في الاعتراف بالمعاد.

٥ . إذكر نموذجا من سعي بعض مرضى النفوس لتحريف الإعتقاد بالمعاد، وموقف القرآن الكريم من هذه التحريفات.

## الدرس الثالث والثلاثون

# علاقة موضوع المعاد بقضية الروح

### ملاك الوحدة في الكائن الحي

يتألف بدن الإنسان من مجموعة (خلايا) كما هو الحال في جميع الحيوانات، وكل خلية منها في تحول وتبدل مستمرين، كما أن عدد الخلايا ليس ثابتا منذ الولادة حتى نهاية الحياة، ولا تجد إنسانا لا تتغير عناصر بدنه خلال حياته، أو أن عدد الخلايا يبقى ثابتا فيه.

ومع ملاحظة هذه التغيرات والتحولات التي تتعرض لها أبدان الحيوانات وخاصة الإنسان، يبرز هذا السؤال: ما هو الملاك في إعتبار هذه المجموعة المتغيرة كائنا واحدا مع ما نلاحظ من إمكان تبدل أجزائه خلال الحياة أكثر من مرة؟.

والجواب البسيط الذي يجاب به عن هذا السؤال: أن ملاك الوحدة في كل كائن حي هو ارتباط الأجزاء في زمان واحد أو أزمنة متعددة، وهذه الخلايا وإن كانت تموت تدريجيا، لتحل محلها خلايا جديدة، ولكن مع ملاحظة إرتباط هذه الحالات والمراحل، فيما بينها لذلك يمكن إعتبار هذه المجموعة غير الثابتة موجودا واحدا.

ولكن هذا الجواب غير مقنع، لإننا لو إفترضنا عمارة مؤلفة من مجموعة من الحجارة وهذه الحجارة تتبدل بالتدريج، بصورة لا تبقى معها الحجارة السابقة

تماما بعد فترة، لتحل موضعها حجارة جديدة، فلا يمكن لنا ان نعتبر مجموعة الحجارة الجديدة هي العمارة السابقة نفسها، وإن أستخدمت أمثال هذه التعبيرات في مثل هذا المجال بملاحظة الشكل الظاهري ومن باب المسامحة، وخاصة من أولئك الذين لم يعلموا بتغير أجزاء هذه المجموعة وتبدلها. ويمكن إكمال الجواب السابق بهذه الصورة: إن هذه التحولات التدريجية لا تضر بوحدة المجموعة في صورة حدوثها بسبب عامل طبيعي و داخلي، كما هو الملاحظ في الكائنات الحية. واما تبدل حجارة العمارة فقد تم بواسطة عامل خارجي وظاهري، لذلك لا يمكن نسبة الوحدة الحقيقية اليها على امتداد تبدل الأجزاء وتغيرها في الكائنات الحية بسبب وحدة عاملها الطبيعي.

وهذا الجواب يبتني على الإعتراف بوجود عامل طبيعي واحد، يبقى بنفسه دائما خلال مراحل التحولات، ويحافظ على إنتظام وإنسجام الأجزاء والأعضاء التي يتألف منها الجسم، ومن هنا يبرز السؤال حول هذا العامل نفسه، ما هي حقيقته؟ وما هو ملاك الوحدة فيه؟

ووفقا لنظرية فلسفية معروفة: فإن ملاك الوحدة في كل موجود طبيعي هو أمر بسيط (غير مركب) وغير محسوس، يسمى (الطبيعة) أو (الصورة)[1] لا يتبدل خلال تبدلات المادة وتغيراتها، ويعبر عن هذا العامل بالنفس في خصوص الكائنات الحية التي تقوم بأفعال مختلفة ومتعددة كالتغذية والنمو والتكاثر.

والفلاسفة القدامى كانوا يعتبرون النفس النباتية والحيوانية (مادية) وأما النفس الإنسانية فهي (مجردة)، ولكن هناك الكثير من حكماء الإسلام، أمثال صدر المتألهين الشيرازي، ذهبوا إلى أن النفس الحيوانية تحتوي على مرتبة من التجرد أيضا، وإعتبروا الشعور والإرادة من لوازم وعلامات الموجود المجرد، ولكن

(1) من الضروري ان نعلم أن لكل واحدة من هذه الألفاظ معاني إصطلاحية أخرى، والمراد منها هنا هي الصورة النوعية (كالنفس الإنسانية التي هي الصورة النوعية للإنسان).

الماديون الذين حصروا الوجود بالمادة وخواصها أنكروا الروح المجردة، والماديون الجدد (أمثال أصحاب الفلسفة الوضعية) أنكروا كل شيء غير محسوس، وفي أقل التقادير، إعتقدوا بأن الأمر غير المحسوس لا يقبل الإثبات العلمي، ومن هنا لم يقبلوا بوجود الطبيعة أو الصورة غير المحسوسة، وبطبيعة الحال فإنهم لا يملكون علاجا صحيحا لملاك الوحدة في الكائنات الحية.

وعلى إعتبار القول بأن ملاك الوحدة في النباتات هو نفسها النباتية، فتكون الحياة النباتية مرهونة بوجودة الصورة والنفس النباتية الخاصة في المواد المستعدة، وحين يزول الإستعداد عن هذه المواد، تنعدم الصورة أو النفس النباتية أيضا، وإذا إفترضنا حصول الإستعداد لتقبل الصورة النباتية في تلك المواد مرة أخرى، فإن نفسا نباتية جديدة تفاض عليها، ولكن على ضوء ذلك، لن تكون هناك وحدة حقيقية بين نبت قديم ونبت جديد بالرغم من وجود التشابه التام بينهما، أي لو نظرنا اليه نظرة فاحصة ودقيقة، فلا يمكن إعتبار النبت الجديد هو القديم.

وأما في مجال الحيوان والإنسان، فيما أن نفس كل منهما مجردة، فيمكن أن تبقى هذه النفس بعد ان يتلاشى البدن ويضمحل. وحين تتعلق من جديد بالبدن، يحتفظ الشخص بوحدته كما هو الحال قبل الموت، حين كانت وحدة الروح هذه هي الملاك في وحدة الشخص، وأما تبدل مواد البدن فلا يؤدي لتعدد الشخص ولكن إذا أعتقد احد بأن وجود الحيوان والإنسان محدد ومنحصر بهذا البدن المحسوس وخواصه وأعراضه، وإعتبر الروح خاصة أو مجموعة من خواص البدن، وحتى لو إعتبر الروح صورة غير محسوسة ولكنها مادية، تنعدم إذا تلاشت اعضاء البدن واضمحلت فمثل هذا الشخص لا يمكن أن يكون عنه تصور صحيح عن المعاد، وذلك لأننا لو إفترضنا أن البدن إكتسب إستعدادا جديدا للحياة، فستظهر فيه خواص وأعراض جديدة، وبناء على ذلك، فلا يملك الملاك الحقيقي لوحدته، لأن

المفروض أن الخواص السابقة إنعدمت تماما ووجدت خواص جديدة.

والحاصل هو أننا يمكن أن نتصور للحياة بعد الموت صورة صحيحة ومقبولة، فيما لو إعتبرنا الروح غير البدن وخواصه وأعراضه، بل يلزم ايضا عدم إعتبار الروح صورة مادية تحل في البدن، وتنعدم إذا تلاشى البدن، إذن فيجب علينا أولاً أن نعترف بوجود الروح، وثانيا لا بد من أن نعتبر الروح أمرا جوهريا، وليست من قبيل أعراض البدن، وثالثا لا بد من أن نعتقد بأن الروح قابلة للإستقلال وللبقاء إذا تلاشى البدن، وليست كالصور الحالة (او بتعبير آخر: المنطبعة في المادة) حيث تنعدم إذا تلاشى البدن واضمحل.

## موقع الروح في كيان الإنسان

والملاحظة الأخرى التي يلزم التنبيه عليها هنا هي أن تركيب الإنسان من الروح والبدن، ليس من قبيل تركيب مادة كيميائية من عنصرين، مثل تركيب الماء من الاوكسجين والهيدروجين، بحيث لو إنفصل أحدهما عن الآخر، لإنعدم الموجود المركب بصفته كلا ومركبا، بل إن الروح هي العنصر الأصلي والأساس في الإنسان، ومادامت باقية، فإن إنسانية الإنسان وشخصية الشخص باقية، ومحتفظة بنفسها ومن هنا، فإن تغير خلايا البدن وتبدلها لا يضر بوحدة الشخص وذلك لأن ملاك الوحدة الحقيقية للإنسان هو وحدة روحه. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة، عند جوابه عن المنكرين للمعاد، حين سألوا: كيف يمكن للإنسان أن يكتسب حياة جديدة بعد أن تتلاشى أجزاء بدنه؟ أجاب ﴿**قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ**﴾[1]، إذن، فإنسانية كل إنسان وشخصيته متقومة بذلك الشيء الذي يقبضه ملك الموت، ويستوفيه، لا أجزاء بدنه التي تتفرق وتتبعثر في الأرض.

(1) سورة السجدة، الآية: 11.



# الأسئلة



١ . ما هي النظرية الفلسفية المعروفة حول وحدة الموجودات المركبة، وخاصة الكائنات الحية؟

٢ . ما هو الفرق بين الصورة الطبيعية والنفس؟

٣ . ما هو فرق النفس النباتية عن النفس الحيوانية والإنسانية؟ وما هو تأثير هذا الفرق في مسألة المعاد؟

٤ . ما هي الأصول التي يحتاج إليها التصور الصحيح للمعاد؟

٥ . ما هو الفرق بين تركيب الإنسان من الروح والبدن، والتركيبات الكيميائية؟

## الدرس الرابع والثلاثون

# تجرد الروح

### المقدمة

إتضح مما سبق ان مسألة المعاد تبتني على مسألة الروح، بمعنى أنه إنما يمكن أن يقال: «أن الشخص الذي ترد له الحياة بعد موته هو الشخص السابق نفسه»، فيما لو كانت روحه باقية بعد أن يتلاشى البدن. وبعبارة أخرى: إن كل إنسان يملك غير بدنه المادي جوهرا غير مادي يقبل الإستقلال عن البدن، ترتبط به إنسانيته وشخصيته، وإما في غير هذه الصورة، فإن إفترض حياة جديدة للشخص نفسه إفتراض غير معقول. ومن هنا، وقبل البحث في موضوع إثبات المعاد وإستعراض مسائله، يلزم علينا إثبات هذه الفكرة، وهذا الدرس مخصص للبحث عنها، ونستدل لإثباتها من خلال طريقين : أحدهما طريق العقل، والآخر طريق الوحي[1].

---

(١) من الممكن ان يتوهم : ان الإستدلال عن طريق الوحي لإثبات مسائل الروح والمعاد إستدلال دوري، وذلك لانه في البرهان الذي اقيم على ضرورة النبوة، أخذت الحياة الأخروية (المبتنية على مسألة الروح) (كأصل موضوعي) ، إذن فإثبات هذا الأصل بنفسه من طريق الوحي والنبوة مستلزم للدور . ولكن يلزم ان نعلم أن صحة الإستدلال بالوحي لا تحتاج إلى مسألة (ضرورة النبوة) بل إنها تتوقف على (وقوعها)، حيث يثبت عن طريق المعجزة (لاحظ بدقة) وبما ان القرآن الكريم بنفسه معجزة ودليل على أن نبي الإسلام (ص) على حق، فيصح الإستدلال به لإثبات مسائل الروح والمعاد.

## الادلة العقلية على تجرد الروح

بحث العلماء كثيرا ومنذ زمان قديم في الروح (ويعبر عنها في الإصطلاح الفلسفي بالنفس)[1] وخاصة حكماء الإسلام، إذ إهتموا إهتماما كبيرا بهذا الموضوع، وخصصوا في كتبهم الفلسفية فصولا مهمة للبحث فيه. وكتبوا رسائل وكتبا مستقلة في هذا المجال، وناقشوا، بأدلة كثيرة، تلك الآراء التي تذهب إلى أن الروح عرض من أعراض البدن، أو أنها صورة مادية (منطبعة في مادة البدن).

ومن الواضح أن البحث بتوسع في هذا الموضوع هنا لا يتناسب وهذا الكتاب، لذلك نبحث فيه بإختصار، ونحاول عرضه بإسلوب واضح ومتقن، ونبدأ هذا البحث المشتمل على بعض البراهين العقلية، بهذه المقدمة. نشاهد لون جلدنا وشكل بدننا بعيننا، ونتحسس خشونة أعضائه ونعومتها بحاسة اللمس، ولا يمكن التعرف على داخل أبداننا إلا بصورة غير مباشرة. ولكن خوفنا وحبنا، وغضبنا وإرادتنا وتفكيرنا ندركها بدون الإحتياج للحواس، وكذلك نتعرف على (الأنا) الذي يملك هذه الإحساسات والمشاعر والعواطف والحالات النفسية بدون إستخدام الحواس.

إذن فالانسان يملك نوعين من الإدراك: أحدهما يحتاج فيه إلى الحواس، والثاني لا يحتاج فيه إلى الحواس.

والقضية الأخرى: مع ملاحظة الأخطاء التي تتعرض لها المدركات الحسية، فمن الممكن حصول إحتمال الخطأ في النوع الأول من المدركات، خلافا للنوع الثاني، فهي لا مجال فيها للخطأ والإشتباه والشك والتردد، فيمكن للمرء أن يشك في لون جلده، وأنه هل شخصه كما هو في الواقع فعلا أم لا، ولكن لا يمكن لأحد أن يشك، هل أنه فكر أم لا، أو أراد شيئا أم لا، أو شك أم لا؟!

---

[1] يجب ان نعلم أن المصطلح الفلسفي (للنفس) غير المصطلح الأخلاقي، فقد استخدم في الأخلاق بما يقابل (العقل)، وبما يصدق على ضده.

وهذه الفكرة هي التي تطرح في الفلسفة بهذا التعبير: وهو آن العلم الحضوري يتعلق مباشرة بالواقع نفسه ومن هنا لا يقبل الخطأ، وأما العلم الحصولي، فبما أنه يحصل بواسطة الصورة الإدراكية، لذلك يقبل الشك و التردد ذاتا[1].

ومعنى ذلك، أن أكثر علوم الإنسان ومعارفة يقينية هي العلوم الحضورية والمدركات الشهودية التي تشمل العلم بالنفس والإحساسات والمشاعر والعواطف والحالات النفسية الأخرى، ومن هنا، فإن (أنا) المدرك، المفكر، المريد، لا يقبل الشك والتردد ابدا، وكذلك وجود حالات الخوف والحب والغضب والتفكير والإرادة، لا يقبل التردد.

ومن هنا يبرز هذا السؤال: هل هذا (الأنا) هو البدن المادي والمحسوس؟ وهل أن هذه الحالات النفسية بدورها من أعراض البدن، أم أن وجودها غير وجود البدن، وإن كان (للأنا) علاقة وثيقة وقوية بالبدن، إذ إن (الأنا) يقوم بالكثير من أعماله ونشاطاته بواسطة البدن، وكما يؤثر بالبدن، فإنه يتأثر به ايضا؟

ومع ملاحظة المقدمة المذكورة، يسهل الجواب عن هذا السؤال، وذلك: أولاً: أننا ندرك (الأنا) بالعلم الحضوري، وأما البدن فلابد من أن نتعرف عليه بمعونة الحواس . اذن فالأنا ( = النفس والروح) غير البدن.

ثانياً: إن (الأنا) موجود يبقى محتفظا خلال عشرات السنين على وصف الوحدة والشخصية الحقيقية، وندرك هذه الوحدة والشخصية بالعلم الحضوري الذي لا يقبل الخطأ، واما أجزاء البدن، فانها تتعرض للتغير والتبديل، مرات عديدة، ولا يوجد أي ملاك للوحدة الحقيقة بين أجزائه السابقة واللاحقة.

ثالثاً: إن (الأنا) موجود بسيط لا يقبل التجزئة والتقسيم، فلا يمكن مثلا تقسيمه إلى نصفين، بينما أعضاء البدن متعددة وقابلة للتقسيم.

رابعاً: الملاحظ ان جميع الحالات النفسية كالإحساس والإرادة وغيرهما، لا

(١) راجع: تعليم الفلسفة، الجزء الاول، الدرس الثالث عشر.

تملك الخاصة الأصلية والرئيسة للماديات اي الإمتداد والقابلية للتقسيم، لذلك لا يمكن إعتبار هذه الأمور غير المادية من أعراض المادة (البدن)، إذن لا بد من ان يكون موضوع هذه الأعراض جوهرا غير ماديّ (= المجرد)[1].

ومن الأدلة الباعثة على الإطمئنان بوجود الروح وإستقلاليتها وبقائها بعد الموت هو الأحلام والأطياف الصادقة، فقد أطلع بعض الأفراد بعد موتهم شخصاً نائماً على بعض المعلومات الصحيحة. وكذلك من الأدلة تحضير الارواح المقترن بشواهد قاطعة ومعبرة، وكذلك يمكن إثبات تجرد الروح بكرامات أولياء الله، وحتى ببعض أعمال المرتاضين، والبحث في هذه المسائل يحتاج إلى كتاب مستقل.

## شواهد قرآنية

يذهب القرآن الكريم إلى وجود الروح الإنسانية، وهذه الحقيقة القرآنية مما لا تقبل الشك والتردد. فهي الروح التي تنسب للّه تعالى، لشدة شرفها وسموها[2] كما يقول القرآن الكريم في كيفية خلق الإنسان: ﴿ **وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ** ﴾[3].

وليس المراد -والعياذ بالله- إنفصال شيء من ذات الله وإنتقاله للإنسان. وفي مجال الحديث في خلق آدم عليه السلام يقول تعالى: ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾[4].

وكذلك، يستفاد من آيات أخرى، ان الروح غير البدن، وخواصه و أعراضه، وأنها تمتلك قابلية البقاء بدون البدن، ومن هذه الآيات، ما ينقله القرآن على لسان الكفار: ﴿**أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾[5].

---

(١) تعليم الفلسفة، الجزء الثاني، الدرس الرابع والاربعون، والتاسع والاربعون.

(٢) أصول الكافي، ج ١، ص ١٣٤.

(٣) سورة السجدة، الآية: ٩.

(٤) الحجر: ٢٩، وسورة ص: ٧٢.

(٥) سورة السجدة، الآية: ١٠.

أي إذا تفرقت أجزاء أبداننا في التراب، ويجيبهم القرآن الكريم بقوله: ﴿**قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**﴾[1].

إذن فملاك هوية الإنسان وحقيقته هو روحه، التي يقبضها ملك الموت، و التي تظل باقية، وليس أجزاء البدن التي تتلاشى وتتفرق في الارض.

وفي موضع آخر يقول: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**﴾[2].

وفي مجال موت الظالمين يقول: ﴿**إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ**﴾[3].

ونفهم من هذه الآيات وآيات أخرى ـ نعرض عن ذكرها رعاية للإختصار ـ أن نفس كل امرئ تتحدد بذلك الشيء الذي يقبضه ملك الموت أو الملائكة الموكلون بقبض الأرواح، وأن إنعدام البدن لا تأثير له في بقاء الروح ووحدة الإنسان الشخصية. ونتيجة ذلك كله:

أولاً: انه يوجد في الإنسان شيء يدعى بالروح.

وثانياً: الروح الإنسانية قابلة للبقاء والإستقلال عن البدن، وليست هي من قبيل الأعراض والصور المادية التي تنعدم حين يتلاشى المحل.

وثالثاً: إن هوية كل امرئ مرتبطة بروحه، وبعبارة أخرى: إن حقيقة كل انسان هي روحه، أما البدن فانه يقوم بدور الآلة بالنسبة للروح.

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١١.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٣.



# الأسئلة



١ . عّرف العلم الحضوري والحصولي، وإذكر الفروق بينهما.

٢ . إشرح الأدلة العقلية على تجرد الروح.

٣ . ما هي الطرق الأخرى التي يمكن بها إثبات تجرد الروح؟

٤ . إذكر الآيات المرتبطة بهذا الموضوع.

٥ . ما هي النتائج التي نتوصل اليها بالإستفادة من هذه الايات؟

الدرس الخامس والثلاثون

# اثبات المعاد

## المقدمة

إن الإعتقاد بالمعاد، وإحياء الناس جميعا في عالم الآخرة، من أهم الأصول العقائدية في جميع الأديان السماوية. وقد أكد الأنبياء كثيرا على هذا الأصل، وتحملوا الكثير من المتاعب والتحديات في سبيل ترسيخ هذه العقيدة في النفوس وتثبيتها. وقد إعتبر القرآن الكريم الإعتقاد بالمعاد عدلا وقرينا للإعتقاد بالتوحيد، واستخدام في ما يتجاوز العشرين آية كلمات (الله) و(اليوم الآخر)، أحدهما في سياق الآخر، (اضافة إلى ان القرآن الكريم تحدث عن شؤون الآخرة وأخبارها في أكثر من ألفي آية في سوره المختلفة).

وقد تعرضنا في بداية هذا الجزء لأهمية البحث في معرفة العاقبة والمصير، ووضّحنا بأن التصور الصحيح للمعاد يبتني على الإعتراف بروح تعتبر هي الملاك في هوية كل إنسان، وأنها ستبقى بعد الموت حتى يمكن القول: بان ذلك الشخص الذي مات في الدنيا هو الذي ردت له الحياة في عالم الآخرة مرة أخرى. وبعد ذلك بحثنا في إثبات هذه الروح عن طريق العقل والوحي، كل ذلك، من أجل أن نمهد الطريق لدراسة البحوث الرئيسة والأصلية حول الحياة الأبدية للإنسان، والآن

حان الوقت للبحث في إثبات هذا الأصل العقائدي المهم.

وكما أننا أثبتنا مسألة الروح من خلال طريقين (العقل والنقل)، فإن هذه المسألة أيضا يمكن إثباتها من خلال هذين الطريقين، ونحن هنا نذكر دليلين عقليين على ضرورة المعاد، وبعد ذلك نستعرض بعض الآيات القرآنية حول إمكان المعاد وضرورتة.

### برهان الحكمة

إتضح في الجزء الأول من هذا الكتاب أن خلق الإنسان ليس عبثا، وبلا هدف وغاية، بل إن حب الخير والكمال الذي هو عين الذات الإلهية قد تعلق أصالة بالذات نفسها وتعلق تبعا بآثارها التي لها مراتب ودرجات من الخير والكمال، ومن هنا خلق العالم بالصورة التي يترتب عليها أكثر ما يمكن من الخير والكمال، وعلى هذا الأساس تثبت صفة الحكمة. ومقتضاها أن تصل المخلوقات إلى غايتها وكمالها اللائق والمناسب لها. ولكن بما أن العالم المادي عالم التزاحم، حيث تتعارض وتتصادم خيرات الموجودات وكمالاتها فيما بينها، فإن مقتضى التدبير الإلهي الحكيم أن تنظم الموجودات بالصورة التي يترتب عليها جميعا أكثر ما يمكن من الخيرات والكمالات، وبعبارة أخرى: أن يملك العالم النظام الاحسن، ومن هنا، نظمت ونسقت أنواع العناصر وكميتها وكيفيتها وتفاعلاتها وحركتها بصورة تتوفر معها الارضية والظروف المناسبة لإيجاد وخلق النباتات والحيوانات، وأخيرا، تتوفر الأرضية الملائمة لخلق الإنسان - أكمل الموجودات في هذا العالم - وأما إذا كان خلق العالم المادي قد تم بصورة يمتنع معها وجود الكائنات الحية أو رشدها ونموها، فإن ذلك سيكون خلاف الحكمة.

ونضيف هنا: مع ملاحظة أن الإنسان يمتلك الروح القابلة للبقاء، ويمكنه الحصول على الكمالات الأبدية الخالدة، تلك الكمالات التي لا يمكن مقارنتها

بالكمالات المادية من حيث الدرجة والقيمة الوجودية، بل تفضل عليها وتتفوق بكثير، فاذا تحددت حياته بهذه الحياة الدنيوية، فإن ذلك لا يتلاءم مع الحكمة الإلهية، وخاصة مع ملاحظة إقتران الحياة الدنيوية بالمتاعب والمشاق والمصاعب الكثيرة، ولا يمكن الحصول على لذة غالبا بدون معاناة ومشقة وتعب بحيث توصل الخبراء لهذه النتيجة، بان الحصول على تلك اللذات الضئيلة لا يساوي شيئا تجاه المتاعب والمصاعب التي يتحملها الإنسان في سبيل الحصول عليها، ومن هنا ولد الإتجاه للعبثية، بل إتجه بعض الناس للإنتحار بالرغم من وجود الرغبة الفطرية الملحة بالبقاء والحياة.

حقا اذا تحددت حياة الإنسان بذلك، يعاني المتاعب دائما، ويعالج المشاكل الطبيعية والإجتماعية، ليقضي بعد ذلك لحظات من المتعة واللذة، ثم بعد ذلك، يغرق في النوم نتيجة لإرهاقه وتعبه، وبعد فترة استراحته، ينهض من جديد، ليواجه مرة أخرى تلك المتاعب والمشاكل، فيبذل اقصى جهوده من اجل الحصول على لقمة العيش، ثم يتمتع للحظات قليلة بتناولها، وبعد ذلك لا شيء، إن مثل هذه الحياة الروتينية الرتيبة المرهقة والباعثة على الملل والسأم، لا يرتضيها العقل، ولا يفتي بإختيارها ويمكن أن نشبه هذه الحياة بأفضل أشكالها، بذلك السائق الذي يقود سيارته إلى محطة وقود ليملأ سيارته منها وبعد ان يستخدمه في حركتها يواصل مسيره إلى محطة أخرى وهكذا دواليك، حتى تنهار قوى سيارته وتتعطل وتصطدم بسيارة أخرى أو شيء آخر وتتحطم!

ومن البديهي: فإن من غرائز الإنسان الأصيلة حب البقاء والخلود، أودعتها يد الخلق الإلهية في فطرة الإنسان، وهي تعتبر قوة محركة دافعة تسوقه للأبدية، وتحثه دائما على متابعة حركته، ولو إفترضنا أن مصير هذا المتحرك، وفي ذروة تحركه ونشاطه، ليس إلا الإرتطام بصخرة صماء، ثم يتلاشى ويتحطم، فكيف يتلاءم ايجاد مثل هذه القوة المحركة مع هذا المصير والغاية؟!

إذن، فوجود مثل هذا الميل الفطري انما يتلأم مع الحكمة الإلهية فيما لو وجدت حياة أخرى غير هذه الحياة المحكوم عليها بالموت والفناء.

والحاصل:

من خلال ضم إحدى هاتين المقدمتين إلى الأخرى - اي الحكمة الإلهية وإمكان الحياة الإبدية للإنسان - نتوصل هذه النتيجة وهي: انه لا بد من وجود حياة أخرى للانسان وراء هذه الحياة الدنيوية المحدودة القصيرة، حتى لا تتنافى حياته مع الحكمة الإلهية.

ويمكن إعتبار هذا الميل الفطري للأبدية والخلود مقدمة أخرى نضمها للحكمة الإلهية، لنؤلف من خلال ذلك برهانا آخر على هذه الحقيقة. وإتضح من خلال ذلك أيضا: أن الحياة الإبدية للإنسان لا بد من أن يكون لها نظام آخر، وليست كالحياة الدنيوية مستلزمة للمتاعب الكثيرة، والا فإن إستمرار هذه الحياة الدنيوية بكل مستلزماتها ومتاعبها، حتى لو كانت مؤبدة خالدة لا يتلاءم مع الحكمة الإلهية.

### برهان العدالة

إن الناس أحرار في هذا العالم في اختيار و ممارسة الأعمال الحسنة أو السيئة. فمن جانب، نلاحظ بعض الأفراد يقضون أعمارهم كلها في عبادة الله وخدمة عباده ومن جانب آخر، نلاحظ بعض الأشرار والمجرمين يرتبكون - من اجل الوصول لنزواتهم واطماعهم الشيطانية - أبشع أنواع الظلم وأفظع ألوان الذنوب، بل إن الهدف من خلق الإنسان في هذا العالم، وتجهيزه بأنواع الميول المتضادة، وبقوة الإرادة والإختيار، وبأنواع المعارف العقلية والنقلية وتوفير الأجواء والظروف للأفعال المختلفة، وجعله على مفترق طريقين، الحق والباطل، والخير والشر، الهدف من ذلك كله ان يكون معرضا للإختيارات والإبتلاءات العديدة، وليختار

مسير تكامله بإرادتة وإختياره، حتى يصل إلى نتائج أفعاله الإختيارية، وثوابها أو عقابها. وفي الواقع إن الحياة الدنيوية بكاملها جعلت للإنسان دار إبتلاء وإختبار، وبناء لهويته الإنسانية، وحتى في اواخر لحظات حياته وعمره، لا يعفى من هذا الإمتحان والتكليف وممارسة الوظائف.

ولكننا نرى ان الأخيار والأشرار لا يصلون في هذه الدنيا إلى الثواب والعقاب الملائم لأعمالهم، بل اننا نرى الكثير من الأشرار والمجرمين يتوفرون أكثر من غيرهم على النعم والملذات، والملاحظ أن الحياة الدنيوية لا تستوعب الثواب أو العقاب على الكثير من الأعمال والتصرفات. فمثلا: ذلك المجرم الذي قتل آلاف الابرياء لا يمكن الاقتصاص منه في هذه الدنيا إلا مرة واحدة وبطبيعة الحال سوف تبقى الكثير من جرائمه بدون عقاب مع أن مقتضى العدل الالهي ان يرى حتى من ارتكب اقل الأعمال الحسنة أو السيئة نتائجها وجزائها.

إذن. فكما أن هذا العالم دار إختبار وتكليف، فلابد من وجود عالم آخر، يعتبر دار ثواب وعقاب، وظهور نتائج الأعمال فيه، ليصل كل فرد إلى ما يتلام وأعماله، لتتجسد العدالة الإلهية عمليا وحسيا بذلك[1]!.

ومن خلال ذلك يتضح أيضا بأن عالم الآخرة ليس عالم إختيار الطريق أو ممارسة التكاليف، وسوف نبحث في المستقبل في هذا الموضوع أكثر.

---

(١) مع ملاحظة أن العدالة في الواقع من مصاديق الحكمة، فيمكن ان نعتبر هذا البرهان من أنواع الإستدلال عن طريق الحكمة الإلهية.



## الأسئلة



١ . وضّح الحكمة الإلهية، وعلاقتها بالنظام الأحسن.

٢ . بيّن برهان الحكمة بكلتا صيغتيه.

٣ . ما هي الملاحظة التي نستفيدها من هذا البرهان، غير إثبات أصل المعاد؟

٤ . إشرح برهان العدالة.

٥ . ما هي الملاحظة الخاصة التي تستفاد من هذا البرهان.

الدرس السادس والثلاثون

# أجوبة القرآن الكريم عن شبهات المنكرين للمعاد

من خلال إحتجاجات القرآن الكريم ومناظراته مع منكري المعاد ومن خلال اسلوب أجوبته على مزاعمهم، يبدو انه كانت هناك شبهات في أذهانهم، ونحن نستعرضها وننظمها بما يتناسب والاجوبة عنها.

## ١ ـ شبهة إعادة المعدوم

اشرنا سابقا إلى أن القرآن الكريم أجاب أولئك الذين كانوا يقولون «كيف يحيى الإنسان من جديد بعد أن يضمحل ويتلاشى بدنه؟» بما مفاده: أن هويتكم قائمة بروحكم، لا بأعضاء بدنكم الذي يتفرق في الأرض[1].

ويمكن أن يكون الدافع لإنكار الكفار المعاد هو تلك الشبهة التي يعبر عنها في الفلسفة بـ(إستحالة إعادة المعدوم)، اي أن هؤلاء كانوا يعتقدون بأن الإنسان هو هذا البدن المادي الذي يتلاشى وينعدم بالموت، وإذا ردت له الحياة من جديد بعد الموت، فهو إنسان آخر، إذ إن اعادة المعدوم أمر محال وممتنع، وليس لها امكان ذاتي.

(١) قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ، قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ السجدة: ١٠ ـ ١١.

ويتضح الجواب عن هذه الشبهة من القرآن الكريم، وأن الهوية الشخصية لكل إنسان وحقيقته متمثلة بروحه، وبعبارة أخرى: إن المعاد ليس من اعادة (المعدوم)، بل عودة (الروح الموجودة).

### ٢ ـ شبهة عدم قابلية البدن للحياة الجديدة

الشبهة السابقة كانت مرتبطة بالإمكان الذاتي للمعاد، أما هذه الشبهة فهي ناظرة لإمكانه الوقوعي، بمعنى : أن عودة الروح للبدن وإن لم تكن محالا عقليا، ولا يلزم التناقض من إفتراضها، ولكن وقوع العودة فعلا وخارجا مشروط بقابلية البدن، ونحن نرى أن حصول الحياة منوط بشروط وأسباب خاصة، لا بد من توفرها تدريجياً، فمثلا: لا بد من أن تستقر النطفة في الرحم ولا بد من توفر شروط مناسبة لنموها وتكاملها، لتصبح جنينا متكاملا بالتدريج، ولتكون بصورة إنسان، ولكن البدن الذي يتلاشى يفقد قابليته وإستعداده للحياة.

والجواب عن هذه الشبهة: أن النظام المشهود في عالم الدنيا، ليس هو النظام الممكن وحده، والشروط والأسباب التي نتعرف عليها من خلال التجربة ليست أسبابا وعللا منحصرة، والشاهد على ذلك وقوع بعض الظواهر والحوادث الحياتية الخارقة للعادة في هذا العالم نفسه، أمثال إحياء بعض الحيوانات أو الناس.

ويمكن التوصل لمثل هذا الجواب من ذكر بعض الظواهر الخارقة للعادة في القرآن الكريم.

### ٣ ـ الشبهة في مجال قدرة الفاعل

الشبهة الأخرى: انه يشترط في وقوع آية ظاهرة من الظواهر وتحققها: قدرة الفاعل على ذلك، إضافة للإمكان الذاتي وقابلية القابل، ومن أين نعرف أن الله

تعالى لا يملك القدرة على إحياء الموتى؟!

وهذه الشبهة الضعيفة، إنما تطرح من قبل أولئك الذين يجهلون قدرة الله اللامتناهية، والجواب عنها: أن القدرة الالهية ليس لها حدود، وتتعلق بكل شيء ممكن الوقوع، كما هو الملاحظ بأنه تعالى خلق هذا الكون الواسع بكل ما يتمتع به من عظمة مثيرة للدهشة والإعجاب: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**[1].

إضافة أن الخلق الجديد ليس أكثر صعوبة من الخلق الأول، ولا يحتاج إلى قدرة أكثر، بل من الممكن القول أنه أهون وأسهل، إذ ليس فيه إلا إعادة الروح الموجودة: **﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ﴾**[2]. **﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾**[3].

## ٤ ـ الشبهة في مجال علم الفاعل

الشبهة الأخرى هي ما يقال: أنه إذا أراد الله إحياء الناس، ومجازاة أعمالهم ثواباً أو عقاباً فيلزم من جانب أن يميّز بين الأبدان التي لا تعد ولا تحصى، ليعيد كل روح إلى بدنها، ومن جانب آخر، لا بد من أن يتذكر جميع الأعمال الحسنة والسيئة، ليجازي كلا منها بما تستحقه من الثواب أو العقاب، ولكن كيف يمكن التمييز والتعرف على الأبدان التي تحولت إلى تراب، واختلطت ذراتها واجزاؤها؟ وكيف يمكنه أن يضبط ويتذكر أعمال البشر كلها خلال الآلاف بل الملايين من السنين ليحاسبها؟

وهذه الشبهة طرحها أولئك الذين يجهلون العلم الإلهي غير المتناهي، حيث

---

(١) الأحقاف: ٣٣، وانظر كذلك سورة يس: ٨١، والإسراء: ٩٩، والصافات: ١١، والنازعات: ٢٧.

(٢) الإسراء: ٥١ وانظر أيضا: العنكبوت: ١٩ ـ ٢٠، وق: ١٥، والواقعة: ٦٢، ويس: ٨٠، والحج: ٥، والطارق: ٨.

(٣) سورة الروم، الآية: ٢٧.

قاسوا العلم الإلهي بعلومهم الناقصة المحدودة، والجواب عن هذه الشبهة أن العلم الإلهي ليس له حدود، وله إحاطة بكل شيء، ولا ينسى الله تعالى أي شيء.

وينقل القرآن الكريم عن فرعون قوله لموسى عليه السلام: ﴿**قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى**﴾؟ فقال موسى عليه السلام: ﴿**عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى**﴾[1].

وقد ذكر في آية أخرى الجواب عن الشبهتين الاخيرتين: ﴿**قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾[2].



## الأسئلة



١ ـ بيّن هذه الشبهة (إستحالة إعادة المعدوم)، والجواب عنها.

٢ ـ إشرح هذه الشبهة (عدم قابلية البدن للحياة الجديدة) والجواب عنها.

٣ ـ إذكر بعض الظواهر الخارقة للعادة في القرآن الكريم التي تدل على قابلية البدن عادة لتقبل الحياة مرة ثانية.

٤ ـ بيّن الشبهة في مجال قدرة الفاعل والجواب عنها.

٥ ـ وضّح الشبهة في مجال علم الفاعل والجواب عنها.

---

(١) طه: ٥١ ـ ٥٢، وتراجع ايضا: سورة ق): ٢ ـ ٤.

(٢) سورة يس، الآية: ٧٩.

الدرس السابع والثلاثون

# دور الإيمان والكفر في السعادة والشقاء الأبديين

يقع البحث في هذا الدرس عن العلاقة بين الإيمان والعمل الصالح، وكذلك بين الكفر والمعصية. وعن وجود تأثر وتأثير بين الأعمال الحسنة والسيئة نفسها؟

هل أن كلا من الإيمان والعمل الصالح عامل مستقل في السعادة الابدية، أم أن عامل السعادة هو مجموعهما، حيث يساهم كلاهما في تحقيق السعادة، دون ان يكون لأحدهما بمفرده هذا التأثير؟ وكذلك، هل أن كلا من الكفر والعصيان عامل مستقل في العذاب الأبدي، أم أن هذا الأثر مترتب على مجموعهما؟ وفي الصورة الثانية: - إذا توفر الإنسان على الإيمان وحده، أو العمل الصالح وحده، فماذا سيكون مصيره وعاقبته؟ وكذلك لو إتصف الإنسان بالكفر وحده، أو إرتكب المعصية فحسب، فماذا ستكون عاقبته؟ وإذا إرتكب المؤمن ذنوبا كثيرة، أو صدرت من الكافر أعمال خيرة كثيرة، فهل سيكون من أهل السعادة أو من أهل الشقاء؟ وفي كلتا الصورتين: إذا عاش الإنسان فترة من عمره ملتزما بالإيمان والعمل الصالح، بينما عاش في فترة أخرى متورطا في الكفر والمعصية، فماذا ستكون عاقبته؟ ومثل هذه المسائل، بحث فيها منذ القرن الأول الهجري، فقد اعتقد بعض الناس أمثال (الخوارج) بأن ارتكاب المعصية عامل مستقل في الشقاء الأبدي، بل

أنه يؤدي إلى الكفر والإرتداد. بينما إعتقدت جماعة آخرى أمثال (المرجئة) بأنه يكفي الإيمان وحده في السعادة الأبدية، ولا يضر إرتكاب المعصية شيئا في سعادة المؤمن.

والقول الحق في هذا المجال: أنه ليست كل المعاصي توجب الكفر والشقاء الأبدي، وإن كان من الممكن لتراكم الذنوب أن يؤدي إلى سلب الإيمان وفقدانه، ومن جانب آخر: فلا يصح الرأي الآخر القائل بأنه مع وجود الايمان يغتفر كل ذنب، ولا تضر المعصية.

وفي بداية هذا الدرس نذكر توضيحا حول حقيقة الإيمان والكفر، وبعد ذلك نبحث في تأثيرهما في السعادة أو الشقاء الأبدي.

## حقيقة الإيمان والكفر

إن الإيمان حالة قلبية ونفسية تنشأ من العلم بمفهوم، والميل اليه، وهو يقبل الكمال والنقص نتيجة لشدة أحد هذين العاملين أو ضعفه، وهما العلم والميل، وإذا لم يعلم الإنسان بوجود شيء وإن كان علما ظنيا - فلا يمكنه الايمان به، ولكن لا تكفي المعرفة والعلم - فحسب - في حصول الإيمان، إذ من الممكن أن يكون المعلوم أو لوازمه مخالف لرغبته وميوله، بينما يميل إلى ضد هذا الأمر المعلوم، ولذلك لا يعزم ولا يصمم على العمل بلوازمه، بل ربما صمم وعزم على العمل بضده.

وكما قال القرآن الكريم حول الفراعنة: **﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾**[1] وقال موسى عليه السلام في خطابه لفرعون: **﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾**[2].

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

(٢) سورة الاسراء، الآية: ١٠٢.

مع أن فرعون لم يؤمن، وكان يقول للناس: **﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾**[1].
وانما آمن حين أوشك على الغرق حيث قال: **﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾**[2].

ومثل هذا الإيمان الإضطراري لا يقبل من الإنسان إن أمكن تسميته بالايمان. إذن، فالايمان متقوم بالميل القلبي والإختيار خلافا للعلم والمعرفة، فيمكن حصوله بدون إختيار الشيء المعلوم، ومن هنا، يمكن إعتبار الإيمان (عملا قلبيا إختياريا)، وذلك فيما لو وسعنا من مفهوم العمل بما يشمل الأعمال القلبية، فيمكن أن نعتبر الإيمان من مصاديق العمل. وأما لفظة (الكفر)، فتستخدم تارة في عدم ملكة الإيمان، حيث يطلق الكفر على عدم الإيمان - سواء نشأ عدم الإيمان من الشك والجهل البسيط، أو من الجهل المركب، أو نشأ من الميل للاتجاه المخالف للإيمان تعمدا وعنادا - وتارة أخرى، يختص الكفر بالقسم الاخير اي حالة الجحود والعناد، ويعتبر هذا القسم أمرا وجوديا مضادا للإيمان.

## نصاب الإيمان والكفر

يستفاد من الايات القرآنية الكريمة، والروايات الشريفة، أن الحد الأدنى من الإيمان الذي يلزم توفره من أجل الحصول على السعادة الابدية، عبارة عن الإيمان بالله الواحد، وبالثواب والعقاب الأخرويين، وبصحة ما نزل على الأنبياء (عليهم السلام). ومما يلزم من هذا الإيمان ويترتب عليه العزم والتصميم الإجمالي على العمل بتعاليم الله تعالى وأحكامه، واما رفع درجات الإيمان فإنه مختص بالأنبياء والأولياء الإلهيين (سلام الله عليهم اجمعين).

وأما الحد الأدنى للكفر فهو عبارة عن إنكار التوحيد أو النبوة أو المعاد أو الشك

(١) سورة القصص، الاية: ٣٨.
(٢) سورة يونس، الآية: ٩٠.

فيها، أو إنكار أمر يعلم بنزوله من الله تعالى على الأنبياء، وأما أسوأ مراتب الكفر فهو الإنكار عنادا لهذه الحقائق مع العلم بصحتها والعزم والتصميم على محاربة الدين الحق . ومن هنا، يكون الشرك (إنكار التوحيد) من مصاديق الكفر، وأما النفاق فهو الكفر الباطني، المقترن بالخداع والتظاهر بالإسلام، والمنافق (الكافر المقنع) أكثر إنحطاطا وسقوطا من سائر الكفار، كما قال القرآن الكريم: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**﴾[1].

والملاحظة التي يلزم تأكيدها هنا: أن الإسلام أو الكفر الذي يبحث الفقه فيه، ويكون موضوعا لبعض الاحكام، أمثال طهارة الذبيحة وحليتها، وجواز النكاح والإرث وعدمه، لا يلازم الإيمان أو الكفر الذي نبحثه في أصول الدين، إذ من الممكن أن ينطق أحد بالشهادتين، وتثبت له الاحكام الفقهية الإسلامية، مع أنه لم يؤمن قلبيا بمضمون التوحيد والنبوة ولوازمهما.

والملاحظة الأخرى: إذا لم يملك الإنسان القدرة على معرفة أصول الدين، كما لو كان مجنونا وفاقدا للعقل، أو لم يتمكن من معرفة الدين الحق نتيجة للظروف التي يعيشها فمثل هذا الإنسان يكون معذورا بمقدار قصوره، أما لو كان الإنسان يملك إستعدادا وقابلية لاكتساب العلم والمعرفة، ولكنه قصر في ذلك، وبقي على حالة شكه، أو أنه أنكر أصول الدين وضرورياته بدون دليل، فلا يكون معذورا، وسيحكم عليه بالعذاب الابدي.

## تأثير الإيمان في السعادة والشقاء الأبديين

مع ملاحظة هذه الحقيقة بأن الكمال الحقيقي للانسان إنما يتحقق في ظل القرب الإلهي، وفي المقابل، فإن سقوط الإنسان وإنحطاطه إنما يحصل نتيجة للبعد عن الله تعالى، ومن هنا فيمكن إعتبار الإيمان بالله تعالى، وبربوبيته

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٥.

التكوينية والتشريعية المستلزم للإعتقاد بالمعاد والنبوة، نبتة التكامل الحقيقي للإنسان، واما الأعمال التي يرتضيها الله فهي بمثابة أغصانها وأوراقها، وثمرتها السعادة الأبدية التي تظهر في عالم الآخرة، إذن فاذا لم يبذر الإنسان بذور الإيمان في قلبه، ولم يغرس هذا النبت المبارك، ولكن بذر في محلها بذور الكفر والعصيان المسمومة في قلبه، فانه قد أضاع النعمة الإلهية المعطاة له وزرع شجرة ستكون ثمارها الزقوم الجهنمي، ومثل هذا الشخص المنحرف، ليس له طريق يسلكه للوصول إلى السعادة الأبدية، ولا يتجاوز تأثير أعماله الخيرة حدود هذا العالم.

والسر في ذلك: أن كل فعل إختياري يعتبر حركة للروح بإتجاه الغاية والهدف الذي ينشده الفاعل، ومن لا يعتقد بالعالم الأبدي والقرب الإلهي، فكيف يمكنه أن ينشد مثل هذا الهدف ويتصوره، وكيف يوجه افعاله لمثل هذا الإتجاه؟! وبطبيعة الحال، لا يمكن لمثل هذا الشخص أن يتوقع حصوله على الثواب الابدي من الله تعالى، غاية ما يمكن تقبله بالنسبة للأعمال الخيرة التي تصدر من الكفار، أن مثل هذه الأعمال ربما توفر في التخفيف من عذابهم، اذ يمكن لهذه الأعمال أن تؤدي لإضعاف روح العناد وعبادة النفس وتخفيفها.

## شواهد قرآنية

نلاحظ أن القرآن الكريم يؤكد التأثير الفاعل والأساس للإيمان في سعادة الإنسان الأبدية، فبالاضافة إلى أن القرآن الكريم ذكر في عشرات الآيات العمل الصالح بعد ذكره للإيمان في سياق واحد، فإنه في بعض الآيات أكد اعتبار الإيمان شرطا في تأثير الأعمال الصالحة في السعادة الأبدية، حيث يقول: **﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾**[1].

هذا من جانب، ومن جانب آخر، نرى القرآن الكريم ذكر أن الله أعد الجحيم

(1) النساء: ١٢٤، وتراجع ايضا: النحل: ٩٧، والاسراء: ١٩، وطه: ١١٢، والأنبياء: ٩٤، وغافر: ٤٠.

والعذاب الابدي للكفار، واعتبر أعمالهم باطلة لا ثمرة فيها، وشبه أعمالهم بالرماد الذي يتطاير عند هبوب ريح شديدة، لا تبقي له أثرا: **﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾**[1]. وفي موضع آخر، يقول القرآن الكريم انه ستكون أعمال الكفر كالغبار المنثور في الهواء: **﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا﴾**[2]. وشبهها في آية أخرى بالسراب الذي يتطلع إليه الظامئ من بعيد، ولكن حين يقترب منه لا يجد ماء: **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾**[3].

ويقول بعد ذلك: **﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾**[4].

وتؤكد ايات أخرى أن نتائج أعمال طلاب الدنيا تمنح لهم في هذا العالم وليس لهم نصيب في الآخرة إذ لا تنفعهم هناك: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ ، أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾**[5].

---

(١) سورة ابراهيم، الآية: ١٨.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.

(٣) سورة النور، الآية: ٣٩.

(٤) سورة النور، الآية: ٤٠.

(٥) هود: ١٥ ـ ١٦ وانظر ايضا: الاسراء: ١٨، والشورى: ٢٠، والاحقاف: ٢٠، ومع ملاحظة هذه الآيات، ندرك مدى ما يملكه بعض الاشخاص من ثقافة اسلامية، ومعرفة بالاسلام! حيث فضلوا العلماء الكفار الملحدين الغربيين على كبار الشيعة وعلمائهم، أمثال نصير الدين الطوسي والعلامة المجلسي.



# الأسئلة



١ ـ بيّن رأي الخوارج والمرجئة في مجال الإيمان والكفر، وبين القول الحق في مقابل هذين الرأيين.

٢ ـ إشرح حقيقة الإيمان والكفر وعلاقتهما مع العلم والجهل.

٣ ـ وضّح النصاب اللازم للإيمان والكفر.

٤ ـ ما هي نسبة الاسلام والكفر الفقهي مع الإيمان والكفر الكلامي؟

٥ ـ بيّن تاثير الإيمان والكفر في السعادة والشقاء الأبديين.

الدرس الثامن والثلاثون

# الحبط والتكفير

## المقدمة

من المسائل التي تطرح حول علاقة الإيمان والعمل الصالح بالسعادة الأخروية، وكذلك حول علاقة الكفر والعصيان بالشقاء الأبدي، ما يلي : هل أن العلاقة بين كل لحظة من لحظات الإيمان والكفر مع نتيجتها الاخروية، وكذلك العلاقة بين كل عمل حسن أو سيء مع ثوابه وعقابه، هل هذه العلاقة حتمية وثابتة لا تقبل التغير، أم أنها قابلة للتغير؟ فمن باب المثال: هل من الممكن جبران أثر المعصية بالعمل الصالح؟ وكذلك العكس فهل من الممكن إزالة أثر العمل الصالح بالمعصية؟ وكذلك هل يمكن القول بأن أولئك الذين قضوا شطرا من عمرهم في الكفر والعصيان، وشطرا آخر في الايمان والطاعة، سوف يتعرضون للعقاب فترة، وللثواب فترة أخرى، أو أنه يوازن بين اعمالهم ويجبر أحدهما بالآخر، ونتيجة لذلك يتعين مصير الإنسان، إما السعادة واما الشقاء في العالم الابدي الخالد؟ أم أن الامر بشكل آخر؟

وهذه المسألة في واقعها هي مسألة (الحبط والتكفير)[1] التي بحث فيها . ومنذ

---

(١) الحبط والتكفير مصطلحان قرآنيان، والاول منها يعني عدم تأثير الأعمال الحسنة والخيرة، والثاني يعني جبران المعاصي.

زمان قديم - المتكلمون من الاشاعرة والمعتزلة. ونحن هنا نستعرض رأي الشيعة في هذا المجال بإيجاز.

## العلاقة بين الإيمان والكفر

اتضح أن أي فعل من الأفعال الحسنة والخيرة، وبدون الإيمان بالأصول العقائدية، لا تأثير له في الحصول على السعادة الأبدية، وبعبارة أخرى: إن الكفر يمنع تحقق تأثير الأعمال الصالحة، ونضيف هنا أن إيمان الإنسان في آخر عمره يمحو الآثار السيئة للكفر السابق، فهو مثل النور الساطع يزيل الظلمات السابقة، وعلى العكس من ذلك، فإن الكفر الاخير يمحو آثار الإيمان السابق، ويجعل صحيفة الشخص سوداء، ويجر مصيره إلى الضياع، ليكون نظير النار التي تسقط على البيدر، حيث تحرقه جميعا دفعة واحدة. ونضرب مثلا آخر لهذه الفكرة: ان الإيمان مثل المصباح الشديد الضياء، يضيء بيت القلب والنفس، ويزيل الظلمات منه، وأن الكفر مثل انطفاء ذلك المصباح، فهو يطفئ الضياء، ويوجد الظلمات، ومادامت النفس الإنسانية متعلقة بهذا العالم المادي، عالم التغيرات والتحولات فإنها دائما عرضة للضياء والظلام، وإشتداد النور والظلمة أو ضعفهما، ولكن حين يجتاز هذا العالم، حيث تغلق بوجهه أبواب إختيار الإيمان والكفر، فإنه مهما تمنى الرجوع مرة أخرى إلى هذا العالم، ليعمل على ازالة الظلمات، فلا تنفعه تمنياته ابدا.

ولا مجال للشك أو التردد في إعتراف القرآن الكريم بمثل هذا التأثير والتأثر بين الإيمان والكفر، وتدل عليه الكثير من الآيات القرآنية، ومنها الآية (٩) في سورة التغابن حيث يقول: **﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾**.

وفي الآية ٢١٧ من سورة البقرة يقول: **﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ**

**وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.**

### العلاقة بين الأعمال الحسنة والسيئة

وما ذكرناه حول العلاقة بين الإيمان والكفر يمكن تصوره في الجملة بين الأعمال الحسنة والسيئة، ولكن ليس بصورة عامة، بحيث تسجل دائما في صحيفة الإنسان أعماله الصالحة، وتنمحي وتزول منها أعماله غير الصالحة السابقة، أو تسجل دائما الأعمال غير الصالحة في صحيفة أعماله، بينما تنمحي وتزول منها أعماله الصالحة السابقة (كما إعتقده بعض المتكلمين من المعتزلة)، أو تثبت دائما النتيجة الحاصلة من الموازنة والجمع والجبران بين أعماله السابقة بملاحظة كميتها وكيفيتها (كما إعتقده بعض آخر)، وإنما في مجال الأعمال، لا بد من القول بالتفصيل التالي: وإن هناك بعض الأعمال الحسنة - إذا صدرت بصورة صحيحة ومقبولة - تمحو آثار الأعمال السيئة السابقة أمثال التوبة فهي إن صدرت بالصورة المطلوبة، تغتفر خطايا الشخص ويعفى عنها[1]، فهي تماما كالنور الذي يسلط ضوءه على النقطة المظلمة ليضيئها، ولكن هذا لا يعني أن كل عمل حسن يمحو آثار كل المعاصي، ومن هنا ربما إبتلي المؤمن بعقاب معاصيه لفترة وبعد ذلك يدخل الجنة الخالدة، وكأن لروح الإنسان أبعادا وجوانب مختلفة، وكل مجموعة من الأعمال الحسنة أو السيئة ترتبط ببعد منها، فمثلا: العمل الحسن المرتبط ببعد (ألف) لا يزيل أثر الذنب المرتبط ببعد (ب)، إلا إذا كان العمل الصالح من القوة والشدة في نوره بحيث يسري لسائر جوانب الروح الأخرى، أو أن الذنب يبلغ درجة

---

(١) قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً، وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً، وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴾ النساء: ١١٠، وانظر أيضا: آل عمران: ١٢٥، الانعام: ٥٤، الشورى: ٢٥، الزمر: ٥٢.

كبيرة من البشاعة والقبح بحيث يشوه سائر الأبعاد والجوانب الأخرى. وقد ورد في الروايات الشريفة، أن الصلاة المقبولة تغسل الذنوب وتسبب غفرانها. يقول القرآن الكريم: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾[1].

وبعض الذنوب، أمثال عقوق الوالدين، وشرب الخمر، تمنع ـ ولمدة بعد ارتكابها ـ من قبول العبادة، أو أن المن بعد الصدقة يبطل ثوابها، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿**لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى**﴾[2].

ولكن تحديد انواع ومقدار هذا التأثير والتأثر للأعمال الحسنة والسيئة، كل منها في الأخرى، لا بأن نعرفه من خلال الوحي وأحاديث المعصومين عليهم السلام ولا يمكن وضع قاعدة كلية عامة لها جميعا.

وقبل الختام تجدر الإشارة إلى أنه ربما كان للأعمال الحسنة والسيئة تأثيرها في أعمال أخرى في هذه الدنيا نفسها، في حصول المسرات أو الآلام، أو في حصول التوفيق أو سلبه فالملاحظ أن الإحسان للآخرين وخاصة إلى الوالدين والأقارب يؤثر في إطالة العمر، ودفع الأمراض والبلايا. وأن عدم توقير الكبار واحترامهم وخاصة المعلمين والاساتذة له تأثيره في سلب التوفيق، ولكن حصول هذه الآثار في هذه الدنيا لا يعني أن الإنسان قد حصل بشكل كامل على ثوابه أو عقابه، فإن الموضع الأصلي للثواب والعقاب هو العالم الأبدي.

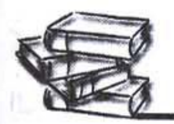
---

(١) سورة هود، الآية: ١١٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.



## الأسئلة



١ ـ وضّح معنى الحبط والتكفير.

٢ ـ ما هي الصور التي يمكن تصورها للعلاقة بين الإيمان والكفر؟ وما هي الصورة الصحيحة منها؟

٣ ـ ما هي الصور التي يمكن إفتراضها للعلاقة بين الأعمال الحسنة والسيئة؟ وما هي الصورة الصحيحة منها؟

٤ ـ هل للإعمال الحسنة والسيئة تأثيرها في أعمال أخرى في هذه الدنيا نفسها؟

٥ ـ هل أن الآثار الدنيوية للاعمال الحسنة والسيئة تحل محل الثواب أو العقاب الأخروي ام لا؟

الدرس التاسع والثلاثون

# الشفاعة

## المقدمة

من المزايا التي خص الله تعالى بها المؤمنين: أن المؤمن إذا إحتفظ بإيمانه حتى وفاته، ولم يرتكب الذنوب التي تسلب التوفيق منه، أو تؤدي به لسوء العاقبة، وتنحدر به للشك والإرتياب أو الإنكار والجحود، وفي جملة واحدة (إذا رحل عن الدنيا وهو مؤمن)، فان مثل هذا المؤمن سوف لا يتعرض للعذاب الأبدي، وتغتفر له ذنوبه الصغيرة بسبب إجتنابه الكبائر، وتغتفر له كبائره ايضا، فيما لو صدرت منه التوبة المقبولة والكاملة. وأما إذا لم يوفق لمثل هذه التوبة فإن تحمله لمصائب الدنيا وآلامها ولشدائد عالم البرزخ وأهواله، ومواقف بايات النشور والقيامة، سوف تأتي على البقية الباقية من أخطائه وأوزاره، وتزيل آثارها. وإذا لم يتطهر من خلال ذلك كله من أوحال ذنوبه وخطاياه، فإن الشفاعة ستقوم بمهمة إنقاذه من عذاب الجحيم. وهي أعظم وأشمل مظاهر الرحمة الالهية المختصة بأولياء الله وخاصة رسوله الأكرم وأهل بيته الطاهرين (عليهم الصلاة والسلام)[1] -، ووفقا للكثير من الروايات فإن ﴿**مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾[2] الذي وعد به الرسول الاكرم

---

(١) عن النبي (ص): (إدخرت شفاعتي لاهل الكبائر من امتي) بحار الانوار، ج ٨، ص ٣٧ - ٤٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.

صلى الله عليه وآله في القرآن الكريم هو مقام الشفاعة، وكذلك الآية الشريفة: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾[1].

تشير إلى العفو الإلهي الذي يشمل المستحقين، والذي يتم بشفاعة الرسول صلى الله عليه وآله.

ومن هنا، فإن أعظم أمل وآخر ملجأ للمؤمنين المذنبين هو الشفاعة، ولكن في الوقت نفسه، يلزم عليهم عدم الأمن من (المكر الالهي)، وأن يكونوا في حذر تام حتى لا تصدر منهم تلك الأعمال التي تؤدي لسوء العاقبة، وسلب الإيمان حال الاحتضار والموت، ويلزم أن لا يترسخ في قلوبهم التعلق والإنشداد بالأمور الدنيوية إلى درجة يرحلون معها من هذه الدنيا وهم ساخطون على الله لكونه هو الذي يفرق بالموت بينهم وبين ما يحبونه ويعشقونه ويتعلقون به.

## مفهوم الشفاعة

الشفاعة مشتقة من مادة (الشفع) أي (الزوج وما يضم إلى الفرد)، وتستخدم في الاستعمالات العرفية: بأن يطلب شخص محترم إلى شخص كبير، أن يعفو عن معاقبة مجرم، أو أن يضاعف مكافأة بعض العاملين والخدم. ولعل النكتة في إستعمال لفظة الشفاعة في هذه الأمور: أن هذا المجرم لا يستحق العفو، بحد ذاته هو، أو أن مثل ذلك العامل والخادم لا يستحق مضاعفة المكافأة لوحده، ولكن بضم طلب (الشفيع)، يتحقق مثل هذا الإستحقاق.

وفي المجالات المتعارفة، انما يتقبل الشخص شفاعة الشفيع، بسبب خشيته من أنه إذا لم يقبل شفاعته، فسوف يتألم هذا الشفيع ويتأذى، وبذلك يحرم من لذة معاشرته ومؤانسته، أو خدمته، بل ربما أدى عدم قبوله لشفاعته، أن يلحقه بعض الاذى، والضرر من جانب الشفيع، والملاحظ أن المشركين الذين إعتقدوا بإتصاف

---

(١) سورة الضحى، الآية: ٥.

خالق الكون ببعض الصفات الإنسانية البشرية، من قبيل الحاجة للمؤانسة والمعاشرة مع الزوجة والندمان، أو الحاجة للمساعدين والمعينين المشاركين له في العمل، أو الخوف من النظراء والشركاء، إن أمثال هؤلاء المشركين، من أجل إسترحام الخالق الكبير عليهم، وإستعطافه، أو من أجل التخلص من سخطه، كانوا يتوسلون اليه بآلهة اسطورية موهومة، أو يفزعون لعبادة الملائكة والجن، أو التذلل أمام الأوثان وكانوا يقولون: **﴿هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّه﴾**[1].

ويقولون أيضا: **﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾**[2].

ويقول القرآن الكريم حول هذه المعتقدات الجاهلية: **﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيع﴾**[3].

ولكن يلزم التأكيد على هذه الحقيقة: أن إنكار أمثال هؤلاء الشفعاء، أو نفي مثل هذه الشفاعة لا يعني إنكار مطلق الشفاعة، وفي القرآن الكريم نفسه آيات تدل على ثبوت (الشفاعة بإذن الله)، وقد ذكرت فيها شروط الشفعاء والمشفوع لهم، ويجدر أن نعلم أن قبول الله لشفاعة الشفعاء المأذونين ليس بسبب الخوف أو الحاجة اليهم، بل إنه طريق فتحه الله تعالى لأولئك الذين لا يملكون إلا أدنى وأقل مراتب الإستحقاق للتزود من الرحمة الأبدية وقد عين لهذه الشفاعة بعض الشروط والضوابط.

وفي الواقع إن الفرق بين الشفاعة الصحيحة والشفاعة الباطلة هو الفرق بين الإعتقاد بالولاية والتدبير بإذن الله، والولاية والتدبير المستقل، وقد تقدم البحث في هذا الموضوع في قسم التوحيد.

وقد تستخدم لفظة الشفاعة أحيانا في معنى أوسع من ذلك، لتشمل ظهور أي تأثير خير حسن في الإنسان بواسطة آخر، كما هو الملاحظ في شفاعة الوالدين

(١) يونس: ١٨، وكذلك: الروم: ١٣، الانعام: ٩٤، الزمر: ٤٣.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٣) الانعام: ٥١، وايضا: الانعام: ٧٠، السجدة: ٤، الزمر: ٤٤.

لأولادهم أو بالعكس، والمعلمين والمرشدين لتلاميذهم بل حتى المؤذن بالنسبة لأولئك الذين تذكروا الصلاة عند سماع صوته، وإتجهوا للمساجد، وفي الواقع إن هذا الأثر الخير الحسن نفسه الذي وجد في الدنيا، بتأثير هؤلاء، يظهر في القيامة بصورة الشفاعة والاعانة.

والملاحظة الأخرى: أن الإستغفار للعصاة في هذه الدنيا نوع من الشفاعة ايضا، وحتى الدعاء للآخرين، والتوسل إلى الله لقضاء حوائجهم، يعتبر في الواقع، من قبيل (الشفاعة عند الله) لانها كلها من قبيل الوساطة عند الله تعالى من أجل إيصال خير للشخص، أو دفع شر عنه.

## ضوابط الشفاعة

تقدم أن الشرط الأساس لشفاعة الشفيع، أو قبول الشفاعة في حق المشفوع له، هو الإذن الإلهي، كما جاء ذلك في الآية (٢٥٥) من سورة البقرة: **﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإِذْنِه﴾**. ويقول في الآية (٣) من سورة يونس: **﴿مَا مِن شَفِيعٍ إلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِه﴾**. ويقول ايضا في الآية (١٠٩) من سورة طه: **﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾**. ويقول في الآية (٢٣) من سورة سبأ: **﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَه﴾**.

ويثبت من هذه الآيات اجمالا اشتراط الإذن الإلهي، ولكن لا يستفاد منها خصائص المأذونين ومميزاتهم، ولكن هناك آيات أخرى يمكن التوصل من خلالها إلى شروط أكثر وضوحا يلزم توفرها في الطرفين: الشفعاء والمشفوع لهم، ومنها الآية (٨٦) من سورة الزخرف، حيث تقول: **﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُون﴾**.

وربما كان المراد من قوله (من شهد بالحق) شهداء الأعمال، الذين يعلمون، وبتعليم من الله، أعمال العباد ونواياهم، ويمكنهم أن يشهدوا على كيفية أعمالهم

وقيمتها. كما أنه، بمناسبة الحكم والموضوع يمكن القول أن الشفعاء يلزم أن يتمتعوا بمثل هذا العلم، بحيث يمكنهم أن يحددوا الأفراد الذين يستحقون التشفع لهم. ثم إن القدر المتيقن من الشفعاء الذين يتوفر فيهم هذان الشرطان، هم المعصومون (عليهم السلام).

ومن جانب آخر: يستفاد من بعض الآيات أن المشفوع لهم لا بد أن يكونوا مرضيين عند الله، كما جاء ذلك في الآية (٢٨) من سورة الأنبياء حيث تقول: **﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾**.

ويقول في الآية (٢٦) من سورة النجم: **﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى﴾**.

ومن الواضح أنه: ليس المراد من كون المشفوع مرضيا عند الله، أن تكون أعماله كلها مرضية، فإنه لو كان كذلك لما إحتاج للشفاعة بل المراد أن يكون الشخص نفسه مرضيا من حيث دينه وإيمانه، كما فسر في الروايات بهذا المعنى.

ومن جانب آخر، ذكرت بعض الآيات صفات أولئك الذين لا تشملهم الشفاعة، أمثال ما ورد في الآية (١٠٠) من سورة الشعراء، حيث أوردت على لسان المشركين: **﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾**. وفي سورة المدثر من الآية (٤٠) حتى الآية (٤٨)، حيث يسأل المجرمون عن سبب دخولهم النار، أمثال ترك الصلاة[1] وعدم إطعام المساكين، وتكذيب يوم الجزاء، ثم يقول القرآن الكريم بعد ذلك **﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾**. ويستفاد من هذه الآيات أن المشركين والمنكرين للقيامة، الذين لا يعبدون الله، ولا يساعدون المساكين، ولم يلتزموا أصولا صحيحة، لن يشفع لهم أبدا، وكذلك مع ملاحظة أن إستغفار الرسول صلى الله عليه وآله في الدنيا يعتبر نوعا من الشفاعة، ولا يقبل إستغفاره لأولئك الذين يستكبرون

---

(١) قال الإمام الصادق (ع) في آخر لحظات عمره الشريف: (إن شفاعتنا لا تنال مستخفا بالصلاة) (بحار الانوار، ج٤، ص ٢).

ويمتنعون عن طلب الإستغفار والشفاعة منه[1]، يستفاد من ذلك، أن منكر الشفاعة لا تشمله الشفاعة أيضا، وقد ورد هذا المعنى في الروايات أيضا (٢).

والحاصل: أن الشفيع المطلق والأصلي، يلزم ـ بالاضافة لإذن الله له بالشفاعة ـ أن لا يكون هو بنفسه من أهل المعصية، وأن يكون قادرا على تقييم درجات إطاعة الآخرين وعصيانهم وأن الاتباع الحقيقيين لمثل هذا الشفيع، يمكنهم وفي ضوئه أن يملكوا مراتب ادنى من الشفاعة حيث يحشر أمثال هؤلاء الاتباع في زمرة الشهداء والصديقين[٣]، ومن جانب آخر: إن من يستحق التشفع له، يلزم ـ بالاضافة للإذن الإلهي ـ أن يكون مؤمنا حقا بالله والأنبياء ويوم القيامة وكل ما نزل على النبي صلى الله عليه وآله، ومنها الإيمان بالشفاعة ذاتها وانها على حق، وأن يبقى ثابتا على إيمانه حتى نهاية عمره.



## الأسئلة



١ ـ إشرح معنى الشفاعة، ومواطن إستعمالها.

٢ ـ بيّن الفرق بين الشفاعة الصحيحة، والشفاعة الباطلة الإشراكية.

٣ ـ وضّح شروط الشفيع.

٤ ـ إشرح شروط المشفوع له.

٥ ـ هل تنال الشفاعة للمكذب عمليا بيوم القيامة وما الدليل على ذلك؟

---

(١) سورة المنافقون، الأيتان: ٥ ـ ٦.

(٢) عن النبي (ص): (من لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي) (بحار الانوار، ج ٨، ص ٥٨، ح ٨٤).

(٣) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (الحديد: ١٩).

## الدرس الأربعون

# الشبهات المثارة حول الشفاعة، والرد عليها

طرحت حول الشفاعة إعتراضات وشبهات، نتعرض في هذا الدرس إلى أهمها ونجيب عنها:

**الشبهة الأولى:** إن هناك بعض الآيات القرآنية تدل على أنه في يوم القيامة لا تقبل شفاعة أحد، ومنها الآية (٤٨) من سورة البقرة، حيث يقول: **(واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون)**.

الجواب: إن أمثال هذه الآيات، قد وردت في مقام نفي الشفاعة الباطلة والعشوائية التي لا تخضع لضابطة وقاعدة، والتي إعتقد بعض الناس بها، بالإضافة إلى ان هذه الآيات عامة، وتخصص بتلك الايات التي تدل على قبول الشفاعة بإذن الله، والخاضعة لضوابط معينة. كما مرت الاشارة إلى ذلك في الدرس السابق.

**الشبهة الثانية:** يلزم من هذه الشفاعة أن يخضع الله تعالى لتأثير الشفعاء، بمعنى: أن شفاعتهم توجب المغفرة، وهي فعل إلهي.

الجواب: إن قبول الشفاعة لا يعني الخضوع لتأثير مؤثر، كما أن قبول التوبة وإستجابة الدعاء لا يلزم منه هذا اللازم الباطل، وذلك لأنه في جميع هذه الأمور

تكون أفعال العباد موجبة لحصول القابلية لتقبل الرحمة الإلهية، وكما يعبر عنه إصطلاحا (أنها شرط لقابلية القابل وليست شرطا لفاعلية الفاعل).

**الشبهة الثالثة:** اللازم من هذه الشفاعة أن يكون الشفعاء أكثر رحمة وشفقة من الله الرحيم!، وذلك لأن المفروض أنه لولا شفاعتهم لتعرض العصاة للعذاب، أو لخلدوا في العذاب.

الجواب: إن شفقة الشفعاء ورحمتهم مقتبسة من الرحمة الإلهية اللامتناهية، وبعبارة أخرى: إن الشفاعة وسيلة وطريق جعله الله تعالى نفسه للعفو عن عبادة المذنبين. وفي الواقع، إنها تعبر عن أسمى مراتب الرحمة الالهية والتي تظهر وتتجلى في عباده الصالحين والمنتجبين، كما أن الدعاء والتوبة وسائل وطرق أخرى جعلها الله لقضاء الحوائج، أو العفو عن الذنوب.

**الشبهة الرابعة:** إذا كان الحكم الإلهي بعذاب العصاة مقتضى العدالة، فيكون قبول الشفاعة في حق هؤلاء العصاة مخالفا للعدل، وإذا كانت النجاة من العذاب - وهي مقتضى قبول الشفاعة - أمرا موافقا للعدل، فيكون الحكم بالعذاب - الذي كان صدوره قبل حصول الشفاعة - حكما مخالفا للعدل.

الجواب: إن كل حكم من الاحكام الالهية - سواء الحكم بالعذاب قبل لشفاعة أو الحكم بالنجاة من العذاب بعدها - موافق للعدل والحكمة، وموافقة هذين الامرين كليهما للعدل والحكمة، لا تعني الجمع بين الضدين، وذلك لإختلاف موضوعهما.
**توضيح ذلك:** إن الحكم بالعذاب هو مقتضى وسبب من ارتكاب المعصية بغض النظر عن حصول الأمور والمقتضيات التي توجب تحقق الشفاعة وقبولها في حق العصاة، والحكم بالنجاة من العذاب إنما تم بسبب حصول تلك المقتضيات والأمور المذكورة وهناك نظائر كثيرة لتغير الحكم تبعا لتغير قيد الموضوع في الأحكام والتقديرات التكوينية، وفي الأحكام والقوانين التشريعية، فعدالة الحكم المنسوخ بالنسبة لزمانه لا يتنافى وعدالة الحكم الناسخ في زمان ما بعد النسخ،

وموافقة تقدير البلاء قبل الدعاء والصدقة للحكمة، لا تتنافى وموافقة رفعه بعد البلاء أو الصدقة للحكمة، والحكم بالعفو عن المعصية بعد الشفاعة كذلك لا يتنافى مع الحكم بالعذاب قبل تحقق الشفاعة.

**الشبهة الخامسة:** إن الله تعالى إعتبر أتباع الشيطان سببا في التعرض لعذاب النار، كما جاء ذلك في الآيتين (٤٢) و (٤٣) من سورة الحجر: **﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾**.

وفي الواقع، إن تعذيب العصاة في الآخرة من السنن الالهية، ونحن نعلم أن السنن الإلهية لا تقبل التغيير والتبديل، كما جاء ذلك في الآية (٤٣) من سورة فاطر: **﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾**.

إذن فكيف تتغير هذه السنة الالهية في مجال الشفاعة؟

الجواب: إن قبول الشفاعة في حق المذنب المتوفر على شروطها، من السنن الإلهية التي لا تقبل التغير، وتوضيح ذلك: إن السنن الإلهية خاضعة لملاكات ومعايير واقعية، وكل سنة لا تقبل التغير، مع توفر مقتضياتها وشروطها الوجودية والعدمية. ولكن العبارات التي تدل على أمثال هذه السنن ليست في الغالب في مقام بيان جميع قيود الموضوع وشروطه المختلفة. ومن هنا، فهناك بعض الأمور التي تشملها ظواهر الآيات المرتبطة ببعض السنن المختلفة، مع أن مصداق الاية في الواقع أخص وتابع للملاك الاقوى. إذن فكل سنة ثابتة لا تقبل التغير مع ملاحظة القيود والشروط الواقعية لموضوعها (لا خصوص القيود والشروط المذكورة في العبارة)، ومن هذه السنن سنة الشفاعة، فهي ثابتة غير قابلة للتغير والتبديل، في خصوص عصاة مخصوصين، يتوفرون على شروط معينة، ويخضعون لضوابط خاصة.

**الشبهة السادسة:** إن الوعد بالشفاعة يؤدي لجرأة الناس وتماديهم في

إرتكاب المعاصي، والإنحراف عن الصراط المستقيم.

**الجواب:** عن هذا الإعتراض الذي يبرز ايضا في مجال قبول التوبة، وتكفير السيئات، هو أن شمول الشفاعة والمغفرة لشخص مشروط بشروط لا يمكن للعاصي أن يتيقن بحصولها. ومن جملة شروط قبول الشفاعة لأحد احتفاظ المشفوع له بإيمانه حتى آخر لحظات عمره، ونحن نعلم أن أي احد لا يمكنه أن يتيقن بتحقق هذا الشرط . ومن جانب آخر، إن من ارتكب معصية، لو فقد كل امل ورجاء بالعفو والمغفرة، فإنه سوف يصاب باليأس والقنوط، ومثل هذا اليأس يؤدي إلى ضعف الباعث له على إجتناب المعصية ويدفعه أكثر إلى مواصلة الخطأ والإنحراف والتمادي فيه. ومن هنا، فان طريقة التربية عند المربين الإلهيين إبقاء الناس دائما بين حالتي الخوف والرجاء، فلا يبعثون فيهم الرجاء بالرحمة الإلهية إلى درجة يصابون معها بحالة (الأمن من المكر الإلهي) كما لا يثيرون فيهم الخوف من عذاب الله إلى درجة يبتلون معها بحالة (اليأس من الرحمة الإلهية). ونحن نعلم أن هاتين الحالتين تعتبران من الكبائر.

**الشبهة السابعة:** إن تأثير الشفاعة في النجاة من العذاب يعني تأثير عمل الآخرين (الشفعاء) في السعادة والخلاص من الشقاء بينما الآية الشريفة (وان ليس للانسان إلا ما سعى) تدل على أن سعي الشخص وجهده نفسه، هو الذي يوصله للسعادة.

**الجواب:** إن سعي الشخص وجهده من أجل الوصول إلى الهدف المنشود تارة يتم بصورة مباشرة، و يستمر حتى نهاية الطريق، وأخرى، بصورة غير مباشرة ومع توفير المقدمات والوسائط، وأن الشخص الذي تشمله الشفاعة، يبذل ايضا جهدا، وسعيا في سبيل تحصيل مقدمات السعادة، وذلك لأن الإيمان، وتحصيل الشروط اللازمة لإستحقاق الشفاعة، يعتبر جهدا وسعيا في طريق الوصول للسعادة، وإن كان سعيا ناقصا وقاصرا ولذلك سيبتلى لفترة بمتاعب البرزخ

وأهواله، ومواقف بآيات القيامة، ولكنه على كل حال قد غرس بنفسه جذور السعادة في قلبه، وهو الإيمان، وربما سقاها أحيانا بالأعمال الصالحة، حتى لا تجف حتى نهايات عمره. إذن فسعادته النهائية مستندة لسعيه وجهده، وإن كان للشفعاء تأثيرهم في حصول الثمرة لهذه الشجرة، كما هو الملاحظ في الدنيا، من وجود آخرين لهم تأثيرهم في هداية الناس وتربيتهم، ولكن تأثيرهم لا يعني نفي سعي الفرد نفسه وبذل جهده في هذا المجال.



## الأسئلة



١. مع وجود الآيات الدالة على نفي الشفاعة، فكيف يمكن الإعتقاد بتحققها؟

٢. هل يلزم من الشفاعة تأثير الآخرين في الله تعالى؟

٣. وضّح العلاقة بين الشفاعة والعدل الإلهي.

٤. هل تؤدي الشفاعة لتغيير السنة الإلهية؟

٥. هل أن الوعد بالشفاعة يؤدي لجرأة العصاة وتماديهم في الإنحراف؟

# فهرس